دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد السابع

إعداد

جعفر شرف الدين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

الموسوعة القرآنية
خصائص السُّوَر

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد السابع

إعداد

جعفر شرف الدين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

مراجعة

الأستاذ أحمد حاطوم

د. محمد توفيق أبو علي

شبكة كتب الشيعة

shiabooks.net

mktba.net < رابط بديل

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص.ب ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون ٢/ ٣٥٠٧٢١ (٠١)
تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ ـ ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)
e-mail: allprints@netgate.com.lb

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م

الإخراج الفني: زاهية عاصي

سورة الرُّوم

٣٠

أهداف سورة «الروم»(*)

سورة الروم سورة مكّيّة نزلت بعد سورة الانشقاق، وآياتها ٦٠ آية. وقد نزلت سورة الروم في السنة التي انتصر فيها الفرس على الروم، وكان ذلك قبل الهجرة بسنة.

وسمّيت هذه السورة بسورة الروم لقوله تعالى في أولها: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾.

سبب نزول السورة

قال المفسّرون[1]: بعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليهم رجلاً يسمّى شهريران، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم، فقتلهم وخرّب مدائنهم وقطع زيتونهم، وكان قيصر قد بعث رجلاً يدعى يحنس، فالتقى مع شهريران بأذْرِعات وبُصْرى وهما أدنى الشام إلى أرض العرب. فغلبت فارسُ الرّوم، وبلغ ذلك النبيّ (ص) وأصحابه بمكّة فشقّ عليهم. وكان النبي (ص) يكره أن يظهر الأمّيّون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح كفار مكّة وشمتوا، وقالوا للمسلمين: إنكم أهل كتاب، والنّصارى أهل كتاب ونحن أمّيّون. وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنّكم إن قاتلتمونا لَنَظْهَرَنَّ عليكم.

فأنزل الله تعالى سورة الروم. وفيها يفيد أنّ أهل فارس قد غلبوا الروم في

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

(١) انظر تفسير الجلالين، والطبري، ومقاتل بن سليمان، وظلال القرآن في أسباب النزول للواحدي.

أرض الأردن وفلسطين وهي أقرب البلاد إلى جزيرة العرب. ثمّ وعد الله جلّ جلاله أن ينتصر الروم على الفرس في جولة أخرى خلال بضع سنين. والبضع هو ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر. وقد التقى الجيشان في السنة السابعة من الالتقاء الأوّل، وغَلَبت الرومُ فارس.

وعن أبي سعيد الخدري قال: لما كان يومُ بدر غلب المسلمون كفّار مكّة وأتى المسلمين الخبرُ بعد ذلك ـ والنبيّ والمؤمنون بالحديبية ـ بأن الروم قد غَلَبوا أهل فارس ففرح المسلمون بذلك، لانتصار أهل الكتاب على عباد الأوثان، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

فصلان مترابطان

يمضي سياق سورة الروم، في فصلين مترابطين:

الفصل الأول: يربط بين نصر المؤمنين والحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما، ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة. ويوجّه إلى سُنَّةِ الله فيمن مضى قبلهم من القرون، ويقيس عليها قضيّة البعث والإعادة. ثمّ يعرض عليهم مشهداً من مشاهد الكون، وآيات الله المبثوثة في ثناياه، ودلالة تلك المشاهد وإيحائها للقلوب، ويضرب لهم من أنفسهم وممّا ملكت أيمانهم أمثالاً تكشف عن سخافة فكرة الشرك، وقيامها على الأهواء التي لا تستند إلى حق أو علم. وينتهي هذا الموضوع بتوجيه الرسول (ص) إلى اتّباع طريق الحق الواحد الثابت الواضح، طريق الفطرة التي فُطِرَ النّاس عليها، والتي لا تتبدّل ولا تدور مع الهوى، ولا يتفرّق متّبعوها شِيَعاً وأحزاباً، كما تفرّق الذين اتبعوا الهوى. ويمتدّ هذا الفصل من أول السورة إلى الآية ٣٢.

الفصل الثاني: يكشف الفصل الثاني من سورة الروم عمّا في طبيعة النّاس من تقلّب لا يصلح أن تقام عليه الحياة، ما لم يرتبطوا بمعيار ثابت لا يدور مع الأهواء. ويصوّر حالهم في الرحمة والضُرّ، وعند بسط الرّزق وقبضه، ويستطرد السياق في هذه المناسبة إلى وسائل إنفاق هذا الرّزق وتنميته، ويعود إلى قضية الشّرك والشّركاء فيعرضها من هذه الزاوية فإذا

الشركاء لا يَرزُقون ولا يُميتون ولا يُحيون. ويربط بين ظهور الفساد في البرّ والبحر وعمل النّاس وكسبهم، ويوجّههم إلى السّير في الأرض، والنّظر في عواقب الناس المشركين من قبل، ومن ثَمّ يذكر السياق توجيهه تعالى رسوله (ص) إلى الاستقامة على دين الفطرة من قبل أنْ يأتيَ اليوم الذي يُجزَى فيه كلٌ بما كسبت يداه، ويعود بهم بعد ذلك إلى آيات الله في مشاهد الكون، كما عاد بهم في الفصل الأول. ويعقب على ذلك بأن الهدى هدى الله، وأن الرسول (ص) لا يملك إلا البلاغ فهو لا يهدي العُميَ ولا يُسْمِع الصم، ثم يطوف بهم في جولة جديدة في ذات أنفسهم ويذكُرهم بأطوار نشأتهم من بدئها إلى منتهاها، منذ الطفولة الواهنة الضعيفة إلى الموت والبعث والقيامة، ويعرض عليهم مشهداً من مشاهدها، ثُمّ ينتهي هذا الموضوع، وتختم معه السورة بتوجيه الرسول (ص) إلى الصبر على دعوته، وما يلقاه من الناس فيها، والاطمئنان إلى أنّ وعد الله حقٌ لا بدّ آتٍ؛ فلا يُقلقه الذين لا يوقنون، ويمتد هذا الفصل من الآية ٣٣ إلى آخر السورة.

الأفكار العامة للسورة

الفكرة الرئيسة في سورة الروم، هي الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس وأحداث الحياة، وماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها، وسنن الوجود ونواميس الكون، ومن خلال هذه الارتباطات، يبدو أنّ كلّ حركة وكلّ حالة وكلّ نصر وكلّ هزيمة مرتبطة جميعها برباط وثيق، محكومة بقانون دقيق؛ وأنّ مردّ الأمر فيها كلّه لله سبحانه: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الآية ٤]. وهذه هي الحقيقة الأولى التي يؤكّدها القرآن كلّه بوصفها الحقيقة الموجِّهة في هذه العقيدة. الحقيقة التي تنشأ عنها التصوّرات جميعها والمشاعر والقيم والتقديرات، والتي بدونها لا يستقيم تصوّر ولا تقدير.

وهناك أفكار متعدّدة مبثوثة في ثنايا السورة منها:

ذكر أخبار القرون الماضية، وذكر قيام الساعة، وآيات التوحيد والحجج المترادفة الدّالة على الذّات والصّفات، وبيان البعث يوم القيامة وتمثيل حال المؤمنين والكافرين، وتقرير المؤمنين على الإيمان، والأمر بالمعروف

والإحسان إلى ذوي القربى، ووعد الثواب على أداء الزكاة، والإخبار عن ظهور الفساد في البرّ والبحر، وعن آثار القيامة، وذكر عجائب الصنع في السّحاب والأمطار، وظهور آثار الرّحمة في إنبات النبات وظهور الربيع، وذكر إصرار الكفّار على الكفر، وتخليق الله الخلق مع الضّعف والعجز، وإحياء الخلق بعد الموت، والحشر والنشر، وتسلية الرسول (ص).

عالمية الدعوة الاسلامية

لم يقف القرآن في سورة الرّوم عند حادث هزيمة الرّوم أمام الفرس، ثمّ الوعد بغلبة الرّوم للفرس. ولكنّه انطلق من ذكر هذه الحادثة ليربط بين سُنَّةِ الله تعالى في نصر العقيدة السماوية والحق الكبير الذي قامت عليه السماوات والارض وما بينهما، وليصل بين ماضي البشريّة وحاضرها ومستقبلها.

ثمّ يستطرد السياق القرآني إلى الحياة الآخرة ومشاهدها، ثمّ يطوف بالمسلمين في مشاهد الكون ومشاهد النفس وأحوال البشر وعجائب الفطر، ومن ثَمَّ يرتفع تصوّرهم لحقيقة الارتباطات وحقيقة العلاقات في هذا الكون الكبير، ويشعرون بدقّة السُّنَنِ التي تحكم هذا الكون وتُصَرِّف أحداث الحياة وتُحدّد مواضع النصر ومواضع الهزيمة.

وفي ظل ذلك التصوّر الواسع الشامل، تتكشف عالميّة هذه الدعوة، وارتباطها بأوضاع العالم كلّه من حولها.

ويدرك المسلم موقفه وموقف أمّته في ذلك الخضم الهائل، ويعرف قيمته هو وقيمة عقيدته في حساب الناس وحساب الله، فيؤدّي حينئذ دوره على بصيرة، وينهض بتكاليفه في ثقة وطمأنينة واهتمام.

ترابط الآيات في سورة «الروم»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الروم بعد سورة الانشقاق، وكان نزول سورة الروم في السنة التي هزمهم الفُرس فيها، وكان ذلك قبل الهجرة بسنة، فتكون من السور التي نزلت فيما بين الإسراء والهجرة إلى المدينة.

وقد سمّيت هذه السور بهذا الاسم، لقوله تعالى في أوّلها: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ وتبلغ آياتها ستّين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة تسلية المؤمنين فيما يصيبهم من أذى المشركين، كشماتتهم بهم حين انتصر الفرس على الرُّوم، وذلك بوعدهم بنصر الرّوم على الفرس في الدّنيا، وبيان ما يكون من حالهم وحال أعدائهم في الآخرة؛ وقد جاء هذا الغرض فيها على قسمين: أوّلهما في تسلية المؤمنين بوعدهم بنصر الروم على الفرس، وما إلى هذا ممّا ذكر فيه، وثانيهما في بيان بعض ما يثبّتهم ويهوّن عليهم ما يلقونه من أعدائهم.

وقد جاءت هذه السورة بعد سورة العنكبوت لأنّ المسلمين وعدوا فيها بالنصر على المشركين، فجاءت هذه السورة بعدها، وفي أولها وَعْدُه سبحانه بنصر الروم على الفرس، ليكون مقدّمة لتحقيق وعده جل جلاله للمسلمين، لأنّ الروم كانوا أهل كتاب، وكانوا

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

أقرب إلى المسلمين من الفرس، ولهذا حزن المسلمون لهزيمتهم وفرح مشركو قريش.

تسلية المؤمنين
الآيات [١ - ١٦]

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ فذكر أن الروم غُلِبُوا، ووعد بنصرهم على من غلبهم، ليفرح المؤمنون بنصرهم لأنّهم أهل كتاب مثلهم؛ ثم ذكر سبحانه أنه إذا وعد لا يخلف وعده، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون، لأنّ علمهم لا يتعدّى ظاهراً أمور الدنيا من ملاذُها وملاعبها، ولا يصل إلى باطنها وأسرارها، وهم إلى هذا غافلون عن الآخرة ولا يصلون إلى علمها، فهم لهذا كلّه ينكرون وعده بالنصر ولا يصدّقون به، وينكرون الحشر وما أُعِدّلهم فيه؛ ثمّ حثّهم على ما يوصلهم إلى العلم بذلك من الفكر والنظر، لأنهم لو فكّروا في خلق السماوات والأرض وما بينهما، لعلموا أن الله جلّ جلاله لم يخلقهم إلاّ لحكمة وأجل معيّن، ثمّ يكون بعد ذلك ما ينكرونه من الحشر، ولو ساروا في الأرض لرأوا عاقبة من كذّب قبلهم من الأمم، وحملهم ذلك على التصديق بما وعد الله من النصر؛ ثم ذكر أنه هو الذي بدأ الخلق فهو قادر على إعادته وعلى حشرهم إليه بعد موتهم، وأنّهم يوم يحشرون إليه لا يجدون إلى الخلاص طريقاً، ولا يكون لهم شفيع من شركائهم، ويكفرون بهم بعد مشاهدة عجزهم؛ ويومئذٍ يتفرّق كلّ من المؤمنين والكافرين إلى ما أعدّ لهم، فأمّا المؤمنون فهم في روضةٍ يُحْبَرُونَ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾.

وسائل تثبيتهم
الآيات [١٧ ـ ٦٠]

ثمّ قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧﴾ فأمرهم بالمواظبة على الصلاة في أوقاتها من الصباح والمساء والعشيّ والظّهيرة، كما أمرهم بذلك في السّورة السابقة؛ ثمّ ذكر بما يوجب عليهم القيام بتسبيحه وحمده فيها، أنّه هو الذي يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ،

إلى غير هذا ممّا ذكره من آياته ونِعَمه؛ ثمّ ذكر أنّه هو الذي يتفرّد بما ذكره من ذلك كلّه، ولا يصحّ أن يكون له فيه شركاء من خلقه يستحقّون العبادة مثله، كما لا يصحّ أن يكون لنا فيما يرزقنا شركاء ممّا ملكت أيماننا.

ثم أظهر لهم فضل ذلك الدّين الذي يَلْقَوْنَ الأذى فيه، فذكر أنه دين الفطرة التي فُطِرَ النّاس عليها، فيجب أن يتمسّكوا به ولا يكونوا من المشركين الذين تركوه فتفرّقوا شِيعاً يعادي بعضهم بعضاً؛ ثمّ ذكر أنّ هؤلاء المشركين منهم من إذا مسّه ضرٌّ رجعوا إلى فطرتهم فَدَعَوْا ربّهم، فإذا كُشِف الضرّ عنهم رجع فريق منهم إلى شركهم، وكفروا بما آتاهم من كشف الضرّ عنهم، ومنهم من هو على عكس هذا، فإذا أذاقه رحمة فرح بها، وإن أصابته سيّئة وقع في القنوط واليأس.

ثمّ أمرهم أن يُوَاسِي بعضهم بعضاً، بأن يعطي القريب حقّ النّفقة لقريبه، ويعطي الغنيّ حقّ الزّكاة للمسكين وابن السبيل، ونهاهم أن يتعاملوا بالرّبا لأنّه لا يربُو عنده كما تربو الزكاة.

ثمّ ذكر لهم أنه لا يترك أعداءهم من غير أن يعجّل لهم بعض العذاب على ما أظهروا من الفساد في البرّ والبحر، وأمرهم أن يسيروا في الأرض لينظروا كيف كان عاقبة الذين أشركوا من قبلهم، وأن يتمسّكوا بدينهم من قبل أن يأتيهم ذلك العذاب فيتفرّقوا فيه، فالكافرون يعاقبون على كفرهم، والمؤمنون يثابون على إيمانهم، ليجزيهم من فضله بما صبروا على أذاهم، فيرحمهم بذلك كما يرسل الرياح مُبشّراتٍ برحمته، وينتقم من أعدائهم كما انتقم من الذين أجرموا قبلهم؛ ثمّ قرّب وعده لهم مع ضعف حالهم بأنه يرسل الرياح فتثيرُ سحاباً فيبسطه في السماء ثم يخرج المطر من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده فرحوا به وإن كانوا قبله في يأس منه، ثم قرّبه أيضاً بما يُشاهدُ من آثار رحمته في إحيائه الأرض بعد موتها، فمن يفعل ذلك يقدر على تقويتهم بعد ضعفهم وهو على كل شيء قدير، ثمّ ذكر أن أولئك المشركين لو أرسل عليهم ريحاً مُصفرّاً إنذاراً لهم بما يوعدهم من ذلك العذاب لظلُّوا من بعده على كفرهم، لأنهم بلغوا من الجهل مالا يتأثرون معه بإنذار أو دعاء، فلا يصدّقون وعده بنصر هؤلاء الضعفاء عليهم، ثمّ ذكر ممّا يثبت

قدرته على ذلك أنّه خلقهم من ضعف في حال طفولتهم، ثمّ جعل لهم من بعد ضعفهم قوّة في حال شبابهم، ثمّ جعل لهم من بعد قوّتهم ضعفاً في حال شيخوختهم، فهو قادر على أن يضعفهم وينصر المؤمنين عليهم؛ ثم ذكر عذابهم الأكبر بعد عذاب الدنيا، وذلك حين تقوم القيامة فتنسيهم شدّتها مقدار ما لبثوه في دنياهم، فيقسمون أنهم ما لبثوا فيها غير ساعة، ويردّ عليهم أهل العلم والإيمان بأنهم لبثوا الأجل الذي ضربه الله لهم إلى يوم البعث. ولكنهم كانوا لا يؤمنون بذلك ففاتهم العلم به، ويومئذ يلقون عذابهم ولا ينفعهم معذرة ولا يكون لهم استعتاب، لأنّه لم يجعل لهم ما يعتذرون به بعد أن ضرب لهم في القرآن من كلّ مثل، فكانوا لا يؤمنون بما يأتيهم به من الآيات؛ ثمّ ختمت السورة بالأمر بالصبر الى أن يتحقّق ذلك الوعد، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الروم»(*)

أقول: ظهر لي في اتّصالها بما قبلها، أن سورة العنكبوت ختمت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت/٦٩].

فافتتحت هذه بوعد مَنْ غُلِبَ مِنْ أهل الكتاب بالغلبة والنصر، وفرح المؤمنين بذلك، وأنّ الدولة لأهل الجهاد فيه، ولا يضرهم ما وقع لهم قبل ذلك من هزيمة[1].

هذا مع تآخيها بما قبلها في المطلع، فإنّ كلاً منهما افتتح بـ (ألم) غير معقّب بذكر القرآن، وهو خلاف القاعدة الخاصة بالمفتتح بالحروف المقطّعة، فإنها كلّها عقّبت بذكر الكتاب أو وصفه، إلاّ هاتين السّورتين وسورة القلم، لنكتة بيّنتها في «أسرار التنزيل»[2].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ الى قوله تعالى ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الآيات ٢ _ ٥].

(٢) ذكر المؤلف في المقدّمة: أنه ألّف هذا الكتاب الموسوعي، ولم نعثر عليه في قوائم المخطوطات، وأشار اليه في الإتقان: ١/ ٢٨١، ٣/ ٣٦٩.

والذي نراه في سبب عدم افتتاح العنكبوت والروم بالكتاب أو وصفه، والله أعلم: أنه لمّا تكرّر الحديث عن الكتاب عقب الحروف المقطّعة، وأنه من عند الله، وهدىً للمتقين، وتنزيل من رب العالمين، كان لابد من ابتلاء المصدّقين به حتّى ينعزل المنافقون عن المؤمنين، ويظهر الصادق في إيمانه من الكاذب، وهذا بمثابة الاختبار العملي لاستجابة الناس لأمر الكتاب، ولا سيما وأن ثمّة حملة تشكيكٍ أثارها الكفّار ضد الايمان. ولذا قال تعالى في العنكبوت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ

نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت/ ١٠] الى أن قال جلّ وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت/ ١٢].

أمّا في الروم، فقد عقبت الحروف المقطّعة باختبار ودليل على صدق وعد الكتاب، الذي صدّق الكتاب بالإخبار عن المستقبل، وما يجري فيه من وعد الروم بالنصر بعد الهزيمة. وهذا ابتلاء يميّز الله به المؤمنين من المنافقين عند هذا الوعد، وموقف الفريقين منه. ودليل على صدق الكتاب، وأنّه من الله سبحانه حينما تحقق النصر بالفعل.

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

أمّا سورة القلم، فكانت ثالثة السور نزولاً بمكّة، وكان الكفّار قد أرجفوا بأنّ الرسول (ص) مجنون، أو به مسّ من الجن، فاقتضى الأمر تسليته وتثبيت فؤاده، وقدّم هذه التسلية على الدفاع عن القرآن الذي جاءه عقب ذلك في الآيات ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم] الى: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم].

مكنونات سورة «الروم»(*)

١ ـ ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الآية ٣].

قال ابنُ عبّاس: في طَرَف الشام(١).

وقال مُجاهِد: في الجزيرة(٢)، وهي أقرب أرضِ الرُّوم إلى فارِس. أخرج ذلك ابنُ أبي حاتِم.

٢ ـ ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الآية ٤].

هي تِسْعٌ؛ فيما أخرجه ابنُ جَرير عن ابنِ مَسْعُود.

وسبع؛ فيما أخرجه التِّرمِذِيُّ من حديثِ نِيار الأَسْلمي(٣).

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) في (أذرعات)؛ كما في رواية عكرمة في «الطّبري» ٢١/١٣؛ وهي المسمّاة الآن (درعا) في جنوب سورية.

(٢) الجزيرة: منطقة في سورية تقع بين نهري دجلة والفرات.

(٣) التِّرمِذِي (٣١٩٢) في التفسير، وقال: هذا حديث صحيح، حسن غريب.

لغة التنزيل في سورة «الروم»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الآية ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ معروف من العِمارة. وقد استُعمِلَ الثلاثي. وأمّا في عربيّتنا المعاصرة فقد دأب المعربون على استعمال المضاعف «عمّر».

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الآية ٤٣].

أي: يتصدّعون، أي: يتفرّقون.

أقول: ودلالة التّصَدُّع في عصرنا اختصّت بالشيء يتكسّر، فتذهب منه أجزاء، وليس في دلالاته هذا الدليل الذي ورد في الآية.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾.

يقال: استعتبني فلان فأعتبته، أي: استرضاني فأرضيته، وذلك إذا كنت جانياً عليه، وحقيقة أعتبته: أزلت عتبه.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «الروم»(*)

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ أي: من بعدما غُلِبُوا. وقرأ بعضهم (غَلَبَتْ) و(سيُغْلَبُون) لأنهم كانوا حين جاء الإسلام غَلَبوا ثم غُلِبُوا حين كثر الإسلام.

وقال سبحانه: ﴿أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الآية ١٠] فـ «السُّوأى» مصدرٌ هٰهنا مثل «التَّقْوَى».

وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [الآية ٢٤] فلم يذكر فيها (أنْ) لأنّ هذا يدل على المعنى. قال الشاعر [مِن الطويل وهو الشاهد السابع بعد المئة]:

ألا أيُّهذا الزَّاجِرِي أحْضُرَ الوغى
وأن أشْهَدَ اللَّذّاتِ هَلْ أنْتَ مُخْلِدِي

أراد: أن أحْضُرَ الوَغَى.

وقال تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٣٠] بالنَّصب على الفعل، كأنّ السّياق «فَطَرَ الله تِلْكَ فِطْرَةً».

وقال سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ﴾ [الآية ٣١] على الحال لأنّه حينما قال ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾ [الآية ٣٠] قد أمره وأمر قومه، حتّى كأنّ السياق «فَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ مُنيبينَ».

وقال تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ﴾ [الآية ٣٤] فمعناه، والله أعلم، فعلوا ذلك ليَكْفُرُوا. وإنّما أقبل عليهم، فقال «تَمَتَّعُوا» ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣٤﴾ وقرأ بعضهم: (فَتَمَتَّعُوا فسوف يَعْلَمون)

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

كأنه «فَقَدْ تَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يعلَمُونَ».

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ فقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ هو الجواب لأنّ «إذا» معلّقة بالكلام الأوّل بمنزلة «الفاء».

وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ وردد ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ للتوكيد نحو ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر].

وقال تعالى: ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الآية ٤] بالرفع لأن «قَبْلُ» و«بَعْدُ» مضمومتان، مالم تضفهما لأنهما غير متمكّنتين، فاذا أضفتهما تمكّنتا.

لكل سؤال جواب في سورة «الروم»(*)

إن قيل: لِمَ ذكر الضمير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الآية ٢٧] والمراد به الإعادة لسبق قوله جلّ وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الآية ٢٧].

قلنا: معناه: ورجعه، أو ردّه أهون عليه، فأعاد الضمير على المعنى لا على اللفظ، كما في قوله تعالى ﴿لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الفرقان/ ٤٩] أي بلداً أو مكاناً.

فإن قيل: لِمَ أُخرت الصلة في قوله تعالى ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الآية ٢٧] وقدمت في قوله تعالى ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم/ ٩]؟

قلنا: لأن هناك قصد الاختصاص، وهو يحسّن الكلام، فكأنّ السّياق: ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ وإن كان مستصعباً عندكم؛ وأما هنا فلا معنى للاختصاص فجرى على أصله، والأمر مبني على ما يعقل الناس من أنّ الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغيّر المعنى.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الآية ٢٧] والأفعال كلها بالنسبة إلى قدرة الله تعالى في السهولة سواء، وإنما تتفاوت في السهولة والصعوبة بالنسبة إلى قدرتنا؟

قلنا: معناه «وهو هيّن عليه»، وقد جاء في كلام العرب أفعل بمعنى اسم الفاعل من غير تفضيل، ومنه قولهم في الأذان: الله أكبر، أي: الله كبير في قول بعضهم، وقال الفرزدق:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

إنَّ الذي سَمكَ السمَاءَ بَنَى لَنَا
بَيْتاً دعائمُهُ أعزُّ وأطْوَلُ

أي عزيزة طويلة، وقال معن بن أوس المزني:

لَعمْرُكَ ما أدرِي وإنّي لأوْجَلُ
عَلى أيّنا تَغْدُو المنِيّةُ أوّلُ

أي وإنّي لَوَجِلٌ. وقال آخر:

أصبحتُ أمْنَحُكَ الصُّدودَ وإنّني
قَسَماً إليكَ معَ الصُّدودِ لأمْيَلُ

أي لمائل، وقال آخر:

تَمنّى رجالٌ أنْ أموتَ وإنْ أمُتْ
فتلكَ سبيلٌ لستُ فيهاَ بأوْحَدِ

أي بواحد. الثاني: أنّ معناه، وهو أهون عليه في تقديركم وحكمكم، لأنّكم تزعمون وتعتقدون فيما بينكم أنّ الإعادة أهون من الابتداء، كيف يكون ذلك، والابتداء من ماء، والإعادة من تراب، وتركيب الصورة من التراب أهون عندكم؟ الثالث: أن الضمير في قوله تعالى ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الآية ٢٧] راجع إلى المخلوق لا إلى الله تعالى، معناه: أنه لا صعوبة على المخلوق فيه ولا إبطاء، لأنه يعاد دفعة واحدة، بقوله تعالى ﴿كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس] وفي الابتداء خَلْق نطفة ثم نَقْلٌ إلى مضغة ثمّ إلى عظام ثمّ إلى كُسْوَةِ اللحم. الرابع: أنّ الابتداء من قبيل التفضّل الذي لا مقتضى لوجوبه، والإعادة من قبيل الواجب لأنها لا بدّ منها لجزاء الأعمال، وجزاؤها واجب بحكم وعده سبحانه وتعالى.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ [الآية ٣٩] على اختلاف القراءتين بالمد والقصر؟

قلنا: قال الحسن رحمه الله: المراد به الربا المحرم. والخطاب لدافعي الرّبا، لا لآخذيه. معناه: وما أعطيتم أكَلَة الربا من زيادة لتربو وتزكو في أموالهم فلا تزكو عند الله ولا يبارك فيها، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة/٢٧٦] لا فرق بينهما. وقال ابن عباس رضي الله عنهما والجمهور: المراد به أن يهب الرجل غيره هبة أو يهدي إليه هديّة على قصد أن يعوّضه أكثر منها. وقالوا: وليس في ذلك أجر ولا وزر، وإنّما سماه لأنه مدفوع لاجتلاب الربا، وهو الزيادة، فكان سبباً لها، فسمّي باسمها؛ ومعنى قراءة المد ظاهر. وأما قراءة القصر فمعناها: وما جئتم: أي

وما فعلتم من إعطاء ربا كما تقول أتيت خطأً وأتيت صواباً: أي فعلت، وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾، أي ذوو الأضعاف من الحسنات، وهو التفات عن الخطاب إلى الغيبة.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [الآية ٤٩] بعد قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ [الآية ٤٩].

قلنا: فائدته التأكيد كما في قوله تعالى ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر]. وقيل الضمير لإرسال الرياح أو السحاب فلا تكرار.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الآية ٥٤] والضعف صفة الشيء الضعيف، فكيف يُخلق الإنسان من تلك الصفة، مع علمنا أنه خُلق من عين، وهو الماء أو التراب، لا من صفة.

قلنا: أُطلق المصدر وهو الضعف، وأريد به اسم الفاعل وهو الضعيف كقولهم: رجل عدل، أي: عادل ونحوه؛ فمعناه من ضعيف وهو النطفة. وقيل: معناه على ضعف، «فمن «بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء/٧٧] والمراد به ضعف جثّة الطفل في طفولته.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الآية ٥٦] وهم إنّما لبثوا في الأرض في قبورهم؟

قلنا: معناه لقد لبثتم في قبوركم على ما في علم كتاب الله، أو في خبر كتاب الله. وقيل معناه: في قضاء الله. وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله الذين عملوه وفهموه، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى هنا: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت] فجعلهم مرّة طالبي الإعتاب، ومرّة مطلوباً منهم الإعتاب؟

قلنا: معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ولا هم يقالون عثراتهم بالردّ إلى الدنيا، ومعنى قوله تعالى ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت] أي: وإن يستقيلوا فما هم من المقالين، هذا ملخّص الجواب وحاصله.

المعاني المجازية في سورة «الروم»[*]

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾[1].

هذه استعارة والمراد بقيام الساعة حضور وقتها والأَجَل المضروب لها. وعلى هذا قولهم: قد قامت السوق أي حَضَرَ وَقْتُها الذي يتحرّك فيه أصحابها ويستمرّ بيعها وشراؤها. وعلى هذا المعنى سُمّيت القيامة. وقد يجوز أيضاً أن تكون تسميتها بذلك لقيام الناس فيها على أقدامهم؛ قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين]: فأمّا قوله تعالى في هذه السورة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الآية ٢٥]، فمعناه أنها تتماسك بأمره في مناطاتها وتقف على مستقرّاتها، ومثل ذلك قول القائل: إنّما يقوم أمر فلان بكذا، يريد أنّه إنّما يتماسك به، وليس هناك في الحقيقة قيام يشار إليه. فأمّا قوله تعالى في هذه السورة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الآية ٣٠]، فالمراد به اتّبع طرائق الدين قاصداً إلى سمْته غير منحرف عنه إلى غيره، ومنه قول العرب: قد استقام المَنْسِمُ إذا سارت الإبل في طريق واضح لا جوانح له ولا مَعادِلَ فيه؛ والمعنى قوّم وجهك على الدين اللاّحب[2] ومنهج الحق الواضح؛ وقوله تعالى في هذه الآية دليل على أنّ الدّين القيّم راجع في

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) من يَلِسَ: انكسر وحزن. قلّ خيره. تحيّر في أمره. يئس من رحمة الله.

(٢) من لَحَبَ، لَحَب الطريق: سلكه. أوضحه.

المعنى إلى ما ذكرناه، والمراد به أنه مستقيم بغير اعوجاج، ومنتصب بغير اضطراب، وقوله تعالى من بعد: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ قريب في المعنى ممّا تقدم، لأنّ المراد بذلك لا يخلو من أحد الأمرين: إمّا أن يكون أراد تعالى باقامة الصلاة القيام لأوقاتها، لأنّ القيام من أعظم أركان الصلاة؛ وإمّا أن يكون أراد تأديتها على واجبها وإخلاصها من كلّ ما يعود بفسادها، وذلك كقولهم: أقام فلان قناة الدّين أي أظهر أمره، ووالى نصره، ورمى الأعداء عنه، وَوَقَم[٣] الأضداد دونه، وجميع هذه الألفاظ المذكورة نظائر، وهي بأجمعها استعارات لا حقائق، وإنّما أوردناها في نسق واحد، لاتّفاق ورودها في سورة واحدة.

٢ ـ قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الآية ٣٢].

وهذه استعارة، لأن الدّين على الحقيقة لا يتأتّى فيه التفريق؛ وإنّما المراد، والله أعلم، أنّهم لمّا افترقوا في دينهم بمذاهب مختلفة وطرائق متباينة، كانوا كأنّهم قد فرّقوه فِرَقاً، وجعلوه شيعاً، فَحَسُن وصفهم بذلك.

٣ ـ قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وهذه استعارة. والمراد بالسلطان هٰهنا البرهان على أحد التأويلين؛ وهو الحقّ الذي يتسلّط به الانسان على مُخالفه، ويظهر على مُنازعه، وإنّما وصفه سبحانه بالكلام، لظهور حجّته وقوّة دعوته، فكأنه ناطق ومدافع مناضل.

٤ ـ قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٣٩].

وهذه استعارة؛ والمراد بالرّبا ههنا، المال الذي يعطيه الانسان غيره ليعطيه أكثر منه على الوجه المنهي عنه. وأصل الرّبْو الزيادة والكثرة، وإنّما سمّي المال المعطى الذي يلتمسون به الزيادة رِباً، لأنه جعل غرضه لطلب الزيادة، ووصلته إليها علّة لها، فَحَسُنَ تسميته بذلك، للسبب الذي ذكرناه، ومعنى قوله تعالى: ﴿لِّيَرْبُوَا فِىٓ أَمْوَٰلِ

(٣) من وقم، أوقم الرجل: قهره. وردّه عن حاجته أقبح الردّ.

﴿ٱلنَّاسِ﴾ أي ليزيد في أموال الناس، وليس قوله سبحانه هٰهنا بمعنى ليكون مدداً لأموال الناس فتزيد به. وإنّما المعنى يزيد هو بدخوله في أموال الناس؛ ودخوله فيها، هو أنّ صاحبه يعطيه الناس ليأخذ منهم أكثر منه؛ فإذا ما كره وأراد التعويض عنه بالقدر الزائد عليه، كان كأنّه قد ربا أي كثر بحصوله في أموال الناس، لأنّ كثرته وإضعافه كان السبب فيهما، كونه في أموال الناس على الوجه الذي بيّناه، وهذا من غوامض المعاني. ومن الشواهد على بيان ربا، بمعنى الزيادة والكثرة في كلامهم قول يزيد بن مفرغ الحِمْيَري:

وكم عطايا له ليست مكدّرة

لا بل تفيض كفيض المسبل الرّابي

يريد البحر، فسمّاه رابياً، لكثرة مائه وارتفاع أمواجه.

٥ ـ قال سبحانه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وهذه استعارة. ومعنى يَمْهَدون هٰهنا، أي يوطّئون لجنوبهم، ويمكّنون لأقدامهم عند مصارع الموت ومواقف البعث. وذلك كناية عن تقديم العمل الصالح والمتجر الرابح، تشبيهاً بمن وطّأ لمضجعه بالفُرُش الوثيرة والنمارق[٤] الكثيرة.

٦ ـ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الآية ٤٦].

وهذه استعارة. والمراد بها ما جرت به العادة من هبوب الرياح أمام الغيوث، وأنّ ذلك يقوم مقام النطق البشّار، والوعد بالأمطار المتوقعة بين يدي الرحمة. والرحمة في كثير من الآيات كناية عن الغيث، وعلى ذلك قوله تعالى في هذه السورة ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٥٠] أي الى ما كان يعقب الغيوث، من منابت الأعشاب واكتساء القيعان.

٧ ـ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الآية ٤٨].

وهذه استعارة. والمراد بإثارتها السحاب أنها تَلْفِقُ قِطَعَه، وتُوصِلُ مُنْقَطَعَه، وتستخرجه من غيوبه، وتظهره بعد غيوضه؛ تشبيهاً بالقانص أي ينهضه من مجاثمه، ويبرزه عن مكانه، لتراه عينه فيتأتّى لقنصه، ويتمكّن من فُرَصِه.

(٤) من النُمْرُق: الوسادة الصغيرة يُتكأ عليها.

سورة لُقمَان

٣١

أهداف سورة «لقمان»(*)

سورة لقمان سورة مكّيّة وعدد آياتها ٣٤ آية. نزلت بعد سورة الصّافات، وسورة لقمان من أواخر ما نزل في مكة. فقد نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة. وقد سُمّيت بسورة لقمان لورود قصة لقمان فيها، الذي كان من الحكماء الأقدمين، ولم يرد اسم حكيم غيره في القرآن.

وسورة لقمان رحلة بعيدة الآماد والآفاق، تطوف بالقلب في جولات متعدّدة، لتأكيد قضيّة العقيدة وترسيخها في النفوس، وهي القضيّة التي تعالجها السور المكّيّة بأساليب شتّى، ومن زوايا متنوّعة، تتناول القلب البشريّ من جميع أقطاره، وتلمس جوانبه بشتّى المؤثّرات التي تخاطب الفطرة وتوقظها.

هذه القضيّة الواحدة، قضية العقيدة، تتلخّص هنا في توحيد الخالق وعبادته وحده، وشكر آلائه، وفي اليقين بالآخرة، وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل، وفي اتّباع ما أنزل الله والتخلّي عمّا عداه من مألوفات ومعتقدات.

والسورة تتولّى عرض هذه القضيّة ثلاث مرّات في ثلاث جولات، تطوف كل منها بالقلب البشري فتعرض عليه دعوة الهدى من جانب الوحي ومن جانب الحكمة؛ ومن جانب الكون الكبير سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره وأجوائه وبحاره، وأمواجه

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

وأمطاره، ونباته وأشجاره؛ وأخيراً من جانب القدرة الإلهية المحيطة بكل شيء، صاحبة الملك في الأولى والآخرة.

فقرات السورة

يمكن أن نقسم سورة لقمان إلى ثلاث فقرات أو جولات:

الجولة الاولى:

تبدأ الجولة بعد افتتاح السورة بالأحرف المقطّعة، فتقرّر أنّ هذه السورة من جنس تلك الأحرف، هي آيات الكتاب الحكيم، وهي هُدًى ورحمة للمحسنين. وهؤلاء المحسنون هم:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴿٤﴾﴾.

فتقرر قضيّة اليقين بالآخرة، وقضيّة العبادة لله، ومعها مؤثر نفسيّ ملحوظ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴿٥﴾﴾.

ومن ذا الذي لا يريد أن يكون من المفلحين؟.. وفي الجانب الآخر فريق من الناس يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم، ويتّخذ تلك الآيات هُزُواً. وهؤلاء يعاجلهم بمؤثر نفسيّ مخيف مناسب لاستهزائهم بآيات الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴿٦﴾﴾.

ثمّ يمضي السّياق في وصف حركات هذا الفريق:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الآية ٧].

ومع الوصف مؤثّر نفسي منفّر من هذا الفريق:

﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ﴾ [الآية ٧].

ومؤثّر آخر يخيفه مع التهكّم الواضح في التعبير:

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴿٧﴾﴾.

والبشارة هنا فيها من التهكّم الملحوظ... ثمّ يعود السّياق إلى المؤمنين يفصّل شيئاً من فلاحهم الذي أجمله في أوّل السورة، ويبيّن جزاءهم الحسن في الآخرة. ثمّ يعرض صفحة الكون الكبير مجالاً للبرهان القاطع الذي يطالع الفطرة من كل جانب، ويخاطبها بكل لسان، ويواجهها بالحقّ الهائل الذي يمرّ عليه الناس غافلين... وأمام هذه الأدلّة الكونيّة

التي تهزّ الحسّ وتنبّه الشعور، وتأخذ بتلابيب القلوب الشاردة التي تجعل لله شركاء، وهي ترى خلقه العظيم:

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

وتمتد هذه الفقرة من أوّل السورة إلى الآية ١١.

الجولة الثانية:

تبدأ الجولة الثانية من خلال نفوس آدميّة، وتتناول القضيّة ذاتها بأسلوب جديد ومؤثرات جديدة: إنّها نصيحة من رجل حكيم يعظ ابنه، فيقدّم له خلاصة تجاربه وحكمته، فيأمره بالتوحيد وينهاه عن الشرك، ويحثّه على برّ الوالدين وطاعتهما فيما يأمران به، إلاّ إذا أمرا بالشّرك ونحوه، وينبّه لقمان ولده إلى إحاطة علم الله بكل شيء، إحاطة يرتعش لها الوجدان البشري.

ثُمّ يتابع لقمان وصيّته لابنه فيأمره أن يقوم بتكاليف العقيدة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يصبر ويحتمل فإنّ الصبر من أمّهات الفضائل.

ويحث لقمان ولده على مكارم الأخلاق، وآداب النفس والسلوك فينهاه عن الكِبْرِ والبَطَرِ، ويأمره أن يعتدل في مشيته وأن يغضّ من صوته، وأن يلزم الرفق والهدوء والاعتدال.

وقد استغرقت هذه الجولة الآيات ١٢ ـ ١٩.

الجولة الثالثة:

تستغرق الجولة الثالثة بقية السورة من الآية ٢٠ إلى الآية ٣٤، بعرض أدلة التوحيد في خلق السماء والأرض، وفي تسخير الكون، وإسباغ النِعَم الظاهرة والباطنة. وفي ظل النّعَم الظاهرة والادلّة الملموسة يبدو الجدل في الله مستنكَراً للفطرة تَمُجُّهُ القلوب المستقيمة.

ثمّ يتابع السّياق استنكار موقف الكفر والجمود، وتقليد الآباء دونما تبصّر ورويّة، ومن ثَمّ يعرض قضيّة الجزاء في الآخرة مرتبطة بقضيّة الكفر والإيمان.

ثُمّ يقف الكافرون وجْهاً لوجه أمام منطق الفطرة، وهي تواجه هذا الكون فلا تملك إلاّ الاعتراف بالخالق الواحد الكبير. وتعرض الآيات مشهداً كونياً

يهزّ القلب البشري، مشهد اللّيل وهو يطول فيدخل في جسم النّهار ويمتدّ، والنّهار وهو يطول فيدخل في جسم اللّيل ويمتدّ، ومشهد الشّمس والقمر مُسَخَّرَيْن في فلكيهما يجريان في حدود مرسومة إلى وقت لا يعلمه إلاّ خالقهما. ويتّخذ من هذا المشهد الكونيّ دليله إلى الفطرة على القضية المعهودة، وهي قضيّة التّوحيد.

ثُمّ يلمس القلوب بمؤثّر آخر من نعمة الله على الناس، في صورة الفُلْكِ التي تجري في البحر، ثُمّ يوقفهم أمام منطق الفطرة حينما تواجه هول البحر مجرّدة من غرور القدرة والعلم، الذي يبعدها عن بارئها، ويتّخذ من هذا المنطق دليلاً على قضيّة التوحيد.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾.

وبمناسبة موج البحر وهوله، يذكّرهم بالهول الأكبر، وهو يقرّر قضيّة الآخرة، الهول الذي يفرّ فيه الوالد من ولده، والولد من والده:

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الآية ٣٣]. وتختم السورة بآيةٍ تقرّ القضايا التي عالجتها في إيقاع قويّ عميق مرهوب، فتذكّر أن الله جلّ جلاله، استأثر بخَمْسٍ لا يعلمهنّ سواه:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾.

هذه الجولات الثلاث بأساليبها ومؤثّراتها ودلائلها وآياتها نموذج من أسلوب القرآن الكريم في معالجة القلوب، هذا الأسلوب المختار من خالق هذه القلوب، العليم بمداخليها، الخبير بما يصلح لها، وما تصلح به من الأساليب.

ترابط الآيات في سورة «لقمان»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة لقمان بعد سورة الصافّات، وهي من السور التي نزلت في مكّة بعد الإسراء، فيكون نزول سورة لقمان بعد الإسراء وقبيل الهجرة.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم لورود قصّة لقمان فيها، وكان من الحكماء الأقدمين؛ ولم يرد اسم حكيم غيره في القرآن الكريم، وتبلغ آياتها أربعاً وثلاثين آية .

الغرض منه وترتيبها

الغرض من هذه السورة بيان الموافقة بين ما جاء به القرآن من الحكمة المُنْزلة، وما جاء به لقمان الحكيم من الحكمة المأثورة عنه، إذ كان يدعو فيها كما يدعو القرآن إلى الإيمان بالله وحده، ويأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن الفواحش، وقد جاء هذا الغرض في هذه السّورة على ثلاثة أقسام: أوّلها في التنوية بحكمة القرآن، وثانيها في بيان شيء من حكمة لقمان، وثالثها في دعوة المشركين إلى الإيمان بما اتّفقت عليه الحكمة المنزلة والحكمة المأثورة عن الحكماء.

والمقصود من هذا تسلية النبي (ص) ببيان فضل ما أُنزل إليه من هذه النّاحية، ليعلم أنّ قومه لا يخالفون ما جاء به هو وغيره من الأنبياء فقط، بل يخالفون ما جاء به لقمان وغيره من

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز - المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

الحكماء أيضاً، فيهون عليه أمر كفرهم، ولا يحزن لعنادهم وتعنّتهم، وهذا هو وجه المناسبة بين هذه السورة وسورة الروم.

التنويه بحكمة القرآن
الآيات [١ ـ ١١]

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ فذكر أنّ القرآن يشتمل على آيات حكيمة يُقصد منها الهداية والرّحمة، وأنه قد أصلح بذلك مَنْ حَسُنَت طباعهم وأفعالهم ممّن يقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة ويؤمنون بالآخرة، ولم ينكر فضله في ذلك إلاّ مَنْ قَبُح طبعه فآثر الاشتغال بلهوِ الحديث على الاشتغال بحكمته، ثمّ أوعده على ذلك بما أوعده به من العذاب، ووعد من آمن به بنعيم الجنّات، وذكر أن وعده حقّ لا يتخلّف لأنه عزيز حكيم، يعذّب من يُعرِض عن حكمته ويثيب من يقبل عليها بكامل قدرته، ثم بيّن عزّته وقدرته بخلقه السماوات بغير عَمَدٍ مُشاهَدَةٍ، إلى أن قال: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾.

بيان حكمة لقمان
الآيات [١٢ ـ ١٩]

ثمّ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝١٢﴾. فذكر أنّه آتى لقمان الحكمة، وأنه كان يدعو فيها إلى ما يدعو إليه القرآن من الإيمان بالله، وطاعة الوالدين في ما يأمران به، إلاّ إذا أمرا بالشّرك ونحوه، إلى غير هذا ممّا جاء في وصاياه لابنه، وقد ختمها بقوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝١٩﴾.

الدعوة إلى ما اتفقت عليه الحكمتان
الآيات [٢٠ ـ ٣٤]

ثمّ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ٢٠]، فدعاهم إلى ما اتّفقت عليه الحكمتان من الإيمان به. وعاب عليهم أن يجادلوا فيه بغير علم ولا هُدًى ولا كتاب منير. والعلم إشارة إلى الحكمة المأثورة؛ والكتاب إشارة إلى الحكمة

المنزّلة؛ وإنما هو تقليد لآبائهم من غير اعتماد على دليل.

ثمّ نهى النبي (ص) أن يحزن لهذا الكفر الصادر عن عناد وجهل، وأخبره بأنه سيرجعهم إليه بعد أن يمتّعهم قليلاً، ثم يَضطرُّهم إلى عذاب غليظ، ثمّ أثبت له عنادهم وجهلهم في كفرهم بأنه إنْ سألهم مَنْ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ فإنهم يعترفون بأن الذي خلقهما هو الله، ولكنّهم جُهَلاء معاندون فلا يحملهم ذلك على الإقلاع عن شِرْكهم؛ ثم ذكر أنّ له سبحانه ما في السماوات والأرض فلا يقتصر أمره على خَلْقِهما، وأنّ ملكه لا يقتصر على ذلك وحده لتناهيه، بل إن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٢٧]، أي عجائبه، وما خلقنا وبعثنا إلاّ كخلق نفس واحدة وبعثها، فالقليل والكثير سواء في قدرته. ثمّ ذكر من عجائب قدرته وعلمه أنّه يولج النّهار في اللّيل، وأنّه سخّر الشمس والقمر كلّ يجري إلى أجل مُسَمًّى، وأنّه سخّر الفُلْك تجرى في البحر بنعمته ليريَهم ما في البحر من عجائبه وأهواله، فإذا غَشِيَهُم موجه كالظلّ دَعَوُا الله ليخلّصهم منه، فاذا نجّاهم إلى البرّ رجعوا الى ما كانوا عليه من كفر، فمنهم من يقتصد فيه بتأثير ما شاهده، ومنهم من يجحد ما شاهده من العجائب لمبالغةٍ في الكفر.

ثمّ ختم السورة بأمرهم بتقواه كما جاءت به الحكمة المنزلة والحكمة المأثورة، وبأن يخشوا يوم الآخرة الذي لا ينفع الإنسان فيه إلاّ عمله، وأخبرهم بأنّ وعده حق، فلا يغرّنّهم بالله الغَرور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «لقمان»(*)

أقول: ظهر لي، من اتصالها بما قبلها مع المؤاخاة في الافتتاح بـ ﴿الٓمٓ﴾، أن قوله تعالى هنا: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ متعلّق بقوله في آخِر سورة الروم:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم/ ٥٦].

فهذا عين إيقانهم بالآخرة، وهم المحسنون الموقنون بما ذكر.

وأيضاً ففي كلتا السورتين جملة من الأديان وبدء الخلق(١).

وذكر في الروم: ﴿فِى رَوْضَةٍ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(١) ذكرت جملة الأديان في سورة الروم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الروم] وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الروم/ ٣٢] وبدء الخلق في قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم/ ٢٠] وما بعدها.

وذكرت جملة الأديان في سورة لقمان في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الآية ٦] وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠﴾ وما بعدها. وبدء الخلق في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الآية ١٠]. وقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الآية ٢٨].

يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ وقد فسّر بالسّماع[٢] وفي لقمان: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الآية ٦]. وقد فسّر بالغناء، وآلات الملاهي[٣].

(٢) هو قول يحيى بن أبي كثير. أنظر (تفسير ابن كثير ٦/ ٣١٣).

(٣) هو قول ابن مسعود سمعه منه أبو الصهباء البكري (تفسير الطبري ٢١/ ٣٩). وهو قول ابن عبّاس، وجابر، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومكحول، والحسن. وانظر صحيح التِّرْمِذِي: ٤/ ٥٠٢، ٥٠٣ بتحفة الأحوذي.

مكنونات سورة «لقمان»(*)

١ - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الآية ٦].

قال ابنُ عبّاس: نزل في النَّضرِ بن الحارث(١). أخرجه جويبر(٢).

٢ - ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ [الآية ١٠].

قال ابنُ عبّاس هي الجبال الشّامخات، من أوْتادِ الأرض. وهي سَبْعَةَ عشَرَ جَبَلاً، منها: قاف، وأبو قبيس، والجُودي، ولبنان، وسينين، وثَبِير، وطور سيناء. أخرجه جويبر.

٣ - ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ [الآية ١٣].

اسم الابن: تاران(٣).

وقيل: أنعم.

وقيل: مشلم.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) كان النَّضرُ يخرج تاجراً إلى فارس، فيشتري أخبار الأعاجم فيرويها، ويحدّث فيها قريشاً، ويقول لهم: إن محمّداً يحدّثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدّثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن؛ فنزلت فيه. نقله الواحدي في «أسباب النزول»: ٢٥٩ عن مقاتل والكلبي.

(٢) جويبر هو ابن سعيد الأزدي، أبو القاسم البلخي، ضعّفه الكثير من المحدثين، وعدّه يحيى القطّان ممّن لا يُحمل عنهم الحديث، ويكتب التفاسير عنهم، وذكره السيوطي ممّن أسندوا التفسير إلى ابن عباس وهي غير مُرْضية ورواتها مجاهيل. انظر «تهذيب التهذيب» لابن حجر ٢/ ١٢٤ و«الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي ٢/ ١٨٨، و«الدر المنثور» ٥/ ١٥٩.

(٣) كذا في الأصول وفي «الإتقان» ٢/ ١٤٧: «اسمه باران بالموحّدة، وقيل واران».

لغة التنزيل في سورة «لقمان»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [الآية ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾ هو من باب جعل الوجه ذاته ونفسه سالماً لله أي: خالصاً له.

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

الخَتْر: أشدُّ الغدر.

أقول: ولا نعرف «الخَتْر» ولا «الخَتّار» في العربية المعاصرة. ومثل الختر «الخَتْل»، مع خصوصيّة معنوية في نوع الغدر، وكذلك الخَتّال. وهاتان الكلمتان باللام من الكلم المعروف في عصرنا.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «لقمان»(*)

قال تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ لأن قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ معرفة، فهذا خبر المعرفة.

وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [الآية ١٢] وهي «بأنِ اشْكُرِ الله».

وقال تعالى: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ [الآية ١٦] أي: «إنْ تَكُنْ خَطِيئةٌ مِثْقالَ حَبَّةٍ»؛ ورفع بعضهم فجعلها «كانَ» الذي لا يحتاج الى خبر كأنه «بلغ مثقال حَبَّةٍ».

وقال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ [الآية ٢١] هنا ألف استفهام أُدخلت على واو العطف.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾ [الآية ٢٧] رُفِعَ على الابتداء ونُصِبَ على القطع. ورفع لفظ الأقلام على خبر «أنَّ».

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [الآية ٣٤] وقد تقول: «أيُّ امْرَأةٍ جاءَتْكَ» و «أيَّةُ امْرَأةٍ جاءَتْكَ».

وقال تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [الآية ١٤] أي في انقضاء عامين ولم يذكر الانقضاء كما قال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف/ ٨٢] يعني أهْلَ القرية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [الآية ١٦] يقول «إنْ تَكُن المَعْصيةُ مثقالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ».

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

لكل سؤال جواب في سورة «لقمان»(*)

إن قيل: كيف يحلّ الغناء بعد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الآية ٦]، وقد قال الواحدي في تفسير وسيطه: أكثر المفسّرين على أن المراد بلهو الحديث الغناء. وروى هو أيضاً عن النبي (ص) أنّه قال: «والذي نفسي بيده مارَفَع رجل قط عقيرته يتغنّى إلاّ ارتدّ فيه شيطانان يضربان بأرجلهما على ظهره وصدره حتى يسكت». وقال سعيد بن جبير ومجاهد وابن مسعود رضي الله عنهم: لهو الحديث هو والله الغناء واشتراء المغنّي والمغنّية بالمال. وروى أيضاً حديثاً آخر مُسْنَداً، عن النبي (ص) أنّه قال في هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ اللعب والباطل كثير النفقة سمْح فيه، لا تطيب نفسه بدرهم يتصدّق به. وروى أيضاً حديثاً آخر مسنداً عن النبي (ص) أنه قال: «من ملأ سمعه من غناء، لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيّين يوم القيامة. قيل: وما الروحانيّون؟ قال قرّاء أهل الجنة». قال أهل المعاني: ويَدْخُلُ في هذا كلّ من اختار اللهو واللعب والمزامير والمعازف وآثرَها على القرآن، وإن كان اللفظ ورد بالاشتراء، لأنّ هذا اللفظ يذكر في الاستبدال والاختيار كثيراً. وقال قتادة رحمه الله: حَسْبُ المرء من الضّلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق. هذا كله نَقَلَهُ الواحدي رحِمَه الله، وكان من كبار السلف في العلم

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

والعمل. وقال غيره: قال ابن عبّاس وابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة: المراد بلهو الحديث الغناء. وعن الحسن رحمه الله تعالى أنّه كلّ ما ألهى عن الله تعالى. وفي معنى يشتري قولان: أحدهما أنّه الشراء بالمال والثاني أنّه الاختيار كما مرّ. وقيل الغناء مَنفَدة للمال، مَفسَدة للقلب، مَسخَطة للربّ.

قلنا: جوابه أنّهم يؤوّلون هذه الآية ونظائرها، وهذه الأحاديث ونظائرها فَيَصْرِفُونَها عن ظاهرها متابعة للهوى وميلاً إلى الشهوات؛ ولو نظروا بعقولهم في ما ينشأ عن جمعيّات السّماع في زماننا هذا من المفاسد، لعلموا حرمته بلا خلاف بين المسلمين، فإنّ شروط إباحة السّماع عند مَنْ أَباحَهُ لا تجتمع في زماننا هذا، على ما هو مسطور في كتب المشايخ وأرباب الطريق، ولو اشتغلنا بتفصيل مفاسده وعدد شروطه عند من أباحه لخرجنا عن مقصود كتابنا هذا.

فإن قيل: لِمَ وقع قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [الآية ١٤]، في أثناء وصيّة لقمان لابنه، وما الجامع بينهما؟

قلنا: هي جملة وقعت معترضة على سبيل الاستطراد، تأكيداً لما في وصيّة لقمان من النهي عن الشرك.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [الآية ١٤]، لِمَ اعتُرِضَ بين الوصيّة ومفعولها؟

قلنا: لَمّا وصى سبحانه بالوالدين ذكر ما تكابده الأم خاصة، وتعانيه من المشاق والمتاعب تخصيصاً لها بتأكيد الوصيّة، وتذكير تعظيم حقّها بإفرادها بالذكر؛ ومن هنا قال رسول الله (ص) لمن قال له: مَنْ أَبَرُّ؟ قال أُمّك ثم أُمّك ثم أُمّك، ثم قال بعد ذلك: ثمّ أباك.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [الآية ١٩] فجمع الأصوات، وأفرد صوت الحمير.

قلنا: ليس المراد ذكر صوت كلّ واحد من آحاد هذا الجنس حتّى يجمع، وإنّما المراد أنّ كلّ جنس من الحيوان الناطق وغيره له صوت، وأنكر الأصوات من هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب إفراده لئلا يظن أن الاجتماع شرط في ذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ [الآية ٢٧] يطابقه وما في الأبحر من ماء مداد، فَلِمَ عدل عنه إلى قوله: سبحانه ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [الآية ٢٧]؟

قلنا: استغنى عن ذكر المداد بقوله تعالى ﴿يَمُدُّهُ﴾ والفعل مأخوذ من مد الدواة وأمدها. أي: زادها مِداداً. فجعل البحر المحيط بمنزلة الدواة، والأبحر السبعة مملوءة مداداً تصبّ فيه أبداً صبّاً لا ينقطع، فصار نظير ماذكرتم، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ [الكهف/ ١٠٩].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ ولم يقل «من شجر»؟

قلنا: لأن السّياق اقتضى تفصيل الشجر وتقصّيها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر شجرة واحدة إلاّ وقد بُرِيَتْ أقلاماً.

فإن قيل: الكلمات جمع قلة والمقصود التفخيم والتعظيم، فكان جمع الكثرة وهو الكلم أشد مناسبة؟

قلنا: جمع القلّة هنا أبلغ فيما ذكرتم من المقصود. لأن جمع القلّة إذا لم يفنَ بتلك الأقلام وذلك المداد، فكيف يَفْنى جمع الكثرة.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [الآية ٣٤]. لِمَ أضاف سبحانه العلم إلى نفسه في الأمور الثلاثة من الخمسة المغيّبات، ونفى العلم عن العباد في الأمرين الآخرين، مع أن الأمور الخمسة سواء في اختصاص الله تعالى بعلمها وانتفاء علم العباد بها؟

قلنا: إنما خَصَّ الأمور الثلاثة الأُوَل بالإضافة إليه تعظيماً لها وتفخيماً لأنّها أجلّ وأعظم؛ وإنّما خَصَّ الأمرين الآخرين بِنَفْيِ علمهما عن العباد، لأنّهما من صفاتهم وأحوالهم، فإذا انتفى عنهم علمهما كان انتفاء علم ما عداهما من الأمور الخمسة أَوْلى.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [الآية ٣٤] ولم يقل بأي وقت تموت، وكلاهما غير معلوم، بل نفي العلم بالزمان أَوْلى، لأنّ من الناس من يدّعي علمه وهم المنجّمون، بخلاف المكان فإن أَحَداً لا يدّعي علمه؟

قلنا: إنما خُصَّ المكان بنفي علمه لوجهين: أحدهما أن الكون في مكان

دون مكان في وسع الإنسان واختياره، فيكون اعتقاده علم مكان الموت أقرب بخلاف الزمان. الثاني: أنّ للمكان تأثيراً في جنب الصحة والسقم بخلاف الزمان، أو تأثير المكان في ذلك أكثر.

المعاني المجازية في سورة «لقمان»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الآية ٦].

وهذه استعارة، والمراد بالاشتراء هٰهنا استبدال الشيء من غيره، وكذلك البيع للشيء يكون بمعنى استبدال غيره منه. فكأنّ المذموم بهذا الكلام استبدال لهو الحديث من سماع القرآن، والتأدب بآدابه والاعتلاق بأسبابه. ويدخل تحت لهو الحديث، سماع الغناء والحداء والإفاضة في الهزل والفحشاء، وما يجري هذا المجرى. ويُروى عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال: هو شراء القَيْنات، وقيل إنّ ذلك نزل في النَّضْر بن الحارث بن كلدة بن عبد الدار بن قُصَيّ. وكان يبتاع الكتب، وفيها أحاديث الأكاسرة وأنباء الأمم الخالية، ويقرأها على قريش إلهاءً لهم عن سماع القرآن وتدبّره، بزعمه وحيداً لهم عن تأمّل قوارعه وزواجره.

٢ ـ قال سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الآية ٧].

وهذه استعارة، لأن البشارة في العرف إنما تكون بالخير والسعادة والمسرّة لا بالشرّ والمضرّة. لكنّ إبلاغهم الوعيد بالعقاب، لمّا كان كإبلاغهم الوعد بالثواب في تقدم الخبر به، جاز أن يُسَمّى لهذه العلّة باسمه.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

وكان أبو العبّاس المبرّد يذهب بذلك مذهباً حَسَناً، فيقول: إنّ لفظ البشارة مأخوذ من البَشَرَةِ فكأنَّ المخبر لغيره بخبر النفع والخير، أو خبر الشرّ والضُرّ يلقي في قلبه مِنْ كِلا الأمرين ما يظهر تأثيره في بَشَرَة وجهه: فإن كانَ خَيْراً ظهرت تباشير المسرّة، وإن كان شرّاً ظهرت فيه علامات المساءة، فَحَسُن على هذا المعنى، أن تستعمل البشارة في الشرّ والضُرّ، كما تستعمل في النفع والخَيْر.

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [الآية ١٨].

وقرئ «ولا تصاعر» وهذه استعارة. وأصل الصَّعَر داء يأخذ الإبل في رؤوسها حتّى تقلب أعناقها. فكأنّه أمره أن لا يشمخ بأنفه ويعرض بوجهه من الكِبْرِ، تشبيهاً بالبعير إذا أصابه ذلك الداء، ومن صفات الكِبْرِ رَفْعُ الطرف حتّى كأنه معقود بالسماء، وعلى ذلك قول كثيّر في صفة قوم بالكبر:

تراهم إذا ما جئتهم فكأنّما
يَشِيمُونَ أعلى عارِضٍ مُتراكبِ

أي يرفعون رؤوسهم كبراً، ويطمحون بأبصارهم عجباً؛ وقال شيخنا أبو الفتح عثمان بن جنّي: أنشدنا أبو علي الفارسي هذا البيت، وقال يصلح أن يجعل في مقابلة قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى/٤٥] لأنّ البيت في صفة المتكبّرين بالغَيْرة، والآية في صفة الخاشعين بالذُلّة، وهما في طرفين وسبيلين مختلفين. والبيت المتقدم ذكره أنشدنا إياه أبو الفتح عن أبي علي، على ما ذكرته، وهو قوله:

يشيمون أعلى عارض متراكب

والصحيح «أعلى عارض متنصّب» لأن هذه القصيدة مدح بها كثيّر عبد الملك بن مروان، وتالي البيت المذكور قوله:

يردون(١) شزراً والعيونُ طوامِحٌ
بأبصارهم آفاقَ شرقٍ ومَغْرِبِ

وأنشده منشد عمر بن عبد العزيز فقال هجانا ورب الكعبة، يريد أنّه وصفهم بالكبر المفرط والطّماح المشرف(٢).

(١) نرجح أن يكون الفعل يرودون.

(٢) نظن أن الأصل المسرف.

٤ ـ قال سبحانه: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [الآية ١٩].

وهذه استعارة، لأن أصل «الغض» الحطُّ من منزلة عليّة إلى منزلة دنيّة. يقال غضّ فلان من فلان إذا فعل به ذلك قولاً وفعلاً، وغضّ طرفه إذا كسره وضعّفه، أي فكأنّه قال: «وحطّ صوتك من حال الارتفاع إلى حال الانخفاض، إخباتاً لله وتَطامُناً لأولياء الله».

سورة السَّجْدَة

٣٢

أهداف سورة «السجدة»(*)

سورة السجدة مكّية، وآياتها ٣٠، نزلت بعد سورة غافر، وقد نزلت سورة السجدة في المرحلة الأخيرة من حياة المسلمين بمكّة، إذ كان نزولها بعد الإسراء وقبيل الهجرة.

أسماء السورة

لسورة السجدة ثلاثة أسماء، الاسم الأول سورة السجدة، لاشتمالها على سجدة التلاوة في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

الاسم الثاني: «سجدة لقمان»، للتمييز عن حم السجدة، وهي سورة «فصّلت».

الاسم الثالث: «المضاجع» لقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [الآية ١٦].

مخاطبة القلوب

سورة السجدة نموذج متميّز، من نماذج الخطاب القرآني للقلب البشري، بالعقيدة الصحيحة التي جاء القرآن ليوقظها في الفطرة، ويركزها في القلوب عقيدة الدينونة لله الأحد، الفرد الصمد، خالق الكون والناس ومدبّر السمٰوات والأرض وما بينهما، وما فيهما من خلائق لا يعلمها إلاّ الله، والتصديق برسالة محمد (ص)، الموحى إليه بهذا القرآن، لهداية البشر إلى الله، والاعتقاد بالبعث والقيامة،

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

والحساب والجزاء. هذه هي القضية التي تعالجها السورة، وهي القضية التي تعالجها سائر السور المكيّة، كلّ منها تعالجها بأسلوب خاص، ومؤثرات خاصّة، تلتقي كلّها في أنها تخاطب القلب البشري، خطاب العليم الخبير، المطّلع على أسرار هذه القلوب وخفاياها، العارف بطبيعتها وتكوينها، وما يستكنّ فيها من مشاعر، وما يعتريها من تأثرات واستجابات. في جميع الأحوال والظروف.

وسورة السجدة تعالج تلك القضية بأسلوب، وبطريقة مغايرين لأسلوب سورة لقمان السابقة وطريقته. فهي تعرضها في آياتها الأولى، ثم تمضي بقيّتها، تقدّم مؤثرات موقظة للقلب، منيرة للروح، مثيرة للتأمّل والتدبّر، كما تقدّم أدلّة وبراهين على تلك القضيّة، معروضة في صفحة الكون ومشاهده، وفي نشأة الإنسان وأطواره، وفي مشهد من مشاهد اليوم الآخِر حافل بالحياة والحركة، وفي مصارع الغابرين، وآثارهم القاطعة الناطقة بالعبرة، لمن يسمع لها ويتدبّر منطقها.

«كذلك ترسم السورة صوراً للنفوس المؤمنة، في خشوعها وتطلّعها إلى ربّها، وللنفوس الجاحدة في عنادها ولَجاجها، وتعرض صوراً للجزاء الذي يتلقاه هؤلاء وهؤلاء؛ وكأنّها واقع مشهود حاضر للعيان، يشهده كلّ قارئ لهذا القرآن.

وفي كلّ هذه المعارض والمشاهد، تواجه القلب البشريّ، ممّا يوقظه ويحرّكه ويقوده إلى التأمّل والتدبّر مرّة، وإلى الخوف والخشية مرّة، وإلى التطلّع والرّجاء مرّة، وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد، وتارة بالأطماع وتارة بالاقناع... ثمّ تدعه في النّهاية تحت هذه المؤثرات، وأمام تلك البراهين، تدعه لنفسه يختار طريقه، وينتظر مصيره على علم وعلى هدًى وعلى نور»[1].

أفكار السورة ونظامها

تبدأ سورة السجدة بالحديث عن القرآن الكريم، وتبيّن أنّه حقّ من عند الله، وتبيّن قدرة الله وعظمته، فهو خالق السموات والأرض، وهو

(١) في ظلال القرآن، بقلم سيد قطب ٢١/٩٢.

المهيمن على الكون، وهو المدبّر للأمر كلّه، وهو الخالق للإنسان، وهبه السمع والبصر والإدراك؛ والنّاس بعد ذلك قليلاً ما يشكرون. وبذلك عالجت قضية الألوهيّة وصفتها: صفة الخلق، وصفة التدبير مذكورة في سياق آيات الخلق والتكوين، وتستغرق هذه المجموعة، بما فيها صفة الإحسان، وصفة الإنعام، وصفة العلم؛ وصفة الرحمة، تستغرق من أوّل السورة إلى الآية ٩.

ثمّ تتحدّث الآيات عن إنكار الكافرين للبعث والحساب، وتجيبهم بأن البعث حقّ، وتعرض مشهداً من مشاهد القيامة، يقف فيه المجرمون أذلاًء يعلنون يقينهم بالآخرة، ويقينهم بالحقّ الذي جاءتهم به الدعوة المحمّدية.

وإلى جوار هذا المشهد البائس المكروب تعرض السورة مشهد المؤمنين في الدنيا وهم يعبدون الله، ويسجدون لعظمته، ويقومون الليل بالصلاة والعبادة، ثمّ تبشّرهم بحسن الجزاء:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم تشير الآيات، إلى أن منطق العدالة يأبى أن يستوي المؤمن والفاسق، فقد اختلفوا في العمل في الدنيا، فيجب أن يختلف الجزاء في الآخرة، فللمؤمنين جنّات المأوى، وللفاسقين «عذابُ» جهنم؛ وتستغرق هذه المجموعة الآيات [١٠ ـ ١٢].

وفي الآيات الأخيرة من السورة، ترد إشارة إلى موسى (ع)، ووحدة رسالته ورسالة محمد (ص) والمهتدين من قومه.

وتعقب هذه الإشارة، جولة في مصارع الغابرين من القرون، وهم يمشون في مساكنهم غافلين، ثم جولة في الأرض الميتة، ينزل عليها الماء بالحياة والنماء.

ترابط الآيات في سورة «السجدة»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة السجدة بعد سورة غافر، وقد نزلت سورة غافر بعد الإسراء قبيل الهجرة، فيكون نزول سورة السجدة في ذلك التاريخ أيضاً.

وسُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في الآية ١٥ منها: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾﴾.

وهي من الآيات التي تَحْسُنُ السجدة عند قراءتها، وتبلغ آياتها ثلاثين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة إثبات تنزيل القرآن، وهو قريب من الغرض الذي يقصد من السورة السابقة، ولهذا ذكرت هذه السورة بعدها؛ وهذا، إلى أنها تشبهها في ما جاء فيها، من حث المؤمنين على الصبر على أذى المشركين، ومن وعدهم بأن يجازوا على صبرهم كما جوزي الصابرون من بني إسرائيل قبلهم، وقد جاء ذلك الغرض فيها على قسمين: أولهما في إثبات تنزيل القرآن، وبيان عاقبة من آمن به، ومن كذّب به في الآخرة والدنيا؛ وثانيهما في تأييد ذلك، بما لا يمكن إنكاره من فطرة العقل، وبما حصل لمن آمن بالتوراة من بني إسرائيل من رفعة شأنهم، وجعلهم أئمة في الدنيا، يهدون بأمر الله تعالى.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

إثبات تنزيل القرآن
الآيات [١ ـ ٧]

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فذكر سبحانه، أنه لا ريب في تنزيل الكتاب من عنده، وأنّهم يزعمون أنّ النبي (ص) افتراه؛ وردّ ذلك بأنه جاء بالحقّ لينذر به قومه الذين لم يأتهم نذير قبله، ويَهْدِيَهم إلى الإيمان بالله بعد أن ضلّوا عنه؛ وهو الذي خلق السماوات والأرض، وما بينهما في ستّة أيام، إلى غير هذا ممّا ذكره سبحانه في الهداية إلى الإيمان به.

ثمّ ذكر لهم شبهة أخرى، وهي إنكارهم ما أتى به، من بَعْثِهم بعد أن يصيروا تراباً، ويضلّوا في الأرض، ومن لقاء ربهم ليعاقبهم على كُفرهم؛ وردّ عليهم بأنّه لا بدّ من الموت، ومن لقاء جزائهم بالبعث بعده، فإذا حاسبهم سبحانه على كفرهم، نكسوا رؤوسهم، ودعوه أن يُرْجِعَهم إلى الدنيا ليؤمنوا فيها به، فيجيبهم تعالى بأنّه لو شاء لهداهم في الدنيا، ولكنه لم يشأ ذلك، فلا سبيل إلى تغييره برجوعهم إليها، ولا بدّ لهم من دخول جَهَنَّم، ولا بدّ لهم أن يذوقوا عذابها بما نسوا لقاء يومهم هذا؛ ثمّ ذكر جلّ وعلا أنّ الإيمان لا يكون من قوم متكبّرين مثلهم، وإنّما يكون من قوم إذا ذكّروا بآيات ربهم خرّوا سجداً، وتواضعوا لمن يذكّرهم، إلى غير هذا من صفاتهم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾.

أخذهم بالترغيب والترهيب إلى الايمان به
الآيات [١٨ ـ ٣٠]

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾ فذكر سبحانه أنه لا يمكن أن يكون جزاء من يُصَدِّقُ به كجزاء من يُكَذِّب به، لدليلين: أوّلهما: أنه لا يمكن في العقل أن يستوي المؤمن والفاسق في الجزاء، فالمؤمنون لهم جنّات المأوى جزاء لهم، والفاسقون مأواهم النار في الآخرة، ولهم في الدنيا عذاب أدنى من ذلك، بتسليط المؤمنين عليهم؛ وثانيهما، أنّه أتى موسى الكتاب فأظفر من آمن به على من كذّب به، فلا يصحّ للنبي (ص) أن يشكّ في أنّه سيلقى من ذلك، مثل مالقي موسى (ع)؛ ثمّ ذكر

تعالى أنه جعل كتاب موسى (ع) هُدًى لبني إسرائيل، وأنّه سبحانه، هداهم به وجعل منهم أئمّة يهدون بأمره، وأنه كافأهم بذلك، لِصَبرهم على أذى أعدائهم.

ثمّ ذكَرَ لأولئك المشركين، أنّ الأمر في هذا، لا يقتصر على موسى وقومه، بل هناك قُرونٌ كثيرة أهلكهم الله جلّ جلاله، على تكذيبهم رُسُلَهم، وأنّهم يمشون في مساكنهم فيشاهدون ما حصل لهم بأعينهم؛ ثمّ ذكر تعالى لهم، أنّ تلك النِّقَم آية لهم على قدرته، لو تأمّلوا فيها بعقولهم؛ وحثَّهُمْ على التأمّل في نِعَمه (سبحانه) عليهم، بسوق الماء إلى الأرض الجُرُزِ[1]، لِيُخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم؛ فجمع بهذا بين ترهيبهم وترغيبهم.

ثمّ ختمت السورة بذكر سؤال المشركين، على سبيل الاستهزاء: متى هذا الفتح الذي يكون للمؤمنين؟ وأجابهم جلّ شأنه، بأنّه إذا أتى يؤمنون بصدقه فلا ينفعهم إيمانهم، ولا يُمْهَلُون ليستدركوا ما فاتهم؛ ثمّ أمر النبي(ص) أن يُعرِض عن استهزائهم، وينتظر وعده بهلاكهم، فقال تعالى ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

---

(١) أي الأرض الجدبة.

أسرار ترتيب سورة «السجدة»(*)

أقول: وجه اتّصالها بما قبلها: أنها شرحت مفاتح الغيب الخمسة التي ذكرت في خاتمة لقمان.

فقوله تعالى، هنا: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

شرح لقوله سبحانه هناك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان/ ٣٤]. ولذلك عقّب تعالى هنا بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الآية ٦].

وقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ [الآية ٢٧] شرح لقوله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان/ ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [الآية ٧] شرح لقوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان/ ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ٥]؛ وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [الآية ١٣] شرح لقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان/ ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ١٠] إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ شرح لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان/ ٣٤]. فللّه الحمد على ما ألهم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

مكنونات سورة «السجدة»(*)

١ ـ ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الآية ١١].

أخرجَ أبو الشيخ عن وَهب: أنَّ اسمه عزرائيل (ع).

٢ ـ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ [الآية ١٨].

أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن أبي ليلى والسُّدّيّ: أنها نزلت في عليّ (ع)، والوليد بنِ عقبة. وأخرجه الوَاحدي[1] عن ابن عبّاس.

٣ - ﴿ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ [الآية ٢٧].

قال ابنُ عَبّاس: أرضٌ باليمن. وقال مُجاهِد: هي أبين[2].

وقال الحسن: هي فيما بين[3] اليَمَنِ والشّام. أخرجها ابنُ أبي حاتم.

وقال قَوْمٌ: هي مِصْر.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) في «أسباب النزول»: ٢٦٣، و (المؤمن) هو علي. و (الفاسق) هو الوليد بن عقبة.

(٢) نصُّ رواية مجاهد، كما في «الدر المنثور» ٥/ ١٧٩: «هي التي لا تنبت، هي أَبْيَن ونحوها من الأرض». وانظر نحوها في «تفسير الطّبري» ٢١/ ٧٢.

(٣) في «الدر المنثور» ٥/ ١٧٩: و «هي قرى».

لغة التنزيل في سورة «السجدة»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ [الآية ٢٧].

«الجُرُز»: الأرض التي جُرِزَ نباتُها، أي قُطِع، إمّا لعدم الماء، وإمّا لأنّه رُعِيَ وأزيل، ولا يقال للّتي لا تنبت كالسّباخ: جُرُز.

أقول: وقد جاء «الجُرُز» وصفاً للصّعيد في قوله تعالى:

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ⑧﴾ [الكهف].

أقول: وإذا كان الجُرز هذه صفته، «فالصعيد الجُرزُ» هو «الصعيد» الموصوف بـ «الطيّب» في قوله تعالى.

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء/٤٣].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «السجدة»(*)

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [الآية ٢٦] بالياء يعني «ألم يُبَيِّن» وقرأ بعضهم (أوَ لَمْ نَهْدِ)[1] أي: أوَ لَمْ نُبَيِّنْ لَهُم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) القراءة بالياء في الطّبري ٢١/ ١١٤، نسبت الى ابن عبّاس، وقتادة، وقرّاء الأمصار؛ والقراءة بالنون نسبت في الشواذ ١١٨، إلى الإمام عليّ بن أبي طالب (ع)، وابن عبّاس (رض)، والسّلمي؛ وفي الجامع ١٤/ ١١٠ الى قتادة، والسّلمي، وأبي زيد، عن يعقوب.

لكل سؤال جواب في سورة «السجدة»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى هنا: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾؛ وقال تعالى، في سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج]؟

قلنا: المراد بالأول، مسافة عروج الملائكة من الأرض إلى السطح الأعلى من سماء الدنيا؛ وذلك ألف سنة، خمسمائة سنة مسافة ما بين السماء والأرض، وخمسمائة سنة مسافة سمك سماء الدنيا؛ والمراد بالثاني مسافة عروج الملائكة من الأرض إلى العرش. الثاني: أنّ المراد به في الآيتين يوم القيامة، ومقداره ألف سنة من حساب أهل الدنيا، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج/٤٧] ومعنى قوله تعالى: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي: لو تولّى فيه حساب الخلق غير الله تعالى. الثالث: أنه كألف سنة في حقّ عوام المؤمنين، والخمسين ألف سنة في حقّ الكافرين، لشدّة مايكابدون فيه من الأهوال والمحن؛ وكساعة من أيّام الدنيا في حقّ خواصّ المؤمنين. ويؤيّده ما رُوِيَ أنّه قيل «يارسول الله يوم مقداره خمسون ألف سنة ما أطوله، فقال: والذي نفسي بيده؛ ليُخَفَّفُ على المؤمن، حتى يكون عليه

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ

أخفّ من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا». ورُوي أن ابن عبّاس رَضِيَ الله عنهما سئل عن هاتين الآيتين؟ فقال: يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه؛ وإنّي أكره أن أقول في كتاب الله، بما لا أعلم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ [الآية ٧] على اختلاف القراءتين[1] ومقتضى القراءتين، أن لا يكون في مخلوقات الله تعالى شيء قبيح، والواقع خلافه؛ ولو لم يكن إلاّ الشّرور والمعاصي فإنها مخلوقة لله تعالى عند أهل السنة والجماعة، مع أنها قبيحة؟

قلنا:

كلمة «أحْسَنَ» بمعنى: أحْكَمَ وأتقنَ، وهذا الجواب يعمّ القراءتين. الثاني: أنّ فيه إضماراً تقديره: أحسن إلى كل شيء خلقه. الثالث: أنّ «أحْسَنَ» بمعنى «عَلِمَ»، كما يقال فلان لا يُحْسِنُ شيئاً. أي: لا يعلم شيئاً. وقال عليٌّ كَرَّم الله وجهه: قيمة كلّ امرئ ما يحسنه: أي ما يعلمه؛ فمعناه أنه عَلِمَ خَلْقَ كل شيء، أو علم كلّ شيء خَلْقَه، ولم يتعلّمه من أحد، وهذان الجوابان يُخَصّان بقراءة فتح اللام.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى هنا: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾ وقال في موضع آخر ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢﴾ [المؤمنون]؟

قلنا: المذكور هنا صفة ذرّيّة آدم (ع)، والمذكور هناك صفة آدم (ع)؛ يُعْلَم ذلك من أوّل الآيتين فلا تنافِ.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ [الآية ٩] والله تعالى منزّه عن الرّوح؟

قلنا: معناه: نفخ فيه من روح مضافة إلى الله تعالى، بالخلق والإيجاد، لا بوجه آخر. فإن قيل: لِمَ قال تعالى هنا ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [الآية ١١] وقال تعالى، في موضع آخر: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام/ ٦١]، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر/ ٤٢]؟

قلنا: الله تعالى هو المتوفّي بخَلْق الموت وأمر الوسائط بنزع الروح، والملائكة المُتَوَفُّون أعوانُ مَلَكِ

(١) أي بتحريك اللام أو تسكينها في قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ﴾.

الـمـوت، وهـم يـجـذبـون الـروح مـن الأظفار إلى الحلقوم؛ وملَكُ الموت يتناول الروح من الحلقوم، فصحّت الإضافات كلها.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ [الآية ١٥] الآية، وليس المؤمنون منحصرين فيمن هو موصوف بهذه الصفة، وليست هذه الصفة شرطاً في تحقّق الإيمان؟

قلنا: المراد بقوله تعالى: ﴿ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ أي وعظوا، والمراد بالسجود الخشوع والخضوع والتواضع، في قبول الموعظة بآيات الله تعالى، وهذه الصفة شرط في تحقق الإيمان. ونظيره قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ١٠٧﴾ [الإسراء]. الثاني: أنّ معناه إنّما يؤمن بآياتنا إيماناً كاملاً، من اتّصف بهذه الصفة، وقيل المراد بالآيات فرائض الصلوات الخمس، والمراد التذكير بها بالأذان والإقامة.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ١٨﴾ يدل على أنّ الفاسق لا يكون مؤمناً؟

قلنا: الفاسق هنا بمعنى الكافر، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾، والتقسيم يقتضي كون الفاسق المذكور هنا كافراً، لا كون كل فاسق كافراً؛ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ٣٥﴾ [القلم] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية/ ٢١] ولم يلزم من ذلك، أنّ كلّ مجرم كافر، ولا أنّ كلّ مسيء كافر.

فإن قيل: ما الحكمة في العدول عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ [الآية ٢٢]؟

قلنا: لمّا جعله أظلم الظّلَمَةِ، ثم توعد كلّ المجرمين بالانتقام منه، دلّ على أن الأظلمَ يصيبه النصيب الأوفر من الانتقام، ولو قاله بالضمير، لم يفد هذه الفائدة.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ [الآية ٢٨] سؤال عن وقت الفتح، وهو يوم القضاء بين المؤمنين والكافرين، يعني يوم القيامة، فكيف طابقه ما بعده جواباً؟

قلنا: لمّا كان سؤالهم سؤال تكذيب

واستهزاء بيوم القيامة، لا سؤال استفهام، أجيبوا بالتهديد المطابق للتكذيب والاستهزاء، لا ببيان حقيقة الوقت.

فإن قيل: على قول من فسّر الفتح، بفتح مكّة أو بفتح يوم بدر، كيف وجّه الجواب عن قوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [الآية ٢٩]، وقد نفع بعض الكفار إيمانهم في ذينك اليومين، وهم الطلقاء الذين آمنوا؟

قلنا: المراد أنّ المقتولين منهم، لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق.

المعاني المجازية في سورة «السجدة»(*)

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾.

وهذه استعارة، لأن المَهينَ لا يكون بحقيقته إلاّ الانسان، قال الله تعالى حكاية على لسان فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [القلم]؛ ومَهين فَعيل من المَهْنَة، وهي الخدمة، يقال مَهَنَ القومَ يَمْهَنُهُمْ مَهْنَةً إذا خَدَمَهُمْ؛ والمِهْنَةُ بكسر الميم خطأ، فيكون معنى من ماء مهين، على ما قدّمناه، أي من ماءٍ مُسْتَذَل، لأنّ ماهن القوم إذا خدمهم يكون ذليلاً لهم، ومبتذلاً بينهم.

ـ وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الآية ١٠].

وهذه استعارة، لأنها عبارة عن حال الموت؛ والميت لا يوصف بالضلال، الذي هو المتاه والضياع، فكأن المعن: إذا دُفِنّا في الأرض، فكنّا كالشيء الضالّ، الضائع، لِتفرُّق أوصالنا، وتَمَزُّق أعضائنا، تستأنف بعد هذه الحال، إعادتنا، وتستجدُّ حياتُنا؛ كأنهم قالوا على سبيل الاستبعاد، وأخرجوه مخرج الاستطراف، والاستغراب؛ فأعلمهم الله سبحانه، أنّهم لا يضلّون عن علمه، ولا يلطفون عن جمعه، وإن صاروا رميماً وتراباً، وفِرَقاً وأوزاعاً؛ وفي عرف كلام العرب أنّ كل شيء غلب عليه شيء حتّى يغيّبه باشتماله عليه، فقد ضلّ فيه؛ ويسمّون

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

الدافنين للأموات مصلّين، لأنهم يغيّبونهم في الأرض؛ قال النابغة الذبياني في ذلك:

فآب مُضِلُّوهُ بِعَينٍ جَلِيَّةٍ
وغُودِرَ بالجولانِ حزمٌ ونائِلُ

يريد دافنيه، وحكى الأصمعي أنه رواه مصلّوه بالصاد، وفتحها، والمصلّي الوارد بعد السابق، قال فكأنّ المعنى أنّ ناعيه الأوّل جاء بنعيه، فشكّ في قوله، ثمّ جاء الثاني بجملة الخبر، فوقع العلم وارتفع الشكّ، والعين الجليّة، الواضح الذي يتجلّى بعد خفائه، أو يجلو الشك بعد التباسه؛ وأنشد للمخبّل السعدي يمدح قيس بن عاصم المنقّري:

أضَلَّتْ بنو قيس بن سعدٍ عَميدَها
وفارسَها في الدَّهرِ قيسَ بن عاصِمِ

أي دفنته في التراب وغيبته في الأرض.

ـ وقوله سبحانه: ﴿فَلَهُمْ جَنَّتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقد تقدّم مثل هذه اللفظة، في بعض السور المتقدّمة ولم نشر إليه إذ كان في الأشهر بيْن التأويل، خارجاً عن الاستعارة، لأنه عند عامّة المفسّرين، بمعنى المنزل والنزول، فكأنّه تعالى قال كانت لهم جنان الفردوس منزلاً ينزلونه، وقراراً يستوطنونه، فلمّا بلغنا الى هذا الموضع من هذه السورة، نظرنا فإذا لهذه اللفظة مجاز آخر يدخلها في حيّز الاستعارة، فذكرناها لهذه العلّة، وهو أنّ لفظ النُّزُل عند بعضهم قد عبّر به عمّا يُقْرى به الضيف عند طروقه، ويُعَدُّ له قبل نزوله، فيجوز أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ جَنَّتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي أعِدّ لهم في جنّات الله ما يُعَدُّ للضيوف لأنهم ضِيفانُ الله تعالى في جنّاته، وجيرانه في داره؛ ليس أنّ هناك قرباً بمسافة، ولا وصفاً في أداء إقامة، وإنما أوجب هذا الاختصاص، في قولنا: ضِيفان الله، وجيران الله، لأنهم نزول في الدار، التي لا يملك الحكم فيها غيره، ولا يتسلّط عليها إلاّ سلطانه، كما قيل إنّ قريشاً كانوا يسمّون قَطِينُ الله، إذ كانوا جيران بيته الذي اختصّه، وفرض على الناس حجّه، ومن الشاهد قول عبد الله بن قيس الرقيّات:

أتانا رسولٌ من رقَيَّةَ ناصِحٌ
بأنّ قَطِينَ اللهِ بَعْدَكَ سُيِّرا

يريد أهلَ مكّة، وحكى ابن الزبير قال، سمعت حسّانَ بنَ ثابت ينشد هذا البيت، في جملة قصيدته الميميّة، على قوله:

لنا حاضرٌ فَخْمٌ وبادٍ كأنّهُ
قطينُ إلٰهٍ عِزّةً وتكرُّمَا

قال فغيّره الرواةُ فيما بعد، حسداً لقريش، فقالوا:

شماريخُ رَضْوَى عِزّةً وتكرُّما

وأيّ تكرُّم للجبال؟!

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ﴾ [الآية ٢٧].

وقد أشرنا إلى هذه اللفظة أنها مستعارة، وأطلعنا خبيّها، ونشرنا مطويّها في سورة الكهف، فلا حاجة إلى إعادة ذلك.

سورة الأحزَاب

٣٣

أهداف سورة «الأحزاب»(*)

سورة الأحزاب مدنيّة وآياتها ٧٣ آية نزلت بعد سورة آل عمران. وتقع أحداث السورة فيما بين السنة الثانية والخامسة من الهجرة. وهي فترة حرجة لم يكن عُودُ المسلمين قد اشتدّ فيها، إذْ كانوا يتعرَّضون لدسائس المنافقين واليهود.

وسمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لذكر غزوة الأحزاب فيها، في قوله تعالى:

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ [الآية ٢٠].

أحداث السّورة

تتناول سورة الأحزاب قطاعاً حقيقيّاً من حياة الجماعة المسلمة، في فترة تمتدّ من بعد غزوة بدر الكبرى، إلى ما قبل صلح الحُدَيْبِيَة، وتصوّر هذه الفترة من حياة المسلمين في المدينة، تصويراً واقعيّاً مباشراً. وهي مزدحمة بالأحداث التي تشير إليها في خلال هذه الفترة، والتنظيمات التي أنشأتها أو أقرّتها في المجتمع الإسلامي الناشئ.

ولهذه الفترة التي تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة. فهي الفترة التي بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة في حياة الجماعة وفي حياة الدولة. ولم يتمّ استقرارها بعد، ولا سيطرتها الكاملة، كالذي تمّ بعد فتح مكّة ودخول النّاس في دين الله أفواجاً، واستتباب الأمر للدولة الاسلامية.

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

والسُّورة تتولّى جانباً من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة، وإبراز تلك الملامح، وتثبيتها في حياة الأسرة والجماعة، وبيان أصولها من العقيدة والتشريع. كما تتولّى تعديل الأوضاع والتقاليد، أو إبطالها وإخضاعها في هذا كلّه للتصوّر الإسلامي الجديد. وفي ثنايا الحديث عن تلك الأوضاع والنظم، يرد الحديث عن غزوة الأحزاب وغزوة بني قُرَيْظَة، ومواقف الكفار والمنافقين واليهود فيهما، ودسائسهم في وسط الجماعة المسلمة، وما وقع من خلخلة وأذى بسبب هذه الدسائس وتلك المواقف؛ كما تعرض، بعدها، دسائسهم وكيدهم للمسلمين في أخلاقهم وبيوتهم ونسائهم.

ونقطة الاتصال في سياق السورة بين تلك الأوضاع والنظم وهاتين الغزوتين وماوقع فيهما من أحداث، هي علاقة هذه وتلك بموقف الكافرين والمنافقين واليهود، وسعي هذه الفئات لإيقاع الاضطراب في صفوف الجماعة المسلمة؛ سواء من طريق الهجوم الحربي، والإرجاف في الصفوف والدعوة إلى الهزيمة، أو من طريق خلخلة الأوضاع الاجتماعية والآداب الخُلُقيّة... ثم ما نشأ في أعقاب الغزوات والغنائم من آثار في حياة الجماعة المسلمة، تقتضي تعديل بعض الأوضاع الاجتماعية؛ ومن هذا الجانب وذاك تبدو وحدة السورة، وتماسك سياقها، وتناسق موضوعاتها المنوّعة؛ إلى جانب وحدة الزمن تربط بين الأحداث والتنظيمات التي تتناولها السورة.

فصول السورة

يمكن أن نقسم سورة الأحزاب إلى خمسة فصول، يبدأ الفصل الأول منها بتوجيه الرسول (ص) إلى تقوى الله، وعدم الطاعة للكافرين والمنافقين، واتّباع ما يوحي إليه ربّه، والتوكّل عليه وحده سبحانه.

وبعد ذلك يلقي بكلمة الحق والفصل في بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية؛ مبتدئاً ببيان أن الإنسان لا يملك إلاّ قلباً واحداً، ومن ثَمَّ يجب أن يتّجه إلى إلٰهٍ واحد، وأن يتّبع نهجاً واحداً. ولذلك يأخذ في إبطال عادة الظِّهار، وهو أن يحلف الرجل على

امرأته أنها عليه كظهر أمه، فتحرّم عليه حرمة أمه؛ ويقرّر أن هذا الكلام يقال بالأفواه، ولا ينشئ حقيقة وراءه، بل تظل الزوجة زوجة ولا تصير أمًّا بهذا الكلام. ثم من هذا إلى إبطال التبني:

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الآيـــة ٤].

والدعي هو المتبنَّى يدّعي الإنسان بنوّته، وهو لا يصير ابناً بمجرّد القول، ثمّ يأمرهم أن يَدّعوا المتبنَّى إلى أبيه، فإن ذلك أقسطُ وأعدلُ من دعوتهم لمن يتبنّونهم.

ثُمّ ينشئ الولاية العامّة للرسول (ص) على المؤمنين جميعاً، كما ينشئ صلة الأمومة الشعوريّة، بين أزواج النبي (ص) والمؤمنين؛ ويعقّب على هذا التنظيم الجديد، بالإشارة إلى أنّ ذلك مسطور في كتاب الله القديم، وإلى الميثاق المأخوذ على النبيّين وعلى أولي العزم منهم بصفة خاصة، على طريقة القرآن في التعقيب على النظم والتشريعات والمبادئ والتوجيهات، لتستقرّ في الضمائر والنفوس؛ ويستغرق هذا الفصل من أول السورة إلى الآية ٨.

غزوة الأحزاب وبني قُرَيْظَة

نجد الفصل الثاني من السورة ممتدّاً من الآية ٩ إلى الآية ٢٧، ويتناول هذا الفصل غزوة الأحزاب، ويصف مشاهدها وملابساتها، ويصوّر أحوال المسلمين فيها، وقد جاءتهم قريش من أسفل الوادي، وغَطَفان من أعلاه؛ وأُسقط في يد المسلمين: فالأحزاب أمام المدينة، ويهود بني قُرَيْظَة نقضوا عهودهم، وأظهروا الخيانة والغدر للمسلمين؛ وحفر المسلمون خندقاً لحماية المدينة، وكان المسلمون غاية في الإجهاد والعُسْرة المادية، واشتدت الفتن، وفي وسط هذه المحن بَشّرَ النبي (ص) المؤمنين بالنصر، ووعدهم كنوز كسرى وقيصر؛ وظهر النفاق من بعض المنافقين فقالوا: إنّ محمّداً يَعِدنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يستطيع الخروج إلى الخلاء وحده؛ وفي ذلك يقول القرآن:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

واستنجد النبي (ص) ربّه سبحانه، ورفع يديه إلى السماء، وقال: «اللّهم ربّ الأرباب ومسبّب الأسباب، اهزم

الأحزاب، اللّهم اهزمهم وانصرنا عليهم يا ربّ العالمين». فأرسل الله جلّ جلاله ريحاً عاتية، في ليلة شاتية مظلمة، خلعت خيام الكافرين، وكفأت قدورهم؛ وانسحبت قريش وأحزابها، في ظلام الليل يجرّون أذيال الخوف والانكسار؛ وسجّل الله عزّ وجل ذلك في القرآن الكريم، بقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

وتصف الآيات صدق بعض المؤمنين وبلاءهم الحسن، وإخلاصهم لله في الجهاد حتى رؤي بعض الشهداء، وفيه أكثر من سبعين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم؛ وفي مثل هؤلاء يقول عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

ثمّ تصف الآيات رحيل الكافرين بغيظهم لم ينالوا خيراً، وحماية الله للمسلمين في هذه الموقعة، وهو سبحانه القويّ العزيز. ولمّا رحلت الأحزاب عن المدينة، نزل جبريل من السماء وقال: «يا محمد إن الملائكة لم تضع السلاح بعد، اذهب إلى بني قُرَيْظَة فإنّ الله ناصرك عليهم، جزاء خيانتهم وغدرهم» فقال (ص): «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلينّ العصر إلاّ في بني قريظة». وهناك حاصر المسلمون بني قُرَيْظَة، ثم أجلوهم عن ديارهم، وغنم المسلمون أرضهم ودورهم وأموالهم وحصونهم المنيعة، بقدرة الله، وهو على كل شيء قدير. قال تعالى:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ

فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ .

زوجات الرسول (ص)

تتناول الآيات [٢٨ ـ ٣٦] حديثاً عن زوجات الرسول (ص)، وكانت الغنائم قد جاءت للمسلمين، وأقبل المال بعد غزوة بني قُرَيْظَة، فتطلّعت زوجات الرسول (ص) إلى المتعة والنفقة الواسعة، وقلن يا رسول الله نساء كسرى وقيصر بين الحلى والحلل، والإماء والخدم، ونساؤك على ما ترى من هذه الحال.

فنزلت الآيات تخيّرهن بين متاع الحياة الدنيا وزينتها، وبين الله ورسوله والدار الآخرة. وخيّر النبي نساءه، وبدأ بعائشة، فقال لها: «سأعرض عليك أمرين، أرجو ألاّ تقطعي في اختيار أحدهما، حتى تستشيري أبويك؛ وقرأ عليها الآيتين»:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ .

فقالت عائشة: «أفيك أشاور أبويّ يا رسول الله؟ أختار الله ورسوله»، وقالت نساؤه كلّهن مثل ذلك، فجعلهنّ الله أمّهات المؤمنين؛ وأشارت الآيات التالية إلى جزائهنّ المضاعف في الأجر إنِ اتّقين، وإلى العذاب المضاعف إنِ ارتكبن فاحشة مبيّنة، لأنهنّ في بيت النبوّة والقدوة والأسوة، فلهنّ ضعف الأجر إن أحسنّ، وضعف العقوبة إن أسأن؛ فزلّة العالم يقرع بها الطبل، وزلّة الجاهل يخفيها الجهل؛ ثمّ أمرت الآيات زوجات الرسول (ص) بخفض الصوت، وجعله مستقيما بدون تكسّر، حتى لا يطمع الشباب المنافق فيهنّ، وحثّهنّ على الاستقرار في البيت، وعدم التبرّج، وتلاوة القرآن والتفقّه في أحكامه. واستطردت الآيات في بيان جزاء المؤمنين كافّة والمؤمنات، وكان هذا هو الفصل الثالث في سورة الأحزاب.

قصة زينب بنت جحش

أرسل الله محمّداً (ص) للنّاس كافّة، فحرّر العبيد، وعلّم الناس المساواة، وكرّم إنسانية الإنسان، وبيّن أن النّاس

سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلاّ بالتقوى.

وخطب النبي (ص) زينب بنت جحش، لزيد بن حارثة رضي الله عنه، فاستنكفت وقالت: أنا خير منه حَسَباً، وكانت امرأة فيها حِدّة، فأنزل الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

فقالت زينب هل رضيته لي يا رسول الله زوجاً؟ قال رسول الله: نعم، قالت: إذن لا أَعْصي الرسول (ص) قد أنكحته نفسي.

وتمّ هذا الزواج، ولأمر أراده الله سبحانه لم يدم طويلاً، فقد كانت زينب تَفْخُرُ على زيد بن حارثة بأنّها حُرّة قُرَشيّة جميلة، وأنّه عبد لا يدانيها في نسبها وحسبها؛ فلمّا تكرّر ذلك منها عزم زيد على طلاقها، وذكر ذلك لرسول الله (ص)، فقال له النبي أمسك عليك زوجك واتّق الله، رغبة في إبقاء هذا الزواج؛ وكان النبي (ص) يعلم بوحي من السماء أنّ زينب ستطلّق، وأنّها ستكون زوجة للرسول، ليبطل بهذا الزواج آثار التبنّي بسابقة عمليّة يختار لها رسول الله (ص) بشخصه، لشدّة عمق هذه العادة في البيئة العربيّة، وصعوبة الخروج عليها. ولمّا طلّقت زينب من زيد خطبها النبي (ص) لنفسه، ونزل الوحي من السماء بذلك، حتّى كانت زينب تفخر على أزواج النبي، فتقول زوّجكن أهاليكن، وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سماوات.

ولم تمرّ المسألة سهلة، فقد فوجئ بها المجتمع الإسلاميّ كله، كما انطلقت ألسنة المنافقين تقول: «تزوّج حليلة ابنه».

وكانت المسألة مسألة تقرير مبدأ جديد، لأنّ العرف السائد كان يعدّ زينب مطلقة ابنٍ لمحمّد (ص) لا تَحِلُّ له، حتّى بعد إبطال عادة التبنّي في ذاتها، ولم يكن قد نزل بعد إحلال مطلّقات الأدعياء، إنّما كان حادث زواج النبي (ص) بزينب، هو الذي قرّر القاعدة عمليّاً، بعد ما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار.

وفي هذا ما يهدم كلّ الروايات، التي رويت عن هذا الحادث، والتي تشبّث

بها أعداء الإسلام قديماً وحديثاً، وصاغوا حولها الأساطير المفتريات. إنّما كان الأمر أمر الله سبحانه، تحمّله النبيّ (ص) وواجه به المجتمع الكاره لهذا الأمر كل الكراهية، حتّى لَيَتَرَدَّدُ النبي في تحمّله ومواجهة الناس به. قال تعالى:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

واستمرّت الآيات توضح أنه لاحرج على النبي (ص) فيما فرض الله له، فقد فرض له أن يتزوّج زينب، وأن يبطل عادة العرب في تحريم أزواج الأدعياء؛ وذكرت الآيات أنّ محمّداً لم يكن أبا أحدٍ من رجال العرب، حتى يحرم عليه الزواج من مطلّقته، وإنّما محمد رسول الله وخاتم النبيين، فهو يشرّع الشرائع الباقية، لتسير عليها البشريّة إلى يوم الدين؛ ثمّ حثّت الآيات على ذكر الله وطاعته...

وقد استغرق هذا الموضوع الرابع، [الآيات ٣٦ ـ ٤٤].

أدب بيت النبوة

يستغرق الموضوع الخامس الآيات الممتدّة من الآية ٤٥ إلى آخر السورة، ويبدأ ببيان حكم المطلّقات قبل الدخول، ثمّ يتناول تنظيم الحياة الزوجية للنبي (ص)، فيبيّن من يحلّ له من النساء المؤمنات ومن يحرّم عليه؛ ويستطرد السياق إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبي، وزوجاته في حياته وبعد وفاته، وتقرير احتجابهنّ إلاّ على آبائهنّ أو إخوانهنّ أو ابناء إخوانهنّ أ و نسائهنّ، أو ما ملكت أيمانهنّ، وإلى بيان جزاء الذين يؤذون رسول الله (ص) في أزواجه وبيوته وشعوره، وهدّدهم باللعن في الدنيا والآخرة، ممّا يَشِي بأن المنافقين وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئاً كثيراً.

ويعقّب السّياق على هذا بأمر أزواج النبي (ص) وبناته، ونساء المؤمنين كافة، أن يدنين عليهن من جلابيبهن:

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الآية ٥٩].

وبتهديد المنافقين والذين في قلوبهم مرض، والمُرْجِفِين في المدينة، بتسليط النبي (ص) عليهم، وإخراجهم من المدينة كما خرج بنو قَيْنُقاع من قَبْلُ، وبنو النَّضِير بعدهم، أو القضاء عليهم كما وقع لبني قُرَيْظَة؛ وكل هذا يشير إلى أنّ هذه المجموعة كانت تؤذي المجتمع الإسلامي، بوسائل شرّيرة، خبيثة.

ثم ذكر السّياق من شرور هؤلاء الناس، أنّهم كانوا يسألون النبيّ متى تكون الساعة على سبيل الاستهزاء والاستخفاف، وأجابهم بأنّ علم الساعة عند الله، ولوّح بأنّها قد تكون قريباً، وأتبع هذا بمشهد من مشاهد القيامة حيث يتقلّب المجرمون في جهنّم، ويتمرّغون في العذاب والندامة.

ثم تعقّب السورة بنهي المؤمنين عن إيذاء النبي (ص)، حتى لا يكونوا كالذين آذوا موسى (ع) بالطعن عليه، ثم برّأه الله وجعله نزيهاً وجيهاً.

تحمل الانسان للأمانة

في آخر السورة نجد آية شهيرة تكشف عن جسامة العبء الملقى على عاتق البشريّة، وعلى عاتق الجماعة الإسلاميّة بصفة خاصة، وهي التي تنهض وحدها بعبء الأمانة الكبرى، أمانة العقيدة والاستقامة عليها.

لقد عرض الله جلّ جلاله حَمْلَ الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فأَبَيْنَ حملها لخطر أمرها؛ وحملها الانسان الذي خلق مزوّداً بالإرادة والكسب والاختيار، والقدرة على الطاعة والمعصية.

فالسماء والأرض والجبال والبحار والكون كلّه يخضع لله خضوع القهر والغلبة، ولا يحتمّل التكاليف، ولا يستطيع أن يتحمّل الأمانة والتكاليف الشرعية، فيثاب على الطاعة ويعاقب على المعصية؛ إنّما الإنسان وحده الذي ميّزه الله بالعقل والإرادة، وكرّمه وفضّله بالكسب والاختيار، له قدرة على الطاعة وقدرة على الظلم والجهل، وقد استعمر الله الإنسان في الأرض واستخلفه فيها لعلمه، أنه وحده هو الذي يَصْلُحُ خليفة عنه، لِما ركز في غرائزه وطبائعه من حبّ التّنافس، والتّسابق في عمارة الأرض؛ فمن أطاع الله من طائفة الإنسان فله

الجنّة وله التّوبة عند الخطأ، ومن كفر ونافق فله العذاب والعقاب، قال تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «الأحزاب»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الأحزاب بعد سورة آل عمران، وكان نزولها بعد غزوة الأحزاب، فيكون نزولها في أواخر السنة الخامسة من الهجرة، وتكون من السور التي نزلت فيما بين غزوة بدر وصلح الحُدَيْبِيَة.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم لذكر غزوة الأحزاب فيها، وتبلغ آياتها ثلاثاً وسبعين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغَرَض من هذه السورة ذكر أحكام تتعلق بالنبي (ص)، ولهذا ابتدئت بندائه وأمره بالتقوى، ليكون هذا تمهيداً لما قصد تكليفه به؛ وقد شُرّعت الأحكام التي تضمّنتها هذه السورة في زمن غزوة الأحزاب، ولهذا جمع بينهما في هذه السورة ليسجّل فيها ما حصل في هذا الزمن من تشريع وغزو. وقد ابتدئت السورة السابقة بإثبات تنزيل القرآن، وجاءت هذه السورة بعدها مبتدئةً بالأمر باتّباعه وحده، والنهي عن خشية أحد في الأخذ بأحكامه، وهذا هو وجه المناسبة بينهما.

إبطال تبني زيد بن حارثة
الآيات [١ ـ ٢٧]

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾. فمهد بهذا، لأمره بإبطال تبنّيه لزيد بن حارثة، ليتّبعه المؤمنون في إبطال تبنّيهم؛ وكان التبنيّ عادة مستحكمة في العرب وفي سائر الشعوب، فلمّا أبطلها النبيّ (ص) شنّع عليه أعداؤه من الكافرين والمنافقين، فابتدأ هذه السورة بأمره بأن يتّقيه وحده ولا يطيع أعداءه، وبأن يتّبع ما يُوحي إليه ويتوكّل عليه؛ ثمّ أخبره بأنه لم يجعل لرجل قلبين في جوفه يجمع بهما بين خوفه وخوف غيره، وأنّه لم يجعل لرجل أمّين إذا قال لزوجته ـ أنت عليّ كظهر أمي ـ ليتخلّص بذلك إلى المقصود، وهو إبطال التبنّي؛ فكأنّه قال: كما لم أجعل لرجل قلبين ولا أمّين لم أجعل لابن أبوين، فلا يصح أن يكون أدعياؤهم أبناءهم بمجرّد قولهم ذلك بأفواههم؛ ثمّ أمرهم بأن يدعوهم لآبائهم لأنه أعدل عنده من دعوتهم لمن يتبنّونهم، فإن لم يعلموا آباءهم فهم إخوانهم في الدّين لا أبناؤهم؛ ولا جناح عليهم إن سبق لسانهم إلى ذلك من غير قصد؛ ثم ذكر أنّ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم، فكلّهم سواء في أبوّته وأمومتهنّ لهم، ولا يصح أن يختصّ بذلك أحد منهم، والأقرباء بعضهم أولى ببعض في الإرث، فلا يصح أن يدخل في إرثهم بالتبنّي أجنبيّ عنهم؛ ثم أكّد ذلك بتذكيره بأنّه أخذ منه ومن النبيّين قبله ميثاقهم أن يبلّغوا رسالتهم ولا يخشوا فيها أحداً، ليسأل الذين يصدقون في تبليغها عن صدقهم، ويعدّ لمن يكفر بهم عذاباً أليماً.

ثمّ استطرد السّياق من ذلك إلى تذكيرهم بما حصل لهم في غزوة الأحزاب، ليؤكّد به ما أمر من تقواه وحده فيما يأمر به، فأمرهم أن يذكُروا نعمته عليهم إذا اجتمعت عليهم جنود أعدائهم من الأحزاب، ونقضت بنو قُرَيْظَةَ عهدها معهم وانضمّت إلى أعدائهم، وظهرت خيانة المنافقين ومحاولتهم صرفهم عن القتال، فاشتدّ الأمر بهم وزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شديداً، ولكنّه سبحانه ثَبَّتَهُمْ فصبروا على قتالهم ولم يتأثروا بتثبيط المنافقين لهم، حتّى ردّ الأحزاب بغيظهم وكفاهم قتالهم، وأنزل بني قُرَيْظَة من حصونهم بعد أن حاصروهم فيها، فقتلوا منهم فريقاً وأسروا فريقاً: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ

وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

أمر النبي بتخيير نسائه
الآيات [٢٨ ـ ٣٦]

ثم قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾. وقد كان أزواج النبيّ (ص) سألنه من عَرَضِ الدنيا، وطلبن منه زيادة النفقة، وآذينه بغيرة بعضهن على بعض؛ فأمره سبحانه أن يخيّرهنّ بين الطلاق إذا أَبَيْنَ إلاّ ذلك، والبقاء في عصمته إذا أردن الله ورسوله والدّار والآخرة؛ ثمّ وعظهنّ بأنّ شأنهنّ ليس كشأن غيرهنّ، فمن تأتِ منهنّ بفاحشة ظاهرة يضاعَفْ لها العذاب ضعفين، ومن تُطِع الله ورسوله يُؤْتِها أجرَها مرّتين؛ ثمّ أمرهنّ أن يَقَرْنَ في بيوتِهنّ ويتركْنَ تَبَرُّجَ الجاهليّة الأولى، إلى غير هذا ممّا أمرهنّ به ونهاهنّ عنه؛ ثم عاد السّياق إلى تخييرهنّ، فذكر سبحانه أنه ليس لهنّ ولا لغيرهنّ خِيَرَةٌ مع ما اختاره من ذلك لهنّ؛ فقال جلّ وعلا ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

تزويج النبي مطلّقة زيد
الآيات [٣٧ ـ ٤٤]

ثمّ قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الآية ٣٧]، حكايةً عن قول النبي (ص) لزيد بن حارثة وكان يتبنّاه: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الآية ٣٧] وهي زينب بنت جحش، وكان يريد طلاقها لأنّها كانت تَفْخَرُ عليه بنسبها؛ ثمّ ذكر تعالى أنّ الرسول يُخفي في نفسه إرادة تزوّجها بعد طلاقها ليكون أقوى في إبطال تَبَنّيهِ زيداً، وأنّه يحمله على إخفاء ذلك خشية طعن الناس عليه بأنّه تزوّج امرأة مُتَبَنّاه، والله أحقّ منهم بأن يخشاه؛ فلمّا طلّقها زيد زَوّجها الله له لكيلا يكون على الناس حرج في أزواج من يتبنّونهم؛ ثم ذكر سبحانه أنه لا حرج عل الرسول (ص) في ذلك الزواج لأنه سنّة الله في الرسل قبله، وأنّه لم يكن أبا أحد منهم حتّى تحرّم عليه زوجه؛ ثم أمرهم جلّ شأنه أن

يذكروه ويسبحوه سبحانه بكرة وأصيلاً، لأنه يرحمهم بما يشرّع لهم من ذلك وغيره، ويخرجهم به من الظُلمات إلى النور، وهو رحيم بهم على الدوام ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

إرشاد النبي إلى آداب عامة
الآيات [٤٥ ـ ٤٩]

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ فذكر سبحانه أنه أرسله شاهداً على الناس ومبشّراً ونذيراً. فإذا كانوا مؤمنين، فعليه أن يبشّرهم بما لهم من الفضل عنده؛ وإذا كانوا كفّاراً أو منافقين فإنّه لا يصحّ أن يطيعهم أو يخشاهم في شيء، وعليه أن يدع أذاهم ويتوكّل عليه سبحانه وحده؛ ثم أمر المؤمنين إذا طلّقوا أزواجهم من قبل أن يمسّوهنّ أن يتركوا أذاهم، بمناسبة أمر النبي (ص) بترك أذى أعدائه، فقال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

خصائص النبي في أزواجه
الآيات [٥٠ ـ ٥٨]

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الآية ٥٠].

فذكر ما خصّه به من إحلال أزواجه له، وإن زاد عددهنّ على أربع. ومن عدم وجوب القَسْم عليه بينهنّ، لكي تقرّ أعينهن إذا سوّى بينهن من نفسه، ومن تحريم طلاقهنّ أو زواج غيرهنّ لِيَقْصُرَهنّ عليه ويَقْصُرَه عليهنّ؛ ثمّ ذكر ما يستتبعه ذلك التشريع من فرض الحجاب عليهنّ وتحريم نكاحهنّ بعده على غيره؛ واستثنى من فرض الحجاب عليهنّ آباءهنّ ونحوهم من محارمهنّ؛ ثمّ ذكر ما يوجب احترامه في ذلك من صلاة الله عليه وملائكته، فيجب على المؤمنين أن يذكروا حرمته في كلّ وقت بالصّلاة عليه؛ ثم هدّد من يؤذيه في ذلك باللّعن في الدّنيا والآخرة، وهدّد بمناسبة ذلك من يؤذي الناس عامةً، فقال جلّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

إرشاد النبي إلى ما يجب ستره من نسائه وغيرهن
الآيات [٥٩ ـ ٧٣]

ثمّ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الآية ٥٩].

فأمره سبحانه بأن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين بأن يُدنين عليهنّ من جلابيبهنّ، ليُعرفن بالعفّة فلا يطمع الفسّاق من المنافقين فيهنّ؛ ثمّ هدّد أولئك المنافقين إن لم ينتهوا عن تعرّضهم للنّساء في الطّرق وغير ذلك من شرورهم، بتسليط النبي (ص) عليهم، فلا يجاورونه في المدينة إلاّ قليلاً، ويحقّ عليهم التقتيل في كلّ مكان يصيرون إليه، كما فعل ذلك بالذين خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ؛ ثمّ ذكر من شرورهم أنهم يسألونه متى يكون ما يوعدون به على سبيل الاستهزاء، وأجابهم بأنه سيكون قريباً؛ وذكر ما يكون لهم من اللّعن والعذاب فيه.

ثمّ ختم السورة بنهي المؤمنين عامّة عن إيذاء النبيّ (ص) بمثل ما يؤذيه المنافقون به من الطّعن عليه، بنحو ما سبق فيها، حتّى لا يكونوا كالذين آذوا موسى (ع) بالطّعن عليه بما هو بريء منه؛ ثمّ أمرهم بالتقوى والقول السّديد بدل الطّعن والفحش؛ ونوّه بشأن الأمانة التي لا يراعيها أولئك الطاعنون بالزّور؛ فذكر سبحانه أنّه عرض حَمْلها على السماوات والأرض والجبال فأبَيْنَ ذلك لخطر أمرها، وأنّ الإنسان لم يشفق على نفسه من حملها لأنّه ظلومٌ جَهُولٌ فلا يبالي بالتّهاون في أمرها، ولأنّه يعاقب على تركها ويثاب على فعلها ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الأحزاب»(*)

أقول: وجه اتّصالها بما قبلها، أي بسورة السَّجدة: تَشابُه مطلع هذه، ومقطع تلك، فإنّ تلك خُتمت بأمر النبي (ص) بالإعراض عن الكافرين، وانتظار عذابهم[1]؛ ومطلع هذه الأمر بتقوى الله سبحانه، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، فصارت كالتّتمّة لما خُتمت به تلك، حتّى كأنّهما سورة واحدة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة].

مكنونات سورة «الأحزاب»(*)

١ ـ ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ [الآية ٩].

هُمُ الأَحْزَابُ: أبو سُفْيان، وأصْحَابُه، وقُرَيْظَة، وَعُيَيْنَة بنُ بدر، أخرجه ابنُ أبي حاتم عن مُجاهِد.

٢ ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ [الآية ٩].

هي الصَّبا[١]. أخرجه ابنُ أبي حاتم عن ابنِ عبّاس.

٣ ـ ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الآية ٩].

قال مُجاهِد: هي الملائكة. أخرجه ابنُ أبي حاتم[٢].

٤ ـ ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الآية ١٠].

قال مُجاهِد: عُيَيْنَة بن بدر، من نَجْد.

٥ ـ ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الآية ١٠].

أبو سُفْيانَ ومَنْ معه، وقُرَيْظَة. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

٦ ـ ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [الآية ١٢].

سَمّى السُّدِّيّ منهم: قُشير بن مُعَتِّب. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

وفي «تفسير جويبر» عن ابن عبّاس: هو مُعَتِّب بن قُشير الأنصاري.

٧ ـ ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ [الآية ١٣].

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) الصَّبا: الرّيح التي تهبّ من المشرق. وأخرج البخاري (١٠٣٥) في الاستسقاء عن ابن عبّاس عن النبيّ (ص) قال: «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور» والدَّبُور: عكس الصَّبا.

(٢) والطبري ٢١/ ٨١.

قال السُّدّيّ: هم عبدُ الله بن أُبيّ، وأصحابُهُ. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

٨ ـ ﴿وَيَسْتَـْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ [الآية ١٣].

قال السُّدّيّ: هما رَجُلانِ من بني حارثة: أبو عَرَابَةَ بنُ أوس، وأوس بن قيظيّ. أخرجه ابنُ أبي حاتم، أيضاً.

٩ ـ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ [الآية ٢٣].

نَزَلَتْ في أنس بنِ النَّضْر، وأصْحابِهِ. كما أخْرَجَه مُسْلِم وغيرُه، عن أنس بن مالك.

١٠ ـ ﴿مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الآية ٢٣].

أخرجَ التِّرْمِذِيّ، وغيرُه عن معاوية: أن النبي (ص) قال: «طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ».

١١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الآية ٢٦].

قال مُجاهِد: قُرَيْظَة. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[1].

١٢ ـ ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الآية ٢٧].

قال السُّدّيّ: هي خَيْبَرُ، فُتِحَتْ بعد بني قُرَيْظَة.

وقال قَتادة: كنا نُحَدَّثُ أنّها مَكّة.

وقال الحَسَن: هي أرْضُ الرُّوم وفارِس. أخرج ذلكَ ابنُ أبي حاتِم[2].

١٣ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الآية ٢٨].

قال عِكْرِمة: كان تحته يومَئذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ؛ خمسٌ من قريش: عائشة، وحَفْصة، وأمّ حَبيبة بنتُ أبي سفيان، وسَوْدة بنتُ زَمْعَة، وأمّ سَلَمَة بنت أبي أميّة؛ وكانت تحته: صَفِيّة بنتُ حُيَي الخُيْبَرِيّة، ومَيْمُونَة بنت الحارث الهلاليّة، وزَيْنَب بنت جَحْش الأسَدِيّة، وجُوَيْرِية بنت الحارث من بني المُصْطَلَق. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[3].

١٤ ـ ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الآية ٣٣].

أخرج التِّرْمِذِيّ حديثاً: أنّها لمّا نزلت

---

(١) والطبري في «تفسيره» ٢١/ ٩٥.

(٢) قال ابن جرير رحمه الله: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنّ الله تعالى ذِكْرُهُ أخبر أنّه أورث المؤمنين من أصحاب رسول الله (ص) أرض بني قُرَيْظَة وديارهم، وأرضاً لم يطؤوها يومئذٍ، ولم تكن مكّةُ ولاخَيْبَرُ ولا أرض فارس والروم ولا اليمن ممّا كانوا وَطِئوه يومئذٍ، ثمّ وطئوا ذلك بعدُ. وأورثهموه الله ذلك، كلّه داخل في قوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ لأنه تعالى ذكره لم يخصّص من ذلك بعضاً دون بعض». ووقع اختلاف في «تفسير الطبري» ٢١/ ٩٨ في نسبة الأقوال لأصحابها عمّا ذكره المؤلف هنا.

(٣) أنظر أزواجه (ص) في «سيرة ابن هشام» ٢/ ٦٤٣.

دَعَا النبيُّ (ص) فاطمةَ، وحَسَناً، وحُسَيْناً، وعَلِيّاً؛ فقال: «اللّهم هؤلاء أهلُ بَيْتي»[1].

وأخرج ابنُ أبي حاتِم عن طريق عِكْرِمة، عن ابن عبّاس قال: نَزَلَتْ في نساء النبي (ص) خاصّة[2].

قال عِكْرِمة: مَنْ شاء باهَلْتُهُ[3] أنها نزلت فيهنّ.

١٥ - ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ [الآية ٣٦].

نَزلت في أمّ كُلْثوم بنتِ عُقْبة بن أبي مُعَيْط وأخيها، كما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن ابن زيد[4].

١٦ - ﴿لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الآية ٣٧].

هو زيد بن حارثة[5].

١٧ - ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الآية ٣٧].

هي: زَيْنَبُ بنتُ جَحْش.

١٨ - ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الآية ٥٠].

أخرج ابنُ أبي حاتم عن عائشة، قالت: «التي وَهَبَتْ نَفْسَها للنبيّ (ص) خَوْلَةُ بنتُ حكيم، وتُكْنى: [أمّ شريك]».

وأخرجه عن عروة بلفظ: كان يقال: إن خولة بنت حكيم من اللاّتي وهبن أنفسهن. وأخرج عن محمّد بنِ كعبٍ وغيرِهِ: أنّ ميمونة بنتَ الحارث هي التي وَهَبَتْ نفسها.

---

(١) أخرجه التِّرمِذيّ (٣٢٠٣) في التفسير و(٣٧٨٩) في المناقب، وقال: هذا حديث حسن غريب، وأورده الذهبي في «سِيَرِ أعلام النبلاء» ٢/ ٢٠٨ عن عِكْرِمَة، عن ابن عبّاس. وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه عليه: «إسناده حسن» وللحديث طرق أخرى، أنظر تخريجها في «سير أعلام النبلاء» ٢/ ١٢٢، و٣/ ٢٥٤، ٢٥٥.

(٢) قال ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٤٨٣: «فإن كان المراد أنّهن كن سبب النزول دون غيرهنّ فصحيح، وإن أريد أنهنّ المراد فقط دون غيرهنّ ففي هذا نظر، فإنه قد وردت أحاديث تدلّ على أنّ المراد أعمّ من ذلك»، ثم أورد الأحاديث في ذلك.

(٣) من المُبَاهَلَة، وهي أن يدعو كلٌّ من المُباهِلين إلى الله تعالى، ويخلص إلى الله الدعاء، ويطلب منه سبحانه أن ينزل لعنته وغضبه على من يستحقه منهم.

(٤) ابن زيد: هوعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وروى آخرون منهم قتادة: أنّها نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله (ص) على فتاه زيد بن حارثة، فامتنعت من إنكاحه نفسها. أنظر «تفسير الطّبري» ٢٢/ ٩، و«مجمع الزوائد» ٧/ ٩٢ وفيه: «رواه الطّبراني بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح».

(٥) أنظر «تفسير الطّبري» ٢٢/ ٩، ١٠، «وتفسير ابن كثير» ٣/ ٤٩٠.

وحكى الكرماني: أنها زينب أمّ المساكين، امرأةٌ من الأنصار[١].

وقيل: أمّ شريك[٢] بنت الحارث.

١٩ - ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ [الآية ٥١].

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي رزين مولى شقيق بن سلمة قال: كان مِمَّنْ أرْجِيَ: مَيمونة، وجُويرِيَة، وأمّ حَبيبة[٣]، وصَفيّة، وسَوْدة؛ وكان مِمَّنْ آوى: عائشة، وأمُّ سَلَمَة، وزَيْنَب، وحَفْصَة.

وأخرج عن ابنِ شِهاب قال: هذا أمْرٌ أباحَهُ الله لنبيِّه، ولَمْ نَعْلَمْ أنه أرْجأ مِنْهُنَّ شيئاً. وهذان على أنَّ ضمير مِنْهُنَّ عائدٌ لأُمّهاتِ المؤمنين، وهو الذي أخرجه ابنُ أبي حاتِم عن طريق العَوْفي، عن ابن عبّاس.

وأخرج عن الشَّعْبي قال: كُنَّ نساءً وَهَبْنَ أنْفُسَهُنَّ للنبي (ص)، فَدَخَلَ بِبَعْضِهِنَّ، وأرجأ بعضَهُنَّ، منهن أمُّ شريك.

٢٠ - ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ [الآية ٥٩].

تقدّمتِ الأزواجُ[٤]، وأمّا البناتُ: ففاطمةُ، وزَيْنَبُ زَوْجُ أبي العاص؛ ورقَيَّة، وأمّ كُلثوم، زَوْجا عثمان[٥].

٢١ - ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الآية ٧٢].

قال ابنُ عبّاس: هو آدَمُ. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[٦].

---

(١) هي زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية؛ من أزواج النبي (ص)، وسميت بأمّ المساكين لرحمتها إيّاهم، ورقّتها عليهم، وكان النبيّ (ص) قد تزوّجها سنة ثلاث للهجرة، ولبثت عنده ثمانية أشهر أو أقل، وماتت بالمدينة وعمرها نحو ثلاثين سنة. انظر «سيرة ابن هشام» ٢/٦٤٧، و«سير أعلام النبلاء» ٢/٢١٨، و«تفسير الطبري» ٢٢/١٧.

(٢) واسمها: ميمونة كما في رواية ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم في «الدرّ المنثور» ٥/٢٠٨، وانظر ترجمتها في «سير أعلام النبلاء» ٢/٢٥٥، ٢٥٦.

(٣) في رواية ابن مَرْدُوَيْه عن مجاهد، أنّ أم حبيبة كانت ممّن آواها النبي (ص).

(٤) أنظر الآية رقم (٢٨) في هذه السورة.

(٥) أنظر «سيرة ابن هشام» ١/١٩٠.

(٦) الطّبري ٢٢/٣٨.

لغة التنزيل في سورة «الأحزاب»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الآية ٤].

يقال: ظاهَرَ من امرأته وتظاهَرَ وتَظَهَّرَ، وهو أن يقول لها: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي. وكانت العرب تُطلِّق نساءها في الجاهليّة بهذا اللفظ، فلمّا جاء الإسلام نُهوا عنه، وأُوجبت الكفّارة على من ظاهَرَ من امرأته.

أقول: وهذا شيء من إفادة العربية من أعضاء الجسم في توليد هذا المصطلح. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الآية ٢٦].

أي: أعانوهم.

أقول: وهذه «المظاهرة» التي تعني الإعانة والمساعدة، ليست بعيدة عن الأصل، الذي وُلِدتْ منه، وهو «الظهر» كأن الإعانة في هذا الفعل أن تكون «ظهيراً»، أي: مساعداً لغيرك.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾.

أقول: والوجه في العربية أن يُقال: وتظنّون بالله الظنونَ، لمكان الألف واللام في الكلام، ولا تأتي ألف الإطلاق إلاّ مع النكرة.

ولم يُلْجَأ إلى هذا إلاّ لمراعاة الفواصل، لتجيء عدّة الآيات على نسق متجانس في الكلم وفي الأبنية.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الآية ١٨].

و﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ في الآية هم المثبِّطون

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

عن رسول الله (ص) وهم المنافقون.

أقول: والمُعَوِّق في عصرنا من كان به عاهة جسميّة، كالعَرَج والعَضَب في رجله ويده، وهو غير الأعمى والأبكم.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الآية ١٩].

وقوله تعالى: ﴿سَلَقُوكُم﴾، أي: آذوكم بالكلام.

وأصل السَّلْق شدّة الصوت، وهو الصَّلْق أيضاً.

أقول: والسَّلْق بالألسنة الحداد ممّا نعرفه في العربية الدّارجة بهذا المعنى، ولكنّ الكلام الحادّ يكون في غيبة الرّجل.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الآية ٣٢].

أي: لستنّ كجماعة واحدةٍ من جماعات النّساء، فجعلت الجماعة كأنّها واحد بإزاء الجماعاتِ الأخرى، ومثله قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [النساء/١٥٢].

يريد بين جماعة واحدة منهم.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الآية ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿قَرْنَ﴾ وأصله أقْرَرنَ، فحذفت الراء وأُلقِيَتْ فتحتها على ما قبلها.

أقول: وفي العربيّة من هذا الحذف، ممّا يراد به التخفيف، ألا ترى أنّ الهمزة من «رأى» تحذف في المضارع فقالوا: «يَرَى»؟

٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الآية ٣٦].

أقول: وليس لِلْخِيَرَة من فعل إلا المزيد «اختار»، أمّا المجرد، «خار»، فهو قليل الاستعمال بالقياس إلى المزيد «اختار» أو «تخيَّر».

٨ ـ وقال تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الآية ٥٣].

أقول: والضمير في ﴿إِنَىٰهُ﴾ يعود على الطّعام في الآية نفسها:

﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الآية ٥٣].

وإِنَى الطعام: إدراكه، يقال: أَنِيَ الطعامُ إِنًى، كقولك: قلاه قِلًى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرّحمن]، أي: بالغ إناه.

وقيل: إناه وقته، أي: غير ناظرين وقت الطّعام.

أقول: أَنِيَ الطَّعامُ، أي: بلغ إداركه، فيه شيء من «آن» أي «حانَ» و«أنَى» يأني، وهما بمعنًى.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقۡتِيلًا ۝٦١﴾.

أقول: والتضعيف للاستفظاع.

المعاني اللغوية في سورة «الأحزاب»(*)

قال تعالى: ﴿مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الآية ٤] إنّما هُوَ «ما جَعَلَ الله لِرَجُلٍ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ» وجاءت (مِنْ) توكيداً.

وقال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ﴾ [الآية ٦] في موضع نصب واستثناء خارج.

وقال تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ مراعاةً للفواصلِ في رؤوسِ الآي.

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الآية ٤٠] أي: «ولكنْ كانَ رسولَ اللهِ وخاتَمَ النبيين».

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الآية ٥] فأنت تقول «هو يُدْعَى لفلان».

وقال تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ [الآية ٥٢] فمعناه ـ والله أعلم ـ «أنْ تَبدَّلَ بِهِنَّ أزْواجاً». وأدخِلَت (مِنْ) للتوكيد.

وقال تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ﴾ [الآية ٥٣] بالعطف على ﴿غَيْرَ﴾ وجعله نصباً أو على ما بعد ﴿غَيْرَ﴾ بجعله جرّاً.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ أي: «لا يُجاوِرُونَكَ إلاَّ قَليلاً» على المصدر.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ فصلاة الناس عليه دعاؤهم له، وصلاة الله عزّ وجلّ إشاعة الخير عنه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ برفع ما بعد ﴿وَإِذًا﴾ لمكان الواو وكذلك الفاء، وقال تعالى: ﴿فَإِذًا

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴿٥٣﴾﴾ [النساء] وهي في بعض القراءة نصب أعملوها كما يعملونها بغير فاء، ولا واو[1].

وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوٓاْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الآية ٥٣] بالنصب على الحال أي: إلاّ أنْ يُؤذَنَ لَكُمْ غَيْرَ نَاظِرِينَ. ولا يكون جرّاً على الطعام إلاّ أنْ يقال «أَنْتُمْ».

ألا ترى أنّك لو قلت: «ائذَن لعبد الله على امرأة مبغضاً لها» لم يكن فيه إلاّ النصب، إلاّ أن تقول «مبغض لها هو»: لأنّك إذا أجريت صفته عليها ولم تُظهر الضمير الذي يدلّ على أنّ الصفة له، لم يكن كلاماً. لو قلت: «هذا رَجُلٌ مَعَ امْرَأةٍ مُلازِمِها» كان لحنا حتى تقول «مُلازِمُها» فترفع، أو تقول «ملازِمِها هُوَ» فتجرّ.

(١) قراءة الرفع في آية الأحزاب هي للجمهور، وإجماع القرّاء للطبري ٢١/١٣٨، والبحر ٧/٢١٩.
وقراءة النصب فيها لم تُذكر في كتاب إلاّ الجامع ١٤/١٥١ ولم تُنسب.
أمّا قراءة النصب في آية النساء، فقد نسبت في البحر ٣/٢٧٣، إلى عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عبّاس.

لكل سؤال جواب في سورة «الأحزاب»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الآية ١] ولم يقل يا محمّد كما قال تعالى: يا موسى، يا عيسى، يا داوُد ونحوه؟

قلنا: إنّما عدل عن ندائه باسمه إلى ندائه بالنبيّ والرّسول، إجلالاً له وتعظيماً، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة/ ٦٧].

فإن قيل: لو كان ذلك كما ذكرتم، لعدل عن اسمه إلى نعته في الإخبار عنه، كما عدل في النّداء في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح/٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران/ ١٤٤].

قلنا: إنّما عدل عن نعته في هذين الموضعين لتعليم النّاس أنه رسول الله، وتلقينهم أن يسمّوه بذلك، ويدعوه به؛ ولذلك ذكره بنعته لا باسمه في غير هذين الموضعين من مواضع الإخبار، كما ذكره في النداء: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة/١٢٨]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الآية ٢١]، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة/ ٦٢]، ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الآية ٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الآية ٥٦]، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾ [المائدة/ ٨١] ونظائره كثيرة.

فإن قيل: ما الحكمة من ذكر الجوف في قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الآية ٤]؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

وجوابه في سورة الحج، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج].

فإن قيل: ما معنى قولهم. أنتِ عليّ كَظَهْرِ أمّي؟

قلنا: أرادوا أن يقولوا أنتِ عليّ حرامٌ كبطنِ أمّي، فكنّوا عن البطن بالظّهر لئلاّ يذكروا البطنَ الذي يقارب ذِكْرُهُ ذِكْرَ الفَرْج، وإنما كنّوا عن البطن بالظّهر لوجهين: أحدهما أنه عمود البطن، ويؤيّده قول عمر رضي الله تعالى عنه: يجيء أحدهم على عمود بطنه: أي على ظهره. الثاني: أنّ إتيان المرأة من قبل ظهرها كان محرّماً عندهم، وكانوا يعتقدون أنّها إذا أُتيت مِنْ قِبَلِ ظهرها جاء الولد أحول، فكان المطلّق في الجاهلية، إذا قصد تغليظ الطلاق، قال: أنت عليّ كظهر أمي.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الآية ٦]. جعل أزواج النبي (ص) بمنزلة أمهات المؤمنين حكماً: أي في الحرمة والاحترام وما جعل النبي (ص) بمنزلة أبيهم، حتى قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الآية ٤٠]؟

قلنا: أراد الله بقوله تبارك وتعالى ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ أوّلاً: أنّ أمّته يدعون أزواجه بأشرف الأسماء، وأشرف أسماء النساء الأمّ، وأشرف أسماء النبي (ص) رسول الله، لا الأب. ثانياً: أنّه تعالى جعلهنّ أمّهات المؤمنين تحريماً لهنّ وإجلالاً وتعظيماً له (ص) كيلا يطمع أحد في نكاحهنّ بعده؛ فلو جعل النبي (ص) أبا المؤمنين لكان أباً للمؤمنات أيضاً، فلم يُجعل له نكاح امرأة من المؤمنات بل يحرّمن عليه (ع)، وذلك ينافي إجلاله وتعظيمه، وقد جعله أعظم من الأب في القرب والحرمة، بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الآية ٦] فجعل (ص) أقرب إليهم من أنفسهم؛ وكثير من الآباء يتبرّأ من ابنه ويتبرّأ منه ابنه أيضاً، وليس أحد يتبرّأ من نفسه.

فإن قيل: لِمَ قُدِّم النبي (ص) على نوح (ع) ومن بعده في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ [الآية ٧]؟

قلنا: لأنّ هذا العطف من باب عطف الخاصّ على العامّ الذي هو جزء منه، لبيان التفضيل والتخصيص بذكر

مشاهير الأنبياء وذراريهم، فلمّا كان النبي (ص) أفضل هؤلاء المفضّلين قُدِّم عليهم. وفي الميثاق المأخوذ قولان: أحدهما أنه تعالى أخذ منهم الميثاق يوم أخذ الميثاق بأن يصدّق بعضهم بعضاً؛ والثاني أخذ منهم الميثاق أن يوحّدوا الله تعالى، ويدعوا إلى توحيده، ويصدّق بعضهم بعضاً.

فإن قيل: فلِمَ قُدِّم نوح (ع) في نظير هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى/ ١٣]؟

قلنا: لأنّ تلك الآية سيقت لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة، كأنه قال: شَرَعَ لكم الدين الأصيل الذي بُعث عليه نوح (ع) في العهد القديم، وبُعث عليه محمّد (ص) في العهد الحديث، وبعث عليه من توسّطهما من الأنبياء المشاهير، فكان تقديم نوح (ع) أشدّ مناسبة بالمقصود من سَوْق الآية.

فإن قيل: ما الحكمة من إعادة أخذ الميثاق في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾؟

قلنا: فائدته التأكيد، ووصف الميثاق المذكور أوّلا بالجلالة والعِظَم استعاذة من وصف الأجرام به. وقيل إنّ المراد بالميثاق الغليظ، اليمين بالله تعالى على الوفاء بما حملوا، فلا إعادة لاختلاف الميثاقين.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف حال المؤمنين التي امتنّ عليهم فيها: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الآية ١٠] ولوبلغت القلوب الحناجر لماتوا ولم يبق للامتنان وجه؟

قلنا: قال ابن قتيبة: معناه كادت القلوب تبلغ الحناجر من الخوف، فهو مثل في اضطراب القلوب وَوَجِيبها. وردّه ابن الأنباري فقال: العرب لا تضمّن كاد ولا تعرف معناه ما لم تنطق به. وقال الفراء: معناه أنهم جبنوا وجزعوا، والجبان إذا اشتدّ خوفه انتفخت رئته فرفعت قلبه إلى حنجرته، وهي جوف الحلقوم وأقصاه، وكذلك إذا اشتدّ الغضب أو الغم؛ وهذا المعنى مرويّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، ومن هنا قيل للجبان: انتفخ منخره.

فإن قيل: لِمَ ساق الله تعالى عذاب المنافقين بمشيئته بقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ [الآية ٢٤] وعذابهم متيقّن مقطوع به، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء/ ١٤٥]؟

قلنا: إن شاء تعذيبهم بإماتتهم على النّفاق. وقيل معناه إن شاء ذلك، وقد شاءه.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الآية ٢١]؟

قلنا: فيه وجهان. أحدهما أنه (ص) نفسه أسوة حسنة: أي قدوة، والأسوة اسم للمتأسّى به: أي المُقتدَى به، كما تقول في البيضة عشرون مَناً حديداً: أي هي في نفسها هذا المقدار. الثاني: أنّ فيه خصلة من حقّها أن يؤتسى بها وتتّبع، وهي مواساته بنفسه أصحابه وصبره على الجهاد، وثباته يوم أُحُد حين كُسرت رباعيته، وشُجّ وجهه الشريف.

فإن قيل: لِمَ أظهر تعالى الاسمين مع تقدّم ذكرهما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الآية ٢٢]؟

قلنا: لئلاّ يكون الضمير الواحد، عائداً على الله تعالى وغيره.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف بني قُرَيظة: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الآية ٢٧] والله تعالى إنّما مَلّكهم أرضهم بعد ما وطئوها وظهروا عليها؟

قلنا: معناه أوّلاً: ويورثكم بطريق وضع الماضي موضع المستقبل، مبالغة في تحقيق الموعود وتأكيده. ثانياً: أنّ فيه إضماراً تقديره: وأرضاً لم تطؤوها سيورثكم إيّاها، يعني أرضَ مكّة، وقيل أرض فارس والروم، وقيل أرض خيبر، وقيل كلّ أرض ظهر عليها المسلمون بعد ذلك إلى يوم القيامة. ثالثاً: أنّ معناه، وأورثكم ذلك كلّه في الأزل، بكتابته لكم في اللّوح المحفوظ.

فإن قيل: لِمَ خَصّ الله تعالى نساء النبي (ص) بتضعيف العقوبة على الذّنب، والمثوبة على الطّاعة، في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الآية ٣٠]؟

قلنا: أمّا تضعيف العقوبة فلأنهنّ أولاً يشاهدن من الزّواجر الرّادعة عن الذنوب ما لا يشاهده غيرهنّ. ثانياً: أنّ في معصيتهنّ أذى لرسول الله (ص)، وذنب من آذى رسول الله (ص) أعظم من ذنب غيره؛ والمراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق؛ كذا قاله ابن

عبّاس رضي الله تعالى عنهما. وأمّا تضعيف المثوبة فلأنهنّ أشرف من سائر النساء بقربهنّ من رسول الله (ص)، فكانت الطاعة منهنّ أشرف كما كانت المعصية منهنّ أقبح.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ولم يقل «كواحدة من النساء» [الآية ٣٢]؟

قلنا: قد سبق نظير هذا مرّة في آخر سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة/ ٢٨٥].

فإن قيل: لِمَ أمر الله تعالى نساء النبي (ص) بالزّكاة في قوله سبحانه ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الآية ٣٣] ولم يملكن نصابا حَوْلاً كاملاً؟

قلنا: المراد بالزّكاة هنا الصدقة النافلة، والأمر أمرُ نَدْب.

فإن قيل: ما الفرق بين المسلم والمؤمن، حتّى عُطِفَ أحدهما على الآخر، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [الآية ٣٤] مع أنّهما متّحدان شَرْعاً؟

قلنا: المراد بالمسلم الموحِّد بلسانه، وبالمؤمن المصدّق بقلبه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الآية ٤٠] مع أنه كان أباً للطّاهر والطّيِّب والقاسم وإبراهيم (ع)؟

قلنا: قوله تعالى ﴿مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الآية٤٠] يخرجهم من حكم النفي من وجهين: أحدهما أنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال بل ماتوا صبياناً. والثاني: أنه أضاف الرجال إليهم. وهم كانوا رجاله لا رجالهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الآية ٤٠] وعيسى (ع) ينزل بعده، وهو نبيّ؟

قلنا: معنى كونه خاتم النبيين، أنّه لا يتنبأ أحدٌ بعده، وعيسى (ع) ممّن نبئ قبله، وحينما ينزل عاملاً بشريعة محمد (ص) مصلّياً إلى قبلته، كأنّه بعض أمته؟

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ﴾ [الآية ٤٣] معناه يرحمكم ويغفر لكم، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الآية ٤٣] والرحمة والمغفرة منهم محال؟

قلنا: جُعِلُوا لكونهم مستجابي الدعوة بالرحمة والمغفرة، كأنّهم فاعلو

الرحمة والمغفرة، كما يقولون: حيّاك الله: أي أحياك وأبقاك، وحيّا زيدٌ عَمْراً: أي دعا له بأن يحييه الله اتكالاً منه على إجابة دعوته، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الآية ٥٦].

فإن قيل: قد فهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أنه مأذون له في الدعاء إلى الله تعالى، فما الحكمة في قوله سبحانه ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ [الآية ٤٦]؟

قلنا: معناه بتسهيله وتيسيره، وقيل معناه بأمره لا أنك تدعوهم من تلقاء نفسك.

فإن قيل: لِمَ شبّه الله تعالى النبي (ص) بالسّراج دون الشمس، والشمس أتمّ وأكمل في قوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾؟

قلنا: قيل إن المراد بالسّراج هنا الشمس كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾ [نوح] وقيل إنما شبّه بالسّراج لأنّ السّراج يتفرّع ويتولّد منه سُرُجٌ لا تُعَدُّ ولا تُحصى بخلافِ الشمس، والنبي (ص) تفرّع منه بواسطة إرشاده وهدايته العلماء جميعهم من عصره إلى يومنا هذا، وهلم جرا إلى يوم القيامة؛ وقيل إنّما شبّهه بالسّراج، لأنّه جلّ جلاله بعث النبي (ص) في زمان، يشبه الليل بظلمات الكفر والجهل والضلال.

فإن قيل: لِمَ شبّهه بالسراج دون الشمع، والشمع أشرف، ونوره أتمّ وأكمل؟

قلنا: قد سبق الجواب عن مثل هذا، في قوله تعالى ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور/ ٣٥].

فإن قيل: لِمَ خصّ تعالى المؤمنات بعدم وجوب العِدّةَ في الطلاق قبل المسيس، في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ [الآية ٤٩]، مع أن حكم الكتابيّة كذلك أيضاً؟

قلنا: هذا خرج مخرج الأغلب والأكثر، لا تخصيص.

فإن قيل: لِمَ أَفرَدَ سبحانه العمَّ وجَمَعَ العمّاتِ، وأفرد الخال وجمع الخالات، في قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ [الآية ٥٠] والمعهود في كلام العرب مقابلة الجمع بالجمع؟

قلنا: لأنّ العمّ اسم على وزن

المصدر الذي هو الضم ونحوه، وكذا الخال على وزن القال ونحوه، فيستوي فيه المفرد والتثنية والجمع، بخلاف العمّة والخالة، ونظيره قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [البقرة/ ٧].

فإن قيل: هذا الجواب منقوض بقوله تعالى في سورة النور ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ﴾ [النور/ ٦١].

قلنا: ليس العمّ والخال مصدرين حقيقة، بل على وزن المصدر، فاعتُبر هنا شبههما بالمصدر؛ وهناك حقيقتهما عملاً بالجهتين، بخلاف السّمع فإنّه لو كان مصدراً حقيقة، ما جاء قط في الكتاب العزيز إلا مفرداً.

فإن قيل: لِمَ ذكر الأقارب في قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [الآية ٥٥]، ولم يذكر العمّ والخال، وحكمهما حكم من ذكر في رفع الجُناح؟

قلنا: سبق مثل هذا السؤال وجوابه، في سورة النور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور/ ٣١]. فالأَوْلى أن تستتر المرأة عن عمّها وخالها، لئلاّ يصف محاسنها عند ابنه فيفضي إلى الفتنة.

فإن قيل: السادة والكبراء بمعنى واحد، فَلِمَ عُطِفَ أحدهما على الآخر، في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [الآية ٦٧]؟

قلنا: هو من باب عطف اللفظ على اللفظ المغاير له، مع اتّحاد معنيهما، كقولهم: فلان عاقل لبيب، وهذا حسن جميل، وقول الشاعر:

* مَعَاذَ اللهِ مِنْ كَذِبٍ ومَيْنِ *

فإن قيل: المراد بالإنسان آدم (ع) في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [الآية ٧٢] فلِمَ قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ وفَعُول من أوزان المبالغة، فيقتضي تكرار الظلم والجهل منه، وأنه منتفٍ؟

قلنا: لمّا كان عظيم القدر، رفيع المحلّ، كان ظلمه وجهله لنفسه أقبح وأفحش، فقام عِظَم الوصف مقام الكثرة؛ وقد سبق نظير هذا في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران/ ١٨٢].

المعاني المجازية في سورة «الأحزاب»(*)

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الآية ٢٦] وهذه استعارة. والمراد بها: أنه تعالى ألقى الرُّعبَ في قلوبهم من أثقل جهاته، وعلى أقطع بَغَتاته. تشبيهاً بقذفة الحَجَر إذا صكّت الإنسانَ على غفلة منه. فإن ذلك يكون أملأ لقلبه، وأشدّ لروعِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الآية ٣٠] وهذه استعارة. فكأنه تعالى جَعَل الفاحشة تُبيِّن حال صاحبها، وتشير إلى ما يستحقّه من العقاب عليها. وهذا من أحسن الأغراض، وأنفس جواهر الكلام.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ وهذه استعارة. والمراد بالسّراج المنير هٰهنا: أنه (ص) يُهتدَى به في ضلال الكفر، وظلام الغيّ، كما يُستَصْبَحُ بالشّهاب في الظلماء، وتُستوضَحُ الغُرّةُ في الدّهماء.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾. وهذه استعارة. وللعلماء في ذلك أقوال، قال بعضهم: المراد بذلك تفخيم شأن الأمانة، وأنّ منزلتها منزلة ما لو عُرِضَ على هذه الأشياء المذكورة مع عِظَمِها، وكانت تعلم ما فيها، لأَبَتْ أن تحملها

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

وأشفقت كلّ الإشفاق منها. إلاّ أنّ هذا الكلام خرج مخرج الواقع، لأنّه أبلغ من المقدّر. وقال بعضهم: عرْضُ الشيء على الشيء ومعارضته سواء. والمعارضة، والمقابلة، والمقايسة، والموازنة، بمعنًى واحد. فأخبر الله سبحانه عن عِظَم أمر الأمانة وثِقَلِها، وأنّها إذا قيست بالسماوات والأرض والجبال، ووزنت بها، لرجحت عليها. ولم تُطِقْ حملها، ضَعْفاً عنها. وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ ومن كلامهم: فلان يأبى الضَّيْم، إذا كان لا يحتمله. فالإباء هٰهنا هو ألاّ يقام بحمل الشيء. والإشفاق في هذا الموضع هو الضّعف عن الشيء، ولذلك كنّي به عن الخوف الذي هو ضعف القلب. فقالوا: فلان مُشْفق من كذا. أي خائف منه. ومعنى قوله سبحانه: فالسموات والأرض والجبال لم تحمل الأمانة ضعْفاً عنها، وَحَمَلَها الإنسان، أي تَقَلَّدَها وقارَفَ المآثِمَ فيها، للمعروف من كثرة جهله، وظلمه لنفسه.

سورة سَبَأ

٣٤

أهداف سورة «سبأ»(*)

سورة سبأ سورة مكّية، نزلت بعد سورة لقمان. وقد نزلت سورة سبأ في الفترة الواقعة بين السنة الحادية عشرة والثانية عشرة من حياة الرسول (ص) في مكّة بعد البعثة، فقد جاء الوحي إلى النبي وعمره أربعون سنة، ثم مكث في مكة ثلاثة عشر عاماً، وفي المدينة عشرة أعوام، ومات وعمره ثلاث وستّون سنة.

وكانت سورة سبأ ضمن مجموعة السور التي نزلت في السنوات الأخيرة من حياة المسلمين في مكّة.

وعدد آيات سورة سبأ ٥٤ آية، وسمّيت بهذا الاسم لاشتمالها على قصّة سبأ، وهي مدينة من المدن القديمة في اليمن، وكانت عاصمة دولة قديمة به، وقد خربت عند انهيار سد مأرب بسبب سيل العرم، قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)﴾.

موضوعات السورة

موضوعات سورة سبأ هي موضوعات العقيدة الرئيسة: توحيد الله والإيمان بالوحي، والاعتقاد بالبعث؛ وإلى جوارها تصحيح بعض القيم

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسة، وبيان أنّ الإيمان والعمل الصالح، لا الأموال ولا الأولاد، هما قِوام الحكم والجزاء عند الله، وأنّه ما من قوّة تعصم من بطش الله، وما من شفاعة عنده إلاّ بإذنه.

والتركيز الأكبر في السورة على قضية البعث والجزاء، وعلى إحاطة علم الله وشموله، ودقّته ولطفه؛ وتتركز الإشارة في السورة على هاتين القضيّتين بطرق منوّعة، وأساليب شتّى، وتظلّل جوّ السورة كلّه من البدء إلى النهاية.

فعن قضية البعث تقول السورة:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [الآية ٣].

ويرد قرب ختام السورة:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾.

وقد عرض الفيروزآبادي مقصود السورة فقال:

بيان حكمة التوحيد، وبرهان نبوّة الرسول (ص) ومعجزات داود وسليمان ووفاتهما، وهلاك سبأ، وشؤم الكفران، وعدم الشكر، وإلزام الحجّة على عُبّاد الأصنام، ومناظرة أهل الضلالة وذكر معاملة الأمم الماضية مع النبيّين، ووعد المنافقين والمصدّقين بالإخلاف والعودة إلى إلزام الحجّة على منكري النبوّة، وتمنّي الكفّار في وقت الوفاة الرجوع إلى الدنيا.

ونلاحظ أن هذه القضايا التي تعالجها السورة، قد عالجتها السور المكّيّة في صور شتّى، ولكنّها تعرض في كلّ سورة مصحوبة بمؤثّرات منوّعة جديدة على القلب في كل مرّة؛ ومجال عرضها في سورة سبأ يأتي مصحوباً بمؤثّرات عدة، ممثّلة في رقعة السماوات والأرض الفسيحة، وفي عالم الغيب المجهول المرهوب، وفي ساحة الحشر الهائلة العظيمة، وفي أعماق النفس المطوية اللطيفة، وفي صحائف التاريخ المعلومة والمجهولة، وفي مشاهد من ذلك التاريخ عجيبة غريبة، وفي كلّ منها مؤثّر موحٍ للقلب البشريّ، موقظ له من الغفلة والضّيق والهمود.

فمنذ افتتاح السورة وهي تفتح العيون على هذا الكون الهائل، وعلى صحائفه وما فيها من آيات الله، وعلى مجال علمه اللطيف الشامل، الدقيق الهائل.

وتستمرّ السورة في مناقشة

المكذّبين، وإلزامهم بالحجّة، وإيقافهم أمام فطرتهم وأمام منطق قلوبهم، بعيداً عن الغواشي والمؤثّرات المصطنعة[1]. قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

وهكذا تطوف السورة بالقلب البشريّ في مجالات متنوّعة، وتواجهه بالحقائق والأدلّة والحجج، حتّى تنتهي بمشهد عنيف أخّاذ من مشاهد القيامة.

فصول السورة

يجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في جولات قصيرة متلاحقة متماسكة، يمكن تقسيمها إلى ستة فصول:

١ ـ الألوهيّة وإثبات البعث

تحدّثت الآيات التسع الأولى من السّورة، عن عظمة الخالق المالك لما في السماوات والأرض، المحمود في الآخرة وهو الحكيم الخبير، وقررت شمول علمه الدقيق لما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها؛ ثمّ تطرّقت للحديث عن إنكار الكافرين لمجيء الساعة، وردّت عليهم بتأكيد إتيانها، لتتمّ إثابة المؤمنين، وعقوبة الكافرين، وليستيقن العلماء المؤمنون، أنّ القرآن حقّ وصِدْق، وهداية إلى صراط العزيز الحميد؛ ثمّ تحدّثت عن عجب الكفّار من قضيّة البعث واستبعادهم لوقوعه، بعد أن يموتوا ويمزّقوا كلَّ مُمَزَّق؛ وأجابت عن ذلك بأنّه لا وجه لاستبعادهم، وهم يرون من كمال قدرة الله مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض؛ وهدّدت المكذّبين بخسف الأرض من تحتهم، أو إسقاط السماء كِسَفاً عليهم.

٢ ـ داود وسليمان

تتناول الآيات [١٠ ـ ١٤] طرفاً من قصة داود وسليمان (ع)، وتذكر نعمة الله عليهما وفضله، فقد أعطي داود (ع) النبوّة، والزّبور والصوت الحسن؛ وإذا سبّح الله سبحت معه الجبال والطير، وألانَ الله له الحديد، وأوحى إليه أن

(١) انظر في ظلال القرآن، بقلم سيّد قطب ٢٢/٥٣ ـ ٥٦.

يعمل دروعاً سابغاتٍ للحرب، كما حثّه الله على العمل الصالح، فإنه سبحانه بصير خبير.

وقد سخّر الله تعالى لسليمان (ع) الريحَ ذَهابُها شهرٌ ورجوعها شهرٌ، تحمل بِساطَه هو وخاصّته إلى حيث يشاء، وقد ذلّل الله له الجنّ تعمل له أنواع المصنوعات. فلما انقضى أجله مات واقفاً متّكئاً على عصاه؛ وما دل الجنَّ على موته إلا أَرَضَةٌ قَرَضَتْ عصاه، فسقط، فانطلقوا بعد أن كانوا مسجونين.

٣ ـ قصة سبأ

ضرب الله مثلاً للشاكرين داود وسليمان. وقليل من الناس من يدرك فضل الله عليه، وعظيم نَعْمائه التي لا تعدّ ولا تحصى. ثم ضرب الله مثلاً للبَطَر وجحود النعمة، مملكة سبأ. فلمّا آمنت بلقيس، وكفر من جاء بعدها، وأعرضوا عن شكر الله، أصابهم الدمار.

وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبيّ اليمن، وكانوا في أرض مخصبة لا تزال منها بقيّة إلى اليوم، وقد ارتقوا في سلّم الحضارة، حتّى تحكّموا في مياه الأمطار الغزيرة التي تأتيهم من البحر في الجنوب والشرق. فأقاموا خزّاناً طبيعيّاً يتألّف جانباه من جبلين، وجعلوا على فم الوادي بينهما سدّاً به عيون تفتح وتغلق، وخَزَنُوا المياه بكمّيات عظيمة وراء السد، وتحكّموا فيها وَفْقَ حاجتهم، فكان لهم من هذا مورد مائيّ عظيم، وقد عرف باسم «سَدّ مَأْرِب».

وهاتان الجنّتان، عن اليمين والشمال، رَمْزٌ لذلك الخصب والوفرة والرّخاء والمتاع الجميل. ولكنهم لم يشكروا نعمة الله ولم يذكروا آلاءه، فسلبهم هذا الرخاء، وأرسل السيل الجارف الذي يحمل العَرِمَ في طريقه، وهي الحجارة، لشدّة تدفّقه، فحطم السد وانساحت المياه فطغت وأغرقت؛ ثم لم يعد الماء يُخزن بعد ذلك فجفّت الجنّتان واحترقتا، وتبدّلتا، صحراء تتناثر فيها الأشجار البرّيّة الخشنة.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ [الآية ١٧] بنعمة الله.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾

وقد استغرقت قصة سبأ الآيات [١٥ ـ ٢١]

٤ ـ الشرك والتوحيد

يجد المتأمل في الآيات [٢٢ ـ ٢٧] من سورة سبأ ظاهرة متميّزة: فقد تكرّرت لفظة «قُلْ» في أول هذه الآيات، كما تضمّنت عدداً من الأسئلة والحقائق بأسلوب رائع جَزْل.

لقد بدأت الآيات تتحدّى المشركين أن يدعوا الذين يزعمون أنهم آلهة من دون الله، وهم لا يملكون نفعاً ولا ضرّاً، ولا يملكون شفاعة عند الله، ولو كانوا من الملائكة. فالملائكة يَتَلَقَّوْنَ أمر الله بالخشوع الراجف، ولا يتحدّثون حتّى يزول منهم الفزع والارتجاف العميق. ويسألهم الله عمّن يرزقهم من السماوات والأرض، والله مالك السماوات والأرض، وهو الذي يرزقهم بلا شريك؛ ثمّ يفوّض أمر النبي وأمرهم إلى الله، وهو الذي يفصل فيما هم فيه مختلفون، ويختم هذا الفصل بالتحدّي كما بدأه، في أن يُرُوه الذين يلحقونهم بالله شركاء.

﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

وهكذا تطوف الآيات بالقلب البشري في مجال الوجود كلّه: حاضره وغيبه، سمائه وأرضه، دنياه وآخرته، وتقف به أمام رزقه وكسبه وحسابه وجزائه؛ ذلك كلّه في فواصل قوية، وضربات متلاحقة، وآيات تبدأ كلّ آية منها بفعل الأمر (قل)، وكل قولة منها تدمغ بالحجّة، وتصدع بالبرهان في قوة وسلطان.

وفي أعقاب هذه الآيات بيان لرسالة الرّسول (ص)، وأنها عامّة للناس أجمعين:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٥ ـ مشاهد القيامة والجزاء

يستغرق الفصل الخامس من السورة الآيات [٢٩ ـ ٤٢] ويبدأ بسؤال يوجّهه الكفّار للنبيّ (ص) عن يوم القيامة، استبعاداً لوقوعه، والجواب أنّ ميعاده لا يتقدّم ولا يتأخّر، وقد اعتزّ الكفار بالأموال والأولاد، وقالوا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب السابقة له.

وهنا يعرض القرآن موقف الظّالمين أمام ربّهم يتحاورون فيراجع بعضهم بعضاً؛ كلٌّ منهم يحاول أن يلقي التّبعة على أخيه، فيقول الضعفاء للسّادة

والكبراء: لقد تصدّيتم لنا بالإغراء، والمكر بنا ليلاً ونهاراً، حتّى أفسدتم علينا رأينا، وجعلتمونا نكفر بالله، ونجعل له نظراء من الآلهة الخياليّة؛ ويحتجّ الكبراء ويقولون أنحن منعناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟ بل كنتم مجرمين إذ أخذتم الكفر عنّا بالتقليد.

وعضّ الجميع بَنانَ الندم حينما رأوا العذاب، والأغلال في أعناقهم. ثم نرى المُتْرَفين يقاومون كلّ إصلاح، ويكذّبون كلّ رسالة:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤﴾.

وقد احتجّ المترفون بكثرة أموالهم وأولادهم، واعتقدوا أنّ فضلهم في الدنيا سيمنعهم من العذاب في الآخرة؛ وهنا يضع القرآن موازين الحق والعدل، ويقرر القيم الحقيقية التي يكون عليها الجزاء والحساب، وهي قيم الإيمان والعمل الصالح لا الأموال والأولاد.

وفي مشاهد القيامة يتّضح أنه لا الملائكة ولا الجن الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، يملكون لهم في الآخرة شيئاً.

كما توضح الآيات أنّ بسط الرزق وقبضه أمران يَجْريان وَفْقَ إرادة الله سبحانه، وليسا دليلاً على رِضًى أو غضب، ولا على قُرْبٍ أو بعد. إنّما ذلك ابتلاء واختبار.

٦ ـ الدعوة الى التأمّل والتفكّر

في الآيات الأخيرة من السورة [٤٣ ـ ٥٤] حديث عن عناد الكافرين وجحودهم، من غير برهان ولا دليل، وتنبيه من القرآن بما وقع لأمثالهم؛ وعَرْضٌ لمصارع الغابرين الذين أَخَذَهم النّكير في الدنيا، وهم كانوا أقوى منهم، وأعلم وأغنى.

ويَعْقُبُ هذا عدّة إيقاعات عنيفة، كأنّما هي مطارق متوالية؛ يدعوهم في أوّل إيقاع منها إلى أن يقوموا لله متجرّدين، ثمّ يتفكّروا غير متأثّرين بالحواجز التي تمنعهم من الهدى ومن النّظر الصحيح. وفي الإيقاع الثاني يدعوهم إلى التفكير في حقيقة البواعث التي تجعل الرّسول (ص) يلاحقهم بالدعوة، وليس له من وراء ذلك نفع ولا هو يطلب على ذلك أجراً، فما لهم يتشكّكون في دعوته ويُعْرِضُون؟

وتوالت الآيات تبدأ بلفظ (قل)..

وكلّ منها يهزّ القلب هزّاً، فمحمّد (ص) لم يسألهم أجْراً بل أجره على الله، ومحمّد (ص) مؤيّد بالحقّ، والحقّ غالب والباطل مغلوب.

ثم تَلَطَّفَ في وعظهم، فذكر سبحانه أنّ محمداً (ص) إن ضلّ فَضَلالُه إنّما يعود عليه وحده، وإن اهتدى فَبِهَدْيِ الله له؛ ثم بيّن سوء حالهم إذا فَزِعُوا يوم القيامة إلى ربّهم، فلا يكون لهم فَوْتٌ منه ولا مهرب؛ وذكر أنّهم يؤمنون به في ذلك الوقت، فلا ينفعهم إيمانهم؛ وتُخْتَم السورة بمشهد هؤلاء الكفّار، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون من الإيمان في غير موعده، والإفلات من العذاب، والنّجاة من أهوال القيامة، كما فعل أشياعهم من كَفَرَةِ الأمم التي قبلهم، إنهم كانوا في شكٍّ مُوقِعٍ في الارتياب.

وهكذا تُخْتَم السورة بمشهدٍ يثبت قضيّة البعث والجزاء، وهي القضيّة التي ظهرت خلال السورة، من بدايتها، قال تعالى:

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «سبأ»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة سبأ بعد سورة لقمان، ونزلت سورة لقمان بين الإسراء والهجرة، فيكون نزول سورة سبأ في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم لورود قصة أهل سبأ فيها. وكانت سبأ مدينة من المدن القديمة في اليمن، وكانت عاصمة دولة قديمة به، وقد خربت عند انهيار سدّ مأرب بسبب سيل العَرِم، وتبلغ آياتها أربعاً وخمسين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغَرَض من هذه السورة إثبات يوم الساعة، وكانوا قد تساءلوا عنه في آخر السورة السابقة سؤال استهزاء: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب]، ولهذا ذكرت هذه السورة بعد السورة السابقة، وقد افتتحت بحمد الله تمهيداً لذكر اعتراضاتهم على ذلك اليوم؛ ثمّ دار الكلام فيها على ذكر الاعتراض والجواب عنه، إلى أن ختمت بإثبات عنادهم ومكابرتهم.

الاعتراض الأول على يوم القيامة الآيات [١ ـ ٦]

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

﴿ٱلْآخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾، فذكر سبحانه أنه يجب له الحمد في الدنيا على ما أنعم به علينا في السماوات والأرض، وأنَّ حَمْدَنَا له في الدنيا نُجازى عليه في الآخرة، فيكون له الحمد علينا فيها أيضاً. وأخبر بأنه حكيم خبير عالم رحيم غفور، فلا يصحّ أن يكون خَلْقُه لنا عبثاً من غير حكمة. ثم ذَكَر اعتراضهم الأوّل على يوم القيامة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ [الآية ٣]، ورد عليهم بتأكيد إتيانها، ليثيب الذين آمنوا وعملوا الصّالحات، ويعذّب الذين سَعَوْا في آياته مُعاجِزين: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾.

الاعتراض الثاني
على يوم القيامة
الآيات [٧ ـ ٢٨]

ثمّ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾، فذكر استبعادهم لإعادتهم بعد أن يموتوا ويُمزَّقوا كلّ مُمَزَّقٍ، وأجاب عن ذلك بأنه لا وجه لاستبعادهم ذلك وهم يَرَوْنَ من كمال قدرته ما يرون فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، وهو الذي سَخَّر الجبال والطير لداوُد، وسخّر الريح وأسال عين القِطْرِ لسليمان، وأرسل سَيْل العَرِم على أهل سبأ، فأهلكهم وخرّب ديارهم؛ ثم ذكر عَجْزَ آلهتهم ليوازنوا بين هذا العجز وبين كمال قدرته سبحانه؛ وأمر نبيّه بعد هذا، أن يتلطّف في جدالهم بعد ظهور الحقّ لهم، فيذكر لهم أنه وإيّاهم إمّا على الهدى وإمّا على الضّلال، وأنّهم لا يُسْألون عن عمله كما لا يُسْأل عن عملهم، وأنّه لا بدّ من يوم يفصل فيه بينهم، ثمّ ختم ذلك بإثباتِ صِدْقِهِ فيما يدعوهم إليه من الإيمان بيوم القيامة وغيره: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾.

الاعتراض الثالث والرابع
على يوم القيامة
الآيات [٢٩ ـ ٤٢]

ثمّ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ فذكر، سبحانه، أنّهم سألوا عن ميعاد يوم

القيامة استبعاداً له، وأجاب بأن له ميعاداً لا يتأخرون عنه ساعة ولا يتقدّمون عنه؛ ثمّ ذكر أنهم قالوا: لن نؤمن بالقرآن ولا بما بين يديه من يوم القيامة، وأجاب بأنّه لا بُدّ من وقوفهم أمامه رؤساء ومرؤوسين، فيُلقي بَعْضُهم الذنب على بعض، ويقول المرؤوسون لرؤسائهم لولا أنتم لكنّا مؤمنين، ويقول الرؤساء لهم أنحن صددناكم عن الهُدَى بَعْدَ إذ جاءكم؟ إلى أنْ قال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿٣٣﴾﴾.

ثم ذكر أنَّ هذا كان شأن أهل القرى قَبلَهم مع أنبيائهم، فكان مُتْرَفُوها يكفرون بما جاء به الأنبياء عن يوم القيامة وغيره، ويفتخرون بكثرة أموالهم وأولادهم، ويعتقدون أنه لا عذاب يصيبهم في آخرتهم؛ ثم أمره أن يخبرهم بأن الرزق يجري بيد الله، فكم من مُوسِرٍ شقيّ، وكم من مُعْسِرٍ تقيّ، ولا تنفع الأموال والأولاد شيئاً عند الله، وإنما ينفع عنده العمل الصالح، فَيُجَازَى أصحابه الضِّعفَ بما عملوا، ويعاقَبُ من يسعى في آياته مُعاجِزاً بعذابٍ مُحضرٍ دائم؛ ثمّ أمره أن يعيد إخبارهم بأن الرزق يجري بيده سبحانه، وأنهم إذا أنفقوا منه في سبيله، فهو يُخْلِفُهُ عليهم؛ ثمّ ذكر بأنّه سيحشر هؤلاء الكفّار جميعاً سابقين ولاحقين، ثم يقول أمامهم للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴿٤٠﴾﴾ فيتبرّأ الملائكة من عبادتهم، ويذكرون أنّهم كانوا يعبدون الجنّ، أكثرهم بهم مؤمنون: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴿٤٢﴾﴾.

الخاتمة

[الآيات ٤٣ ـ ٥٤]

ثمّ قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴿٤٣﴾﴾ فذكر أنَّ ما سبق لهم في هذه السورة آيات بيّنات لا ينكرونها إلاّ عِناداً من غير بُرْهانٍ ولا كتابٍ أُنزل عليهم، ولا رسولٍ أُرسل إليهم، وقد عاند الذين من قبلهم ولم يبلغوا مِعْشارَ ما كان لهم من قوّةٍ ونعمة، فأخذهم الله بعذابه ولم تنفعهم قوّتهم ونعمتهم. ثمّ وعظهم أن

يتفكّروا في أمر النبي (ص) ليعلموا صدق ما ينذرهم به من عذاب يوم القيامة. وذكر من أدلّة صدقه أنّه لا يسألهم على ذلك أجراً، وأنّه يقذف به حقّاً واضحاً على باطلهم فَيَدْمَغُهُ، وأنّه قد جاء به حقّاً قوياً لا يُبْدِئ الباطل معه ولا يُعيدُ؛ ثم تلطّف في وعظهم، فذكر سبحانه، حكايةً عن الرسول (ص)، أنه إن ضلّ الرسول فضلالُهُ إنّما يعود عليه وحده؛ وإنِ اهتدى، فَبِهَدْيِ الله له؛ ثمّ ختم السورة ببيان سوء حالهم إذا فَزِعُوا يوم القيامة الى ربّهم، فلا يكون لهم فوتٌ منه ولا مهرب؛ وذكر أنّهم يؤمنون به في ذلك الوقت، فلا ينفعهم إيمانهم، لأنهم كانوا يكفرون به من قبل، ويقذفون بالغيب من مكان بعيد: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ۝٥٤﴾.

أسرار ترتيب سورة «سبأ»(*)

أقول: ظهر لي وجه اتّصالها بما قبلها، وهو أن تلك لمّا خُتِمَت بقوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب/ ٧٣]، افتتحت هذه بأن له ما في السماوات وما في الأرض(١). وهذا الوصف لائق بذلك الحكم، فإن المُلْكَ العامّ، والقدرة التّامّة، يقتضيان ذلك.

وخاتمة سورة الأحزاب: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ وفاصلة الآية الثانية من مطلع سبأ: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الآية ١].

مكنونات سورة «سبأ»(*)

١ - ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [الآية ١٢].

قال الحسن: كان يغدو من دِمَشْق، فَيَقِيلُ باصْطَخْر[1]، ويَروُحُ من إصطخر فيبيتُ بكابُل[2] أخرجه عبد الرزاق[3].

٢ - ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [الآية ١٢].

قال قَتَادة: كانت بأرض اليمن.

قال السُّدّي: سِيلت لَهُ ثلاثة أيام. أخرجهما ابنُ أبي حاتم.

٣ - ﴿دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ [الآية ١٤].

قال ابنُ عباس: هي الأَرَضَة. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

وفي «العجائب» للكَرماني: الأَرْضُ: مصدر أرِضَ، أَرِضَتِ الخشبةُ فهي مَأْرُوضَة، والدّابة آرِضَة، والجَمْعُ: أَرَضَة كالكَفَرَة والفَجَرَة[4].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) إصْطَخْر: مدينة في بلاد فارس. «معجم البلدان» ١/ ٢١٠.

(٢) كابُل هي عاصمة أفغانستان الآن.

(٣) جاءت الرواية في «الدر المنثور» ٥/ ٢٢٧ كما يلي، مختلفة عمّا ذكر هنا، ففيه: «أخرج عبد الرّزّاق، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن رضي الله عنه، قال: إن سليمان (ع) لمّا شغلته الخيل فاتته صلاة العصر، غَضِبَ لله فعَقَرَ الخيل ـ أي ضرب قوائمها بالسيف ـ فأبدله الله مكانها خيراً منها وأسرع، الريح تجري بأمره كيف يشاء، فكان غُدوُّها شهراً، ورَواحُها شهراً. وكان يغدو من إيليا ـ أي بيت المقدس ـ فيقيل بقريرا، ويروح بقريرا، فيبيت بكابل؟. والأثر أخرجه، كما هو أعلاه، الطّبري في «تفسيره» ٢٢/ ٤٨.

(٤) انظر «تاج العروس» مادة (أرض).

٤ ـ ﴿لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ [الآية ١٥].

قال سُفيان: هي باليمن. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

٥ ـ ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [الآية ١٩].

قال الشَّعبي: أمّا غَسَّانُ منهم، فَلَحِقوا بالشام: وأمّا الأنصارُ، فَلَحِقوا بيَثْرِبَ: وأمّا خُزاعة، فلحقوا بتِهامة، وأمّا الأزْد فلَحِقوا بعُمَان. أخرجه ابن أبي حاتم[1].

٦ ـ ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [الآية ٢٣].

هُمُ المَلائكة.

٧ ـ ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ [الآية ٢٣].

أوّل مَنْ يقولُه جبريل فيتبعونه. كما أخرجه ابن جرير من حديث النَّوّاس بن سَمْعان.

---

(١) والطبري: ٢٢/٥٩.

لغة التنزيل في سورة «سبأ»(*)

١ - وقال تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ [الآية ١٣].

أقول: كان خط المصحف ﴿ كَٱلْجَوَابِ﴾ بالباء المكسورة، وحقُّها أن تكون «الجوابي»؛ وهذا القدر الذي أثبتناه من الآية، يعادل من حيث الوزن بيتاً من الرّمل، لو أن وقفة قصيرة على «الجواب» لتفصل الصدر عن العجز، ولو كانت هذه الوقفة لحَسُنَ أن تأتي الجوابي بالياء على الأصل، خلافاً لخط المصحف.

فكأنّ خط المصحف، وعدم وجود الوقف كان اجتناباً لهذا الوزن، الذي بعدت عنه لغة التنزيل. أقول: لعلّ شيئاً من ذلك جعل «الجوابي» «الجوابِ»!!

٢ ـ وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [الآية ٢٣].

أقول: والتضعيف في قوله تعالى: ﴿فُزِّعَ﴾ للسَّلْبِ، أي أزيل الفزع.

والسَّلْبُ، كما بيّنا، من المعاني التي تستفاد من التّضعيف.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [الآية ٢٨].

أقول: والمعنى: وما أرسلناك إلاّ للناس كافّة...

ومجيء الآية بتقديم ﴿كَآفَّةً﴾ يفسد مذهب أهل التصحيح، الذين يقولون بخطأ قول المعربين، كافة الناس، ويلزمونهم أن يقولوا: الناس كافة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ [الآية ٤٤].

لعلّ هذه الآية من أقدم الشواهد على دلالة «الدرس»، وهي قراءة الكتب ومعرفتها وحفظها...

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الآية ٥٢].

و﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾: التناول، ويقال: ناشَهُ يَنُوشُهُ وتناوَشَهُ.

أقول: وقد أُمِيتَ هذا الفعل وجميع صوره في العربية المعاصرة، ولكننا نجده حياً معروفاً بمعناه في العربية الدّارجة، ولا سيّما في العراق.

المعاني اللغوية في سورة «سبأ»(*)

في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾.

لا إعمال لـ «يُنَبِّئُكُمْ» لأنّ (إنَّكُمْ) موضع ابتداء لمكان اللام، كما تقول: «أَشْهَدُ إِنَّكَ لَظَرِيفٌ».

وقوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [الآية ١٥] أي على: هذهِ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [الآية ٢٣] أي: لا يشفع الا لمن أذن له.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ [الآية ٢١] على البدل، كأنّ السّياق: «ما كان ذلك الابتلاء إلاّ لِنَعْلَمَ».

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [الآية ٢٣]، إنْ شئت نصبت الحقّ، وإن شئت رفعته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ [الآية ٢٤] فليس هذا لأنه شكّ، ولكنّ هذا في كلام العرب على أنّه هو المهتدي. وقد يقول الرجل لعبده: «أَحَدُنَا ضَارِبٌ صاحِبَه» فلا يكون فيه إشكال على السّامع، أنّ المَوْلَى هو الضّارب.

وقال تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ [الآية ٣١] تقول «قد رَجَعْتُ إِلَيْهِ القَوْلَ».

وقال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الآية ٣٣] أي: هذا مَكْرُ اللَّيْلِ والنّهار. واللّيل والنّهار لا يمكران

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

بأحد، ولكن يُمْكَرُ فيهما كقوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد/١٣] وهذا من سَعَةِ العربيّة.

وقال تعالى: ﴿تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [الآية ٣٧]، و﴿زُلْفَىٰٓ﴾ هـهـنـا اسم المصدر، كأنّه أراد: بالّتي تُقَرِّبُكُمْ عندنا إزْلافاً.

وقال تعالى: ﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الآية ٤٥] أي: عُشْرَهُ. ولا يقولون هذا في سوى العَشْر.

وقال تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الآية ٨]، فالألِفُ قَطْعٌ، لأنّها ألِف الاستفهام؛ وكذلك ألِف الوصل، إذا دخلت عليها ألف الاستفهام.

لكل سؤال جواب في سورة «سبأ»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية ٩]، ولم يقل: إلى مافوقهم وما تحتهم من السماء والأرض؟

قلنا: ما بين يدي الإنسان هو كلّ شيء يقع نظره عليه من غير أن يُحَوِّل وجهه إليه، وما خلفه هو كلّ شيء لا يقع نظره عليه حتّى يُحَوِّل وجهه إليه، فكان اللفظ المذكور أتمّ ممّا ذُكِرَ.

فإن قيل: لماذا لم يذكر سبحانه الأيمان والشمائل هنا، كما ذكرها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف/ ١٧]؟

قلنا: لأنّه وجد هنا ما يغني عن ذكرها، وهو لفظ العموم، وذِكْر السماء والأرض، ولا كذلك ثَمَّةَ.

فإن قيل: كيف استجاز سليمان (ع) عَمَلَ التماثيل، وهي التصاوير؟

قلنا: قيل إن عمل الصورة لم يكن محرّماً في شريعته، ويجوز أن تكون صور غير الحيوان كالأشجار ونحوها، وذلك غير محرّم في شريعتنا أيضاً.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ﴾ [الآية ١٥] ولم يقل آيتان جنّتان، وكل جنة كانت آية: أي علامة على توحيد الله تعالى؟

قلنا: لما تماثلتا في الدّلالة واتحدت جهتهما فيها، جُعِلَتا آية

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

واحدة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون/٥٠].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الآيـــة ٢٢]، أي الذين زعمتموهم آلهة من دون الله، مع أنّ المشركين ما زعموا غير الله إلهاً دون الله، بل مع الله على وجه الشركة؟

قلنا: النص لا يدل على زعمهم حصر الآلهة في غير الله نصّاً بل يوهم ذلك، ولو دلّ فنقول: فيه تقديم وتأخير تقديره: ادعوا الذين من دون الله زعمتم أنهم شركاء لله.

فإن قيل: ما معنى التشكيك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾؟

قلنا: قيل إنّ (أو) هنا بمعنى الواو في الموضعين، فيصير المعنى: نحن على الهدى وأنتم في الضلال. وقيل معناه: وإنّا لضالّون أو مهتدون وإنكم لكذلك، وهو من التعريض بضلالهم كما يقول الرّجل لصاحبه إذا أراد تكذيبه: والله إنّ أحدنا لكاذب، ويعني به صاحبه.

فإن قيل: لِمَ قالت الملائكة (ع) في حق المشركين، كما ورد في التنزيل: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [الآية ٤١] ولم ينقل عن أحدٍ من المشركين أنّه عبد الجن؟

قلنا: معناه كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به من عبادتنا: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾: أي أكثر المشركين مصدِّقون بالشياطين فيما يخبرونهم به من الكذب، أنّ الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك؛ فالمراد بالجنّ الشياطين.

المعاني المجازية في سورة «سبأ»(*)

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [الآية ٢٣].

هذه استعارة، فالمراد بقوله تعالى: ﴿فُزِّعَ﴾، أي أزيل الفزع عن قلوبهم. كما تقول: قَذَّيْتُ عينه: إذا أزلت القذى عنها. وهو كقولهم: رغب عنه: إذا رفعت الرغبة عنه. خلافاً لقولهم: رغب فيه: إذا صرفت الرغبة إليه. فالرغبة في أحد الأمرين منقطعة، وفي الآخر منصرفة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الآية ٣١]. وهذه استعارة. والمراد بها ما تَقَدَّمَ القرآن من الكتب، فكأنها كانت مشيرة إليه، ومُصَرَّفَة بين يديه. وقد مضى الكلام على نظائر ذلك فيما تقدّم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [الآية ٣٣]. وهذه استعارة. والمراد بمكر اللّيل والنّهار: ما يُتَوَقَّعُ من مكرهم في الليل والنهار، فأضاف تعالى المكر إليهما لوقوعه فيهما. وفيه أيضاً زيادة فائدة، وهي دلالة الكلام على أنّ مكرهم كان متصلا غير منقطع في الليل والنهار، كما يقول القائل: ما زال بنا سيرُ الليل والنهار حتّى وردنا أرضَ بني فلان. وهذا دليل على اتّصال سيرهم في الليل والنهار، من غير إغباب، ولا إراحة رِكاب.

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٤٦﴾. وهذه

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

استعارة. والمراد أنه عليه الصلاة والسلام بُعِثَ ليقدّم الإنذار أمام وقوع العقاب، إزاحةً للعلّة، وقطْعاً للمعذرة. وقد تقدّمت إشارتنا إلى نظائر هذه الاستعارة في عدّة مواضع من هذا الكتاب.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾. وهذه استعارة. لأن الإبداء والإعادة يكونان في القول، ويكونان في الفعل. فأمّا كونهما في الفعل فبقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم/٢٧]؛ وأمّا كونهما في القول، فإنّ القائل يقول: سَكَت فلانٌ فلم يُعِدْ ولم يُبْدِئ. أيْ لمْ يتكلم ابتداءً ولا أحارَ جواباً. وهاتان الصّفتان يستحيل أن يُوصَفَ بهما الباطل، الذي هو عَرَضٌ من الأعراض، إلاّ على طريق الاتّساع والمجاز.

وإنّما المراد أنّ الحقّ قَويَ وَظَهَرَ، والباطل ضَعُفَ واسْتَتَرَ، ولم يبق له بقيّة يَقْوَى بها بعد ضَعفه، ويجبر بعد وَهْنه. أي ما تقوم له قائمة في بَدْءٍ ولا عَوْد. والبَدْء: الحال الأولى، والعَوْد: الحال الأخرى. وكذلك الإبداء والإعادة.

ويجوز أن يكون لذلك وجه آخر، وهو أن يكون المعنى، أنّ الباطل كان عند غَلَبة الحقّ وظهوره، بمنزلة الواجم الساكت، والحائر الذاهل، الذي لا قدرة له على الحِجاجِ، ولا قوّة له على الانتصار. كقولهم: «سَكَتَ فما أعاد ولا أبْدأ» عند وصف الإنسان بالحَيْرة أو غلبة الفكرة.

وقد قيل أيضاً في ذلك وجه آخر، يخرج به الكلام عن حيّز الاستعارة، وهو أن يكون المراد أنّ صاحب الباطل لا يُبْدِئ ولا يُعِيدُ عند حضور صاحب الحقّ، ضعفاً عن حِجاجِهِ، وضلالاً عن مِنْهاجِهِ. فَجُعِلَ المضاف هٰهنا في موضع المضاف إليه. وذلك كثير في كلامهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ وهذه استعارة. والمراد بذلك، والله أعلم، أنّهم يقولون ما لا يعلمون، ويظنّون ولا يتحقّقون. فهم بمنزلة الرّامي غرضاً بينه وبينه مسافة متباعدة، فلا يكون سهمه أبداً إلاّ قاصِراً عن الغرض، وعادلاً عنِ السّدَد.

سورة فَاطِر

٣٥

أهداف سورة «فاطر»(*)

سورة فاطر سورة مكّية نزلت بعد سورة الفرقان، بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء. وإذا قسمنا حياة المسلمين بمكّة إلى ثلاث فترات: الفترة المبكرة للدعوة، والفترة المتوسّطة بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، والفترة الأخيرة بين الإسراء والهجرة إلى المدينة، رأينا أن سورة فاطر نزلت في الفترة المتوسّطة من حياة المسلمين بمكّة.

ولسورة فاطر اسمان: الاسم الأول فاطر، والاسم الثاني سورة الملائكة، لقوله تعالى في أول السورة:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾.

موضوعات السورة

قال الفيروزآبادي: مقصود سورة فاطر هو: «بيان خلق الملائكة، وفتح أبواب الرحمة، وتذكير النعمة، والتحذير من إغراء الشياطين، وتسلية الرسول، وصعود كلمة الشهادة إلى الله، وذكر عجائب البحر، واستخراج الحلية منه، وسير الليل والنهار، وعجز الأصنام عن الرّبوبيّة، وفقر العباد إلى الله، وفضل القرآن وشرف تلاوته، وأصناف الخلق في وراثة القرآن، وخلود الجنّة لأهل الإيمان، وخلود النار لأهل الكفر والطغيان؛ والمنّة على العباد بحفظ السماء والأرض من الخلل والاضطراب...».

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

سياق السورة

سورة فاطر لها نسق خاص في موضوعها وسياقها، أقرب ما يكون إلى نسق سورة الرعد. «فهي تمضي في إيقاعات تتوالى على القلب البشري من بدئها إلى نهايتها، وهي إيقاعات موحية مؤثرة تهز القلب هزاً، وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود، وروعة هذا الكون، وليتدبر آيات الله المبثوثة في تضاعيفه، المتناثرة في صفحاته، وليتذكّر آلاء الله ويشعر برحمته ورعايته، وليتصوّر مصارع الغابرين في الأرض ومشاهدهم يوم القيامة، وليخشع ويعنو وهو يواجه بدائع صنع الله، وآثار يده في أطواء الكون، وأغوار النفس وحياة البشر، وأحداث التاريخ. وهو يرى ويلمس في تلك البدائع وهذه الآثار وحدة الحق ووحدة الناموس، ووحدة اليد الصانعة المبدعة القوية القادرة. ذلك كله بأسلوب وإيقاع لا يتماسك له قلب يحسّ ويدرك، ويتأثر تأثر الأحياء.

«والسورة وحدة متماسكة متوالية الحلقات، متتالية الإيقاعات يصعب تقسيمها إلى فصول متميّزة الموضوعات فهي كلّها موضوع، كلّها إيقاعات على أوتار القلب البشري، تستمدّ من ينابيع الكون والنفس والحياة والتاريخ والبعث، فتأخذ على النفس أقطارها، وتهتف بالقلب من كلّ مطلع إلى الإيمان والخشوع والإذعان.

«والسمة البارزة الملحوظة هي تجميع الخيوط كلّها في يد القدرة المبدعة، وإظهار هذه اليد تحرّك الخيوط كلّها وتجمعها، وتقبضها وتبسطها، وتشدّها وترخيها فلا معقّب ولا شريك ولا ظهير.»

فقرات السورة

رغم أن السّورة كلّها وحدة متماسكة إلاّ أنه يمكن تقسيمها إلى خمسة موضوعات:

١ ـ رحمة الله وفضله

إذا تأمّلنا الآيات: [١ ـ ٨] من سورة فاطر، نجد فيضاً من أنعم الله التي لا تعدّ ولا تحصى على عباده، فهو خالق السماء والأرض وجاعل الملائكة رُسُلاً يوصلون آثار قدرته وجليل وحيه إلى عباده، ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [الآية ٢] لقد فتح الله رحمته لأنبيائه وأصفيائه، جعل النار

برداً وسلاماً على إبراهيم (ع)، وأنقذ يوسف (ع) من الجُبّ ومن السجن، واستجاب دعاء يونس (ع) في بطن الحوت، وآزر موسى (ع) في طريقه إلى فرعون، وأنزل رحمته بأصحاب الكهف وحفظهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، وشملت رحمة الله محمداً (ص) في الهجرة، وهو طريد:

﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة/٤٠].

وإذا أمسك الله رحمته عن عبد، فلن ينفعه مال ولا رجال. وإذا استقرّ اليقين في القلب، تنبّه إلى كيد الشّيطان وفنّه؛ فالمؤمن يعلم أن الشيطان عدوّ لنا يزيّن لنا الشّرّ ليوقعنا في المعصية، فمن أطاع الشيطان زيّن له سوء عمله فرآه حسناً، ووقع في الضلال، ومن يُضْلِلِ الله فما له من هاد.

٢ ـ آيات الله في الكون

في الآيات [٩ ـ ١٥] نلحظ القدرة الإلهيّة، في نفس الإنسان وفي صفحة الكون، وفي الرياح يسوقها الله، ثمّ تثير السحب فتسوقها يد القدرة مطراً يُحيي الأرض بعد موتها، وكذلك البعث والحياة بعد الموت. والله خالق الإنسان وبيده رعايته في مراحل تكوينه، وتخليقه في بطن أمّه، ثمّ رعايته وليداً وناشئاً وزوجاً، وهو عليم بمن يموت مبكراً، إنّ ذلك على الله يسير.

وتمتدّ قدرة الله سبحانه إلى كلّ مظهر من مظاهر الوجود، فتراها في مشهد البحرين المتميّزين أحدهما عذب فرات، والآخر ملح أجاج؛ وفيهما من نعم الله على النّاس ما يقتضي الشكر والعرفان.

وفي مشهد الليل والنهار، يتداخلان ويطولان ويقصران، دليل على التقدير والتدبير، وكذلك مشهد الشمس والقمر، مُسَخَّرَيْنِ بهذا النظام الدقيق.

هذه آثار قدرة الله جلّ وعلا، والذين يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يسمعون ولا يستجيبون، ويوم القيامة يتبرّأون من عبادهم الضلال. ولا يخبر بهذه الحقائق مثل الإله الخبير.

٣ ـ الله غني عن عبادتنا

في الآيات [١٥ ـ ٢٦] بيان لحقيقة أساسيّة، هي أن الله جلّ جلاله غنيّ عن عبادتنا، فلا تنفعه طاعتنا، ولا

تضرّه معصيتنا؛ ولكننا نحن الفقراء المحتاجون إلى رضاه وعنايته، فمن اهتدى بهدى الله سبحانه، فقد اهتدى إلى كلّ خير، ووجد الهداية والسعادة والثقة بالنفس، والأمل في الغد؛ ومن لم يهتدِ فقد خسر كل شيء. ولو شاء الله أن يُذهِبَ النّاس لأهلكهم، وأتى بخلق جديد يعرفون فضله عليهم.

ويشير القرآن إلى أن طبيعة الهدى غير طبيعة الضلال، وأنّ الاختلاف بين طبيعتيهما أصل عميق، كأصالة الاختلاف بين العمى والبصر، والظّلمات والنور، والظّلّ والحَرُور، والموت والحياة؛ وأنّ بين الهدى والبصر والنور والظّلّ والحياة صلةً وشَبَهاً؛ كما أنّ بين العمى والظلمة والحَرُور والموت صلةً وشَبَهاً؛ ثمّ تنتهي الجولة بإشارة إلى مصارع المكذّبين للتنبيه والتحذير.

٤ ـ كتابان إلهيان

عند قراءة الآيات [٢٧ ـ ٣٨] يتّضح أمامنا أن لله عز وجل كتابين يدلاّن عليه، أحدهما كتاب الكون والثاني الكتاب المنزل. والمؤمن يقرأ دلائل القدرة في كتاب الكون: في صحائفه العجيبة الرائعة، المتنوّعة الألوان والأنواع والأجناس، والثمار المنوّعة الألوان، والجبال الملوّنة الشّعاب، والنّاس والدّواب والأنعام وألوانها المتعددة الكثيرة. هذه اللفتة العجيبة إلى تلك الصحائف الرائعة في كتاب الكون المفتوح.

والمؤمن يقرأ في الكتاب المنزل، ويستيقن بما فيه من الحقّ المصدّق لما بين يديه من الكتب المنزلة، وتوريث هذا الكتاب للأمة المسلمة، ودرجات الوارثين وما ينتظرهم جميعاً من نعيم بعد عفو الله وغفرانه للمسيئين، ومشهدهم في دار النعيم؛ ومقابلهم مشهد الكافرين الأليم. وتختم الجولة العجيبة، المديدة، المنوّعة الألوان، بتقرير أنّ ذلك كلّه يكون وَفْقاً لعلم الله، العليم بذات الصّدور.

٥ ـ دلائل الإيمان

تشتمل الآيات [٣٩ ـ ٤٥] على الفقرة الأخيرة من السّورة، وفيها دلائل يقدّمها القرآن ليحرّك القلوب نحو الإيمان. وتجول الآيات جولات واسعة المدى، تشتمل على إيحاءات شتّى: جولة مع البشريّة في أجيالها

المتعاقبة يخلف بعضها بعضاً، «وجولة في الأرض والسمٰوات للبحث عن أيّ أثر للشركاء الذين يدعونهم من دون الله؛ وجولة في السمٰوات والأرض، كذلك لرؤية يد الله القوية تمسك بالسموات والأرض أن تزولا، وجولة مع هؤلاء المكذبين بتلك الدلائل والآيات كلها؛ وهم قد عاهدوا الله من قبل: لئن جاءهم نذير ليكوننّ أهدى من إحدى الأمم، ثمّ نقضوا هذا العهد وخالفوه. فلمّا جاءهم نذيرٌ مازادهم إلاّ نفوراً؛ وجولة في مصارع المكذّبين من قبلهم، وهم يشهدون آثارهم الدائرة، ولا يخشون أن تدور عليهم الدائرة، وأن تمضي فيهم سنّة الله الجارية»[1].

ثُمّ الختام المُوحِي الموقظ للقلب، المبين فضل الله العظيم في إمهال العصاة: فإنْ تابوا قَبِلَ توبتهم، وإن أصرّوا على المعصية عاقبهم وحاسبهم؛ قال تعالى:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

---

(١) سيّد قطب: في ظلال القرآن ٢٢/ ١٣٦.

ترابط الآيات في سورة «فاطر»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة فاطر بعد سورة الفرقان، وقد نزلت سورة الفرقان بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، فيكون نزولها في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أولها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ١] فسمّيت باسم فاطر الذي ابتدئت به بعد ذكر اسم الحمد، ومثل هذا يكفي في تسميتها به، وتبلغ آياتها خمساً وأربعين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة إثبات اختصاص الله تعالى بالحمد، ولهذا يدور الكلام فيها على ذكر ما يوجب حمده على الناس، ليفوزوا برضاه وينجوا من عقابه، وقد افتتحت بإثبات اختصاصه تعالى بالحمد، وتبشير المؤمنين الحامدين بفتح أبواب الرحمة لهم؛ فاتّصل أوّلها بما جاء في آخر السورة السابقة من قطع رجاء المشركين في ربهم، لأنّ الضدّ يدعو إلى ذكر الضدّ.

اختصاص الله تعالى بالحمد
الآيات [١ ـ ٨]

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ فذكر اختصاصه بالحمد لأنه مبدع السماوات

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

والأرض، وجاعل الملائكة رسلاً يوصلون آثار قدرته وصنعه؛ فإذا أرسلهم إلى الناس برحمته فلا معارض له في إرسالها، وإذا أمسكها عنهم فلا مرسل لها من بعده؛ ثمّ أمر الناس أن يذكروا ما رحمهم به من النعم، ليعلموا أنه لا خالق لها غيره، وأنه هو الرازق وحده، فإذا لم يؤمنوا بذلك فسوف يكون إليه جلّ وعلا مرجعهم، ليعاقبهم على كفرهم بما أنعم به عليهم؛ ثم ذكر سبحانه أن ما وعد به من رجوعهم إليه حقٌّ لا يصحّ أن تغرّهم عنه أسباب دنياهم، أو الشيطان الذي هو عدوّ لهم، ويزيّن ما يزيّنه لأتباعه ليوقعهم في عذاب ربّهم؛ ثم ذكر استحقاقهم ذلك العذاب، وذكر استحقاق المؤمنين للمغفرة والأجر، وأيّد ذلك بقوله جلّ وعلا: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

آيات تدل على اختصاصه بالحمد
الآيات [٩ ـ ٤٥]

ثمّ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ فذكر، ممّا يدل على اختصاصه بالحمد، إرساله الرياح بالمطر لإحياء الأرض بعد موتها، وأنّه كما يحيي الأرض بذلك ينشر الموتى من قبورهم، لأنّه المتفرّد وحده بالعزّة والقدرة، وإليه تصعد أعمال الناس فيحاسبهم عليها.

ثم ذكر من ذلك خَلْقَه لنا من تراب، وجَعْلَه لنا أزواجاً وتفرّده بعلم ما تحمل كلّ أنثى وما تضع، وخَلْقَه بَحْرَيْن أحدهما عذب سائغ شرابه، وثانيهما ملح أجاج، ومن كلّ منهما نأكل لحماً طريّاً ونستخرج حلية نلبسها.

ثمّ ذكر من ذلك، أنّه هو الذي يولج اللّيل في النّهار ويولج النّهار في اللّيل، ويسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجرى إلى أجل مسمّى، وأنّ من يكون هذا شأنه يكون هو المتفرّد بالملك والحمد؛ وأمّا الذين يدعونهم آلهة، فلا يملكون شيئاً، لأنّهم جماد لا يسمعون شيئاً، فإذا جاء يوم القيامة ظهر ضعفهم وكفروا بشرك من يعبدونهم. ثمّ ذكر لهم أنّهم فقراء إليه وهو سبحانه غنيٌّ عنهم، وإن يشأ يُذْهِبْهُمْ ويأتِ بخلق غيرهم يعرفون فضله عليهم؛ وأنّ ما

يَزِرُونَهُ من شركٍ وغيره لا يحمل وِزْرَهُ غيرهم، كما أنّ من تزكّى فإنّما يتزكّى لنفسه، ولا يمكن أن يستويا في ذلك، كما لا يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلُّ ولا الحَرُور ولا الأحياء ولا الأموات؛ ثم ذكر، جلّت قدرته، أنه لا شيء على النبي (ص) من تكذيبهم، وأنّهم إنْ يكذّبوه في ذلك فقد كذّب الذين من قبلهم، فأهلكهم بآيات العذاب التي أرسلها عليهم.

ثمّ ذكر من ذلك إنزاله ماء المطر الذي أخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها، وتنويعه الجبال إلى جبال ذات طرائق بيض وحمر، وغير ذلك من ألوانها، وتنويعه الناس والدوابّ والأنعام إلى أنواع مختلفة الألوان؛ وأنّ ذلك إنّما يعرفه العلماء الذين يخشونه، ويتلُون كتابه فيتدبّرونه ويعملون به؛ ثمّ ذكر فضل هذا الكتاب، وأنّه جاء مصدّقاً لما قبله من الكتب، وأنّه أورثه هذه الأمّة التي اصطفاها من عباده، فانقسمت فيه إلى ظالم لنفسه ترجّحت سيّئاته، وإلى مقتصد تساوت حسناته وسيّئاته، وإلى سابق بالخيرات ترجّحت حسناته، وبيّن ما أعدّ لهم من الثواب، وما أعدّ للكافرين من العقاب؛ ثمّ أمر النبيّ (ص) أن يقول لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ [الآية ٤٠]: ليسجّل عجزها عما يزعمونه من شفاعتها لهم، لأنه، سبحانه، هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولا يمكن أن يمسكهما غيره إنْ زالتا.

ثمّ ختمت السورة ببيان أنهم يكفرون بذلك عناداً، لأنّهم كانوا يقسمون مجتهدين إن جاءهم نذير لَيَكُونُنَّ أهدى من اليهود أو النّصارى الذين كذّبوا رُسُلَهُمْ. فلمّا جاءهم نذير لم يزدهم إلاّ نفوراً، فاستكبروا في الأرض، ومكروا مكراً سيّئاً، ولا يَحِيق المكر السَّيِّئُ إلاّ بأهله، وتلك سُنّته فيمن كذّب قبلهم برسله، لا تتبدّل ولا تتحوّل، فلينظروا كيف كانت عاقبتهم، وقد كانوا أشدّ منهم قوّة، وما كان الله ليعجزه شيء في السماوات والأرض، إنه كان عليماً قديراً: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «فاطر»(*)

أقول: مناسبة وضعها بعد سبأ: تآخيهما في الافتتاح بالحمد، مع تناسبهما في المقدار.

وقال بعضهم: افتتاح سورة فاطر بالحمد مناسب لختام ما قبلها، من قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ/ ٥٤]. كما قال سبحانه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام]، فهو نظير اتصال أوّل الأنعام بفصل القضاء المختتم به المائدة[١].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(١) يعني قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [الآية ١١٩]. وأمّا أوّل الأنعام، فهو قوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.

مكنونات سورة «فاطر»(*)

١ - ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الآية ١٤].

أخرج ابنُ أبي حاتم عن القاسم بن الفضل الحُدَّاني[(١)] قال: أرسَل الحَجّاج الى عِكْرِمة يَسْأَلُهُ عن يوم القِيامَة، أمِنَ الدنيا هو أمْ مِنَ الآخرة؟ فقال: صَدْرُ ذلك اليومِ من الدنيا وآخِرُهُ من الآخِرةِ.

٢ - ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [الآية ٣٧].

فُسِّرَ في حديثٍ مرفوع، بالسّتين. أخرجه الطبراني[(٢)] من حديث ابن عبّاس. وله شاهد من حديث أبي هريرة في «الصحيح»[(٣)].

وأخرجه ابنُ جرير من طريقٍ عن ابن عباس موقوفاً.

وأخرج من وَجْهٍ آخر عنه أنه أربعون سنة.

٣ - ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [الآية ٣٧].

هو محمّدٌ (ص)[(٤)].

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) بضم الحاء وتشديد الدال المهملتين، وفي آخرها نون، نسبة الى حُدّان وهم من الأَزْدِ، أبو المغيرة البَصري، من رواة الحديث الثقات، رُمي بالإرجاء، وتوفي سنة ١٦٧هـ. انظر «الأنساب» للسمعاني ٤/ ٧٦، ٧٧.

(٢) في «المعجم الأوسط» وفيه إبراهيم بن الفضل المخزومي، وهو ضعيف، قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٩٧.

(٣) البخاري في الرقاق؛ باب: من بلغ ستين سنة، فقد أعذر الله إليه في العمر برقم (٦٤١٩) عن أبي هريرة، عن النبيّ (ص) قال: «أعذر الله الى امرئ أخّرَ أجلَه حتى بَلَّغَهُ ستين سنة».

انظر «تفسير الطبري» ٢٢/ ٩٣.

(٤) انظر «تفسير الطبري» ٢٢/ ٩٣.

لغة التنزيل في سورة «فاطر»(*)

وقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الآية ٤].

أقول: قال النحاة: كلُّ جمعٍ مؤنث، وهذا يعني أنّ الغالب على معنى الجمع هو التأنيث، إذا استثنينا جمع المذكّر السالم.

ويصدق قولهم: إنّ الجمع مؤنث في كثير من الألفاظ المذكّرة الدالّة على العاقل، مثل كلمة، «رسل» فهي جمع رسول.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الآية ٩].

أقول: الميّت بالتشديد «فَيْعِلْ»، وقد يخفف فيكون «مَيْت»، «فَعْل» مثل «ضَيِّق» و «ضَيْق».

وقد ورد «ميْت» بالتخفيف في قوله تعالى:

﴿لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا﴾ [الفرقان/ ٤٩].

كما ورد «ضَيّق» بالتشديد، في قوله تعالى:

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام/ ١٢٥].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [الآية ١٠].

أي: ومكر أولئك يكسُد ويفسُد.

أقول: والبَوار كثير استعماله في التجارة، فيقال تجارة بائرة أو بضاعة بائرة، هذا في العربية المعاصرة، ومثله ورد في قوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [الآية ٢٩].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [الآية ١٣].

أقول: لم يأت «قطميراً» في الآية، لتكون الآية على نمط الفواصل في السورة كلها، ذلك أنّ المعنى: ما يملكون شيئاً.

إنّ قوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أبلغ ممّا لو قيل:

«ما يملكون شيئاً»، مِنْ قِبَلِ أنّ القطمير شيء لا قيمة له البتّة، ولا يُلتفت اليه فهو لفافة النواة.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [الآية/ ٢٧].

أقول: وصف قوله تعالى: ﴿جُدَدٌ﴾ بـ ﴿بِيضٌ﴾، و﴿وَحُمْرٌ﴾ ثم قوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ يدلّنا على أن الوصف للجمع لا يكون، ولا يصحّ بـ «فَعَلاء»، بل يكون بـ «فُعل» جمع أفعل فعلاء.

وعلى هذا، يكون من ذهب إلى خطأ قولنا: صحائف بيضاء على حقّ.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [الآية ٣٧].

أقول: ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾، بمعنى: يتصارخون.

لم نسمع في غير هذه الآية «افتعل» من الصراخ.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية ٣٩].

والخلائف جمعُ خليفة، فأما خُلَفاء فهي في الأصل جمع خليف، مثل شريف وشُرفاء، ولكنّها شاعت في جمع خليفة، لوجود الخليفة مستعملاً في العربية أكثر من الخليف.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [الآية ٤١].

أقول: كنّا قد أشرنا إلى مثل هذه الآية في احتساب ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ مفرداً، بإزاء ﴿الْأَرْضِ﴾ التي هي مفرد فرجع الضمير إليهما ضمير الاثنين في قوله سبحانه: ﴿أَن تَزُولَا﴾، وهذا شيء من خصائص لغة القرآن.

المعاني اللغوية في سورة «فاطر»(*)

في قوله تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [الآية ١] لم تصرف «ثُلاثَ» و«رُباعَ» على تأويل «الثلاثة» و«الأَرْبَعَة». وهذا لا يستعمل إلاّ في حال العدد. وقال سبحانه في مكان آخر ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ/٤٦]، وتقول «اُدْخُلُوا أُحادَ أحادَ» كما تقول «ثُلاثَ ثُلاثَ». وقال الشاعر [من الوافر وهو الشاهد الثاني والستون بعد المئة].

أحَمَّ اللهُ ذلِكَ مِن لِقاءٍ
أُحادَ أُحادَ في شَهْرٍ حَلالِ

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٖ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾ [الآية ٢] بالتأنيث لذكر (الرحمة) ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾.. بالتذكير لأنّ لفظ (ما) يذكّر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓۗ﴾ [الآية ١٨] خبر.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ [الآية ١٨] فكأنّ المعنى «إنّ تدْعُ إنساناً لا يحمل من ثقلها شيئاً ولو كان الانسان ذا قربى.

في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١﴾ يشبه أن تكون (لا) زائدة لأنك لو قلت: «لا يَسْتَوي عَمْرٌو ولا زيْدٌ» في هذا المعنى، لم يكن إلاّ أن تكون (لا) زائدة.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ﴾ [الآية ٢٧] و«الـجُدَدُ» واحدتها

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

«جُدَّةٌ» و «الجُدَدُ» هي ألوان الطرائق التي فيها. مثل «الغُدْة» وجماعتها «الغُدَد» ولو كانت جماعة «الجديد» لكانت «الجُدُد». وإنما قرنت ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [الآية ٢٧] لأنّ كلّ صفة مقدّمة فهي تجري على الذي قبلها، إذا كانت من سببه فالثمرات في موضع نصب.

وقال تعالى: ﴿وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ [الآية ٢٧] برفع «المُخْتَلِفُ» لأنّ الذي قبلها مرفوع.

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [الآية ٣١] لأنّ «الحقّ» معرفة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ [الآية ٤١] بالتثنية، وقد قال سبحانه: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهذه جماعة؛ وأرى، والله أعلم، أنّ السياق جعل السماوات صنفاً كالواحد.

وقال تعالى: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [الآية ٤٢] فجعلها السياق إحْدَى، لأنها أمّة.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الآية ٤٥] بإضمار الأرض من غير أن يكون ذَكَرَها، لأنّ هذا الكلام قد كثر حتى عرف معناه تقول: «أُخْبِرُكَ ما على ظَهْرِهَا أحَدٌ أحبُ إليّ مِنْكَ وما بهَا أحَدٌ آثَرُ عِنْدي مِنْكَ».

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [الآية ٣٦] وقد قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء] أي: «لا يُخَفَّفُ عنهم من العذابِ الذي هو هٰكذا».

لكل سؤال جواب في سورة «فاطر»(*)

إن قيل: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الآية ٩]. لِمَ جاء ﴿فَتُثِيرُ﴾ مضارعاً دون ما قبله وما بعده؟

قلنا: هو مضارع وضع موضع الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب/٣٧].

فإن قيل ما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ [الآية ١١]؟

قلنا: معناه وما يعمّر مِنْ أحدٍ، وإنّما سمّاه بما هو صائر إليه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [الآية ٢٤]، وكم من أمة كانت في الفترة بين عيسى (ع) ومحمد (ص) ولم يخل فيها نذير؟

قلنا: إذا كان آثار النّذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس، وحين اندرست آثار نِذارة عيسى (ع) بعث محمد عليه الصلاة والسلام.

فإن قيل: لِمَ اكتفى سبحانه وتعالى، بذكر النّذير عن البشير في آخر الآية، بعد سبق ذكرهما في أوّلها؟

قلنا: لمّا كانت النّذارة مشفوعة بالبِشارة، لا محالة، استغني بذكر أحدهما عن الآخر بعد سبق ذكرهما.

فإن قيل: ما الفرق بين النَّصَبِ واللُّغوبِ حتّى عطف أحدهما على الآخر؟

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

قلنا: النَّصَبُ المشقّة والكلفة، واللُّغوب الفتور الحاصل بسبب النَّصَبِ فهو نتيجة النَّصَبِ، كذا فرّق بينهما الزمخشري رحمه الله. ويردّ على هذا، أن يكون انتفاء الثاني معلوماً من انتفاء الأول.

فإن قيل ما الحكمة في قوله تعالى ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الآية ٣٧]، مع أنه قد يفيد أنهم يعملون صالحاً آخر غير الصالح الذي عملوه، وهم ماعملوا صالحاً قطّ، بل سيئاً؟

قلنا: هم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف] فمعناه غير الذي كنا نحسبه صالحاً، فنعمله.

المعاني المجازية في سورة «فاطر»(*)

قوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [الآية ١٠] هذه استعارة. وليس المراد أنّ هناك على الحقيقة شيئاً يوصف بالصُّعود، ويرتقي من سَفالٍ إلى علوّ. وإنّما المراد أنّ القول الطّيب والعمل الصالح متقبّلان عند الله تعالى، واصِلان إليه سبحانه. بمعنى أنهما يبلغان رضاه، وينالان زُلْفاه. وأنّه تعالى لا يضيّعهما ولا يهمل الجزاء عليهما. وهذا كقول القائل لغيره: قد ترقّى الأمر إلى الأمير. أي بلغه ذلك على وجهه، وعَرفه على حقيقته. وليس يريد به الارتقاء الذي هو الارتفاع، وضده الانخفاض.

ووجه آخر: قيل إن معنى ذلك صعود الأقوال والأعمال إلى حيث لا يملك الحُكْمَ فيه إلاّ الله سبحانه. كما يقال ارتفع أمرُ القوم إلى القاضي. إذا انتهوا إلى أن يحَكم بينهم، ويفصل خصامهم. ووجه آخر: قيل إنّ الله سبحانه لمّا كان موصوفاً بالعلوّ على طريق الجلال والعظمة، لا على طريق المدَى والمسافة، فكلّ ما يُتقرّب به إليه من قول زكيّ، وعمل مرضيّ فالإخبار عنه يقع بلفظ الصعود والارتفاع، على طريق المجاز والاتّساع.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [الآية ١٨]. وقد مضى نظير هذا الكلام في الأنعام، وفي بني إسرائيل، وتركنا الإشارة إليه

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

هناك لمّا جاءت في هذا الموضع زيادةٌ حققت الكلام بالاستعارة، فاحتجنا إلى العبارة عنها أسوة بنظائرها. فنقول: إنّ قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل حاملة حمل غيرها يوم القيامة. يقال: وَزَرَ، يَزِرُ وِزْراً، إذا حَمَل. والاسم الوِزْرُ. ومن ذلك أُخِذَ اسم الوزير، لأنه حامل الثِّقْل عن الأمير. والمعنى: ولا يحمل مذنبٌ ذَنْبَ غيره، ولا يؤخذ بجرمه وجنايته.

والزيادة في هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ فشبَّه تعالى استغاثة المثقَّل من الآثام باستغاثته من الإعياء. لأنّ مِنْ عادةِ مَنْ تلك حالُهُ أنْ يَطْلُبَ مَنْ يشاطره الحِمْلَ، ويخفّف عنه الثِّقْلَ. فأمّا في ذلك اليوم فلا يهمّ كلَّ امرئ إلاّ نفسُه، ولا يَعْنيهِ إلاّ أمْرُه، ولا يُعِين أحدٌ أحداً، ولا يُخفِّف مَدْعوٌّ مِن داعٍ ثِقْلاً، ولو كان أوْلى الناس بأمره، وأقربهم التياطاً به، وانتياطاً[1] بنسبه.

وإنّما قال سبحانه: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾. ولم يقل: «مثقَلٌ». لأنه رَدَّ ذلك إلى النفس، ولم يَرْدُدْه إلى الشخص.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [الآية ٤٣] وهذه استعارة. والمراد أن الله سبحانه يعاقب المشركين على مكرهم بالمؤمنين، فكأنما مَكَرُوا بأنفسهم، ووجَّهوا الضرر إليهم، لا إلى غيرهم، إذ كان المكر عائداً بالوَبال عليهم. ومعنى لا يحيق أي لا يحلُّ، ولا ينزل، ولا يحيط إلاّ بهم.

وهذه الألفاظ كلها بمعنى واحد.

---

(١) انتاط به: أي تعلّق به. ولاحظ هنا الجناس الناقص بين التياط وانتياط؛ وذلك من براعات الشريف الرضي.

سورة يٓس

٣٦

أهداف سورة «يس»(*)

سورة «يس» سورة مكّية، نزلت في الفترة المتوسّطة من حياة المسلمين في مكّة، أي فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، وآياتها ٨٣ آية نزلت بعد سورة الجن.

وللسورة اسمان: سورة «يس» لافتتاحها بها، وسورة «حبيب النجار» لاشتمالها على قصته، فقد جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠﴾ أنّ هذا الرجل يسمّى «حبيب النجّار».

مقصود السورة

قال الفيروزآبادي: «معظم مقصود سورة «يس»: تأكيد أمر القرآن والرسالة، وإلزام الحجة على أهل الضلالة، وضرب المثل بأهل قرية أنطاكية، في قوله تعالى:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣﴾.

وذكر قصة «حبيب النجار»، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وبيان البراهين المختلفة في إحياء الأرض الميتة، وإبداء الليل والنهار، وسير الكواكب ودوران الأفلاك، وجَرْي الجواري المنشآت في البحار، وذلّة الكفار عند الموت، وحيرتهم ساعة البعث، وسعادة المؤمنين المطيعين، وشغلهم في الجنّة، وتميّز المؤمن من الكافر في القيامة، وشهادة الجوارح على أهل المعاصي بمعاصيهم، والمنّة

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

على الرسول (ص) بصيانته من الشعر ونظمه، وإقامة البرهان على البعث، ونفاذ أمر الحق في ﴿كُن فَيَكُونُ﴿٨٢﴾﴾، وكمال ملك ذي الجلال على كل حال»[1] في قوله سبحانه:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٨٣﴾﴾.

ملامح السورة

لسورة يس وقع خاص في نفوس المسلمين، يردّدون قراءتها في الصباح والمساء، وتُقرأ على المريض للشفاء، وعلى المُحتَضَر لتيسير خروج الروح، وعلى المقابر لتنزل الرحمة على الموتى، وقد أخرج ابن حِبّان في صحيحه مرفوعاً:

«من قرأ يس في ليلةٍ ابتغاءَ وجْهِ الله غفر الله له»[2].

وتتميز سورة يس بِقِصَر الآيات، وسهولة القراءة، وتتابع المشاهد وتنوّعها، من بدء السورة إلى نهايتها.

والموضوعات الرئيسة في السورة، هي موضوعات السورة المكّيّة، وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة، فهي تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة، وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون، لتحذِّر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، وتعرض هذه العاقبة في القصّة على طريقة القرآن الكريم في استخدام القصص لتدعيم قضاياه؛ وتعودُ السورة، قُبيل نهايتها، إلى الموضوع ذاته، فتوضح أنّ ما يوحَى إلى محمد (ص)، ليس شعراً ولكنّه ذِكْرٌ وقرآن مبين.

كذلك تتعرّض السّورة لقضيّة الألوهيّة والوحدانيّة، فيجيء استنكار الشِّرْك على لسان الرّجل المؤمن، الذي جاء من أقصى المدينة ليعلن إيمانه بالمرسلين، وهو يقول كما ورد في التنزيل:

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٢٢﴾﴾.

والقضيّة التي يَشْتَدُّ عليها التركيز في مواضع كثيرة من السورة، هي قضية البعث والنشور. وتحكي السورة قصّة

---

(١) بصائر ذوي التمييز ١/ ٣١٠ بتصرف.

(٢) انظر المصدر نفسه ١/ ٣٩٢.

أبيّ بن خلف، حين جاء بِعَظْم قد رمّ وبَلِيَ وصار تراباً، ثمّ ضغط عليه بيديه، ونفخ فيه فطارَ في الفضاء، ثمّ قال: «يا محمّد تزعم أنّ ربّك يبعث هذا بعد ما رمّ وبليَ وصار تراباً»، فقال له: النبي (ص) «نعم ويبعثك ويدخلك النار»، قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾.

«والقضايا المتعلّقة ببناء العقيدة، تتكرّر في السور المكّية، ولكنّها تُعرض كلّ مرّة من زاوية معيّنة، تحت ضوء معيّن، مصحوبة بمؤثرات تناسب جوّها، وتتناسق مع إيقاعها وصورها.

«وهذه المؤثرات منتزعة في هذه السورة من مشاهد القيامة، بصفة خاصة، ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها، ومن مصارع الغابرين على مدار القرون، ثُمّ من المشاهد الكونية الكثيرة، المتفرعة الموحية: مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة، ومشهد الليل يُسْلَخ منه النهار فإذا هو ظلام، ومشهد الشمس تجري لمستقرّ لها، ومشهد القمر يتدرّج في منازله حتّى يعود كالعُرْجُونِ القديم، ومشهد الفُلْكِ المشحون يحمل ذرّية البشر الأوّلين، ومشهد الأنعام مسخّرة للآدميين، ومشهد النطفة وتحوّلها في النهاية إلى إنسان فإذا هو خصيم مبين، ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقدون»[(٣)].

فصول السورة

يجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في ثلاثة فصول:

١ ـ رسالة ورسول

يستغرق الفصل الأول من السورة الآيات [١ ـ ٢٩]، ويبدأ بالقَسَم بالحرفين «يا. سين» وبالقرآن الحكيم على صدق رسالة النبي (ص)، وأنّه على صراط مستقيم، ثم يبيّن أنّ القرآن الكريم مُنزل من عند الله تعالى، لإنذار العرب الذين لم يُنذر آباؤهم من قَبْلُ فوقعوا فيما وقعوا من الغفلة، وحَقَّ العذابُ على أكثرهم بسببها، وقد

---

(٣) في ظلال القرآن ٢٣/٧.

جرت سُنّةُ الله سبحانه ألاّ يعذِّب قوماً إلاّ بعد أن يرسل إليهم من ينذرهم، ثمّ وصف حرمانهم من الهداية وإمعانهم في الغواية، كأنّما وُضِعَت أغلال في أعناقهم بلغت إلى أذقانهم، وَوُضِعَتْ سدودٌ بين أيديهم ومن خلفهم فصاروا لا يبصرون؛ وبيّن أنّ الإنذار إنّما ينفع من اتّبع الذكر؛ وخشي الرحمن بالغيب، فاستعدّ قلبه لاستقبال دلائل الهدى، وموحيات الإيمان. ثم يوجِّه النبي (ص) إلى أن يضرب لهم مثلاً أصحاب القرية.

قصة أصحاب القرية

ضرب الله جلّ جلاله لأهل مكّة مثلاً قصّة أهل أنطاكية بالشام، أرسل سبحانه إليهم رسولين، هما يوحنا وبولس من حواريّي عيسى (ع)، فكذّبهما أهل القرية، فأرسل الله جلّ وعلا، ثالثاً على درجة من الذكاء في توجيه الدّعوة، واستمرّ التّكذيب من الكافرين، وبيان الحجة وأدلّة الإيمان من المرسلين. ثمّ جاء رجل مؤمن يسمى «حبيب النجار» فدعا قومه إلى الإيمان بالرسل، فاتّهموه بأنه مؤمن، فأعلن إيمانه في ظروف حرجة، وتعرّض الرجل للإيذاء والقتل، فحظي بالشهادة والجنّة، وتمنّى لو أنّ قومه يعلمون منزلته الآن عند الله سبحانه.

أمّا القرية الظالمة فقد صاح بها الملك صيحة أهلكتها، أفلا يعتبر أهل مكّة بهذه القرية، وبالقرون التي هلكت جزاء كفرها؟ وسيجتمع الجميع أمام الله تعالى يوم القيامة، ويتميّز المؤمنون بحسن الثواب، ويحلّ بالكافرين سوء العقاب.

٢ ـ أدلة الايمان

بعد الحديث في الدرس الأول عن المشركين الذين واجهوا دعوة الإسلام بالتكذيب، والمثل الذي ضربه الله لهم في قصة أصحاب القرية المكذّبين، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك، بصيحة الملاك، فإذا هم خامدون؛ تحدثت الآيات [٣٠ ـ ٦٨] عن موقف المكذّبين بكل ملّة ودين، وعرضت صور البشرية الضالّة على مدار القرون، ثم أخذت في استعراض الآيات الكونية، التي يمرّون عليها معرضين غافلين، وهي مبثوثة في أنفسهم وفيما حولهم.

فالماء الذي يحيي الأرض بأنواع

الجنان والنخيل والأعناب، والليل والنهار والشمس والقمر، والنبات والإنسان، وكلّ ما في الكون قد أُبدع بنظام دقيق، فللشمس مدارها، وللقمر مساره، وللليل وقته، وللنهار أوانه: لا يتأخر كوكب عن موعده، ولا يختلّ نظام، ولا تضطرب حركات الكون: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾.

ثمّ تحدّثت الآيات عن عناد المشركين، واستعجالهم العذاب غير مصدّقين:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٨)﴾.

وبمناسبة ذلك يستعرض مشهداً من مشاهد القيامة، يرون فيه مصيرهم الذي به يستعجلون، كأنّه حاضر تراه العيون.

٣ ـ وحي لا شعر

يشتمل الدرس الثالث على الآيات الممتدة من الآية ٦٩ الى آخر السّورة. ويكاد هذا الفصل يلخّص موضوعات السورة كلّها، فينفي في أوّله أن ما جاء به محمد (ص) شعر، وينفي عن الرسول (ص) كلّ علاقة بالشّعر أصلاً، ثُمّ يعرض بعض المشاهد واللّمسات الدالّة على الألوهيّة المنفردة، وينعي عليهم اتّخاذ آلهة من دون الله يبتغون عندهم النصر، وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدّعاة؛ ويتناول قضية البعث والنشور، فيذكّرهم بالنشأة الأولى من نطفة، ليروا أنّ إحياء العظام وهي رميم، كتلك النشأة ولا غرابة، ويذكّرهم بالشجر الأخضر الذي تكون فيه النار، وهما في الظاهر بعيدان، وبخلق السموات والأرض، وهذا الخلق شاهد للقدرة على خلق أمثالهم من البشر في الأولى والآخرة؛ وفي ختام السورة نجد برهان القدرة الإلهية والإرادة الربّانيّة، فالله مالك كلّ شيء في الدّنيا والآخرة، وإليه المآب والمرجع؛ قال تعالى:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾.

ترابط الآيات في سورة «يس»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «يس» بعد سورة «الجنّ»، وكان نزول سورة الجن في رجوع النبي (ص) من الطائف، وكان قد سافر إليها سنة عشر من بعثته، ليعرض الإسلام على أهلها، فيكون نزول سورة «يس» فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لا بتدائها بالقَسَم بهذين الحرفين اللذين سميت بهما، وتبلغ آياتها ثلاثاً وثمانين آيةً.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السّورة إثبات الرّسالة، وبيان الحاجة إليها، وهي إنذار العرب الذين لم ينذروا من قبل النبي (ص)، وقد حَقَّ عذابُ الله عليهم بغفلتهم وفجورهم. ويدور السّياق في هذه السورة على ذكر ما يدلّ على قدرة الله على ذلك من الأمثلة والآيات، وقد ختمت السورة السابقة بإنذارهم بذلك العذاب، وأن الله لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض؛ فجاءت هذه السورة لإثبات قدرة الله تعالى المطلقة، بتلك الأمثلة والآيات.

حاجتهم إلى رسول لإنذارهم الآيات [١ ـ ١٢]

قال الله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

فأقسم بهذين الحرفين على أن محمدًا (ص) من المرسلين، ثم ذكر الحاجة الى رسالته، وهي إنذار العرب الذين لم ينذر آباؤهم من قَبْلُ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الغفلة، وحَقَّ العذابُ على أكثرهم بسببها؛ وقد جرت سُنَّة الله تعالى ألاّ يعذّب قوماً إلاّ بعد أن يرسل إليهم من ينذرهم؛ ثم ذكر سبحانه، أنه بلغ من استحكام غفلتهم، أنهم كانوا كأنّما كانت في أعناقهم أغلال بلغت إلى أذقانهم، فارتفعت بها رؤوسهم وصاروا لا يبصرون الطريق الذي يخلّصهم منها؛ ثم ذكر أن من وصلت بهم الغفلة إلى هذا الحدّ، وَهُمُ الأكثر عدَداً، لا فائدة في إنذارهم، وإنّما ينذر من كان عنده استعداد لاتّباع الذكر، وخشية من العذاب، وهؤلاء لهم البشرى بمغفرة وأجر كريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴿١٢﴾﴾.

إثبات قدرته على عذابهم
الآيات [١٣ - ٨٣]

ثم قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴿١٣﴾﴾ فذكر سبحانه، ممّا يدلّ على قدرته على عذابهم، مَثَلَ أصحاب تلك القرية مع رسلهم، وقد فصّله بما فصله به، إلى أن ذكر سبحانه، أنه لم يَحْتَجْ في عذابهم إلى إنزال جند من السماء عليهم، وإنما كانت صيحة واحدة أخمدتهم، وجعلتهم يستحقّون التحسّر على ما أصابهم، بسبب استهزائهم بمن كان يأتيهم من الرسل، وعدم اتّعاظهم بما يرونه من الأمم التي أهلكت قبلهم، وأنّهم إليهم لا يرجعون: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴿٣٢﴾﴾.

ثم ذكر تعالى من ذلك، آية إحياء الأرض بعد موتها، فأخرج منها حبًّا وجعل فيها جناتٍ من نخيل وأعناب، إلى غير هذا ممّا ذكره في هذه الآية.

ثمّ ذكر سبحانه من ذلك آية سلخ النهار من الليل، وجَرْيِ الشمس لمستقرّ لها، وتقدير القمر منازل، الى غير هذا ممّا ذكره في هذه الآية.

ثم ذكر جلّ جلاله، من ذلك آية حمْل ذُرِّيتهم في الفُلْك التي تجري بهم في البحر، وأنه، جلّ شأنه، إنْ يَشَأْ يُغْرِقْهُمْ، فلا يقدر أحد على إنقاذهم، ولكنّ رحمته سبحانه هي التي اقتضت أن يمهلهم الى حين؛ ثم ذكر أنهم مع

هذا، اذا قيل لهم احذروا مثل هذا العذاب، لعلّ الله يرحمكم، ويمنعه عنكم، أعرضوا كما يعرضون عن كل آية تأتيهم، وأنهم إذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله، قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه، ثم ذكر سبحانه أنهم يقولون مستهزئين متى هذا الوعد بالعذاب؟ وأجاب عنه بأنهم لا ينظرون إلاّ صيحة واحدة وهم يجادلون فيه، فلا يستطيعون توصية ولا رجوعاً الى أهلهم؛ ثم ذكر جلّ وعلا أنه بعد صيحة العذاب، تكون صيحة النفخ في الصور، فيبعثون من القبور؛ وفصّل ما يكون بعد البعث من الثّواب والعقاب، إلى أن ذكر أنّ الكافرين ينكرون في ذلك اليوم كفرهم، فيختمُ على أفواههم، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم؛ وأنه لو يشاء سبحانه لطمس على أعينهم، ومسخ على مكانتهم، فأعجزهم عن الحركة كما أعجزهم عن النطق بالختم على أفواههم؛ كما يُنكّس من يعمّره في الخلق، فيردّه من القوة إلى الضعف والإعياء؛ ثم ذكر أن ما يوعدون به من ذلك ليس بقول شاعر يلقي القول على عواهنه، وإنّما هو ذِكرٌ وقرآن مبين ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم ذكر من ذلك، أنّه سبحانه خلق لهم أنعاماً، وذلّلها لركوبهم وأكلهم، وجعل لهم فيها منافعَ ومشاربَ توجب شكره عليهم؛ ولكنّهم يتّخذون من دونه آلهة يزعمون أنها تنصرهم، وتدفع عنهم ما يوعدون به من العذاب، مع أنها لا تستطيع أن تدفع عنهم شيئاً إذا جاء يوم عذابهم وتتبرّأ منهم؛ ثم نهى النبي (ص) أن يحزن لكفرهم بقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

ثمّ ذكر سبحانه، من ذلك، خلقه الإنسان من نطفةٍ، فإذا هو خصيم مبين؛ وذكر من خصامه أنه يضرب مثلا لإنكار بعثه فيقول كما ورد في التنزيل: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾، وأمر النبي (ص) أن يجيبه بأن الذي أنشأها أوّل مرة، قادر على إحيائها؛ وذكر من قدرته تعالى، على ذلك أنّه يجعل من الشجر الأخضر ناراً، وأنّه هو الذي خلق السماوات والارض، وإذا أراد شيئاً قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «يس»(*)

أقول: ظهر لي وجه اتصالها بما قبلها: أنه لمّا ذكر تعالى في سورة فاطر قوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر/٣٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [فاطر/٤٢]، والمراد به محمد (ص)[1] وقد أعرضوا عنه وكذّبوه، فافتتح هذه السّورة بالإقسام على صحة رسالته، وأنه على صراط مستقيم، لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم. وهذا وجه بيّن.

وفي فاطر: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [الآية ١٣]. وفي يس ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾. وذلك أبسط وأوضح.

وفي فاطر: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [الآية ١٢]. وفي يس: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾، فزاد القصّة بَسْطاً.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) هو قول السُّدّيّ وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٥٤٢.

مكنونات سورة «يس»(*)

١ ـ ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [الآية ١٣].

قال بريدة[1]: أنطاكية. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

٢ ـ ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [الآية ١٤].

هما: شَمْعُون ويوحنَّا. أخرجه ابنُ أبي حاتم عن شُعَيْب الجَبَائي، قال: واسمُ الثالثِ: بولس[2].

وأخرج عن كعب ووَهب: أنَّ الثلاثة: صادق، وصدوق، وشلوم.

وأخرج ابنُ سعد عن ابن عبّاس: أنَّ الثالث الذي عزّز به شمعون.

٣ - ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ﴾ [الآية ٢٠].

قال ابنُ عبّاس: هو حبيب النجّار. أخرجه ابنُ أبي حاتم من طُرُق عنه، وعن قَتَادة، وكعب، ووهب، وغيرهم[3].

وأخرجَ عَنْ عُمَرَ بن الحكم: أنه كان إسْكافاً.

وعن السُّدِّيّ: أنه كان قَصّاراً.

٤ ـ ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [الآية ٣٨].

أخرجَ الأئمَّةُ الخمسةُ[4] عن أبي ذرٍّ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) انظر «تفسير الطّبري» ٢٢/١٠١.

(٢) انظر «الإتقان» ٢/١٤٨.

(٣) انظر «تفسير الطّبري» ٢٢/١٠٢.

(٤) البخاري (٤٨٠٣) في التفسير، وفي التوحيد أيضاً، ومسلم في الإيمان (١٥٩)، والتِّرْمِذِي (٣٢٢٥) في التفسير، وأبو داود (٤٠٠٢) في الحروف والقراءات، والنّسائي.

قال: سألتُ النبي (ص) عن قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾.

قال: مُستقَرُّها تحتَ العَرْشِ.

٥ - ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الآية ٧٧].

نزلت في العاصي بن وائل، كما أخرجه الحاكمُ[١] عن ابن عبّاس.

وأخرج ابنُ أبي حاتِم عن مجاهِد، وعِكْرِمَة، وعُرْوَة، والسُّدِّيّ: في أُبَيّ بنِ خَلَف.

وأخرجَ ابنُ جَرِير[٢] من طريق العَوْفي، عن ابنِ عبّاس: في عبدِ اللهِ بنِ أُبَيّ. وقيل في أُميّة بن خَلَف. حكاه ابنُ عساكر.

---

(١) في «المستدرك» ٢/٤٢٩ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» وأخرجه أيضاً الطبري في «تفسيره» ٢٣/ ٣٠ط الحلبي.

ووقع لفظ «الحاكم»: «ابن أبي حاتم»، وذكر السيوطي في «الدّرّ المنثور» ٥/ ٢٦٩ أنّ «ابن أبي حاتم» قد أخرجه أيضاً، ولكني لا أطمئن الى أن أثبتها أعلاه بجانب «الحاكم»، إذ ليس ببعيد أن يدمج الروايات ذات المعنى الواحد في روايات أخر؛ والله تعالى أعلم.

(٢) ٢٣/ ٢١. وسنده ضعيف، وقال ابن كثير، بعدما ذكر أثر ابن عباس هذا في «تفسيره» ٣/ ٥٨١: «وهذا منكر، لأن السورة مكّيّة، وعبد الله بن أُبيّ بن سلول، إنّما كان في المدينة».

لغة التنزيل في سورة «يس»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾.

والمُقْمَحُ: الذي يرفع رأسه ويغضُّ بصره، يقال: قَمَحَ البعير فهو قامح إذا رَوِيَ، فرفع رأسه.

ومنه شَهْرا قُماح، سُمِّيا بذلك، لأنّ الإبل إذا وردت فيهما آذاها بَرْدُ الماء، فقامَحَتْ.

أقول: ليقف دارس العربية وقفة طويلة على هذه الأصول البدويّة القديمة، التي أحالها المعربون إلى مواد أخرى، تبدو كأنّها قطعت الصلة بأصولها القديمة.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قرئ: بإدغام التاء في الصّاد، مع فتح الخاء وكسرها، وإتباع الياء الخاء في الكسر، والأصل: يختصمون، وبها قراءة أيضاً.

أقول: وقد تعجب أن القراءات المشهورة تبدو أحياناً غريبة، وقد تتجاوز المألوف الشائع الذي درجت عليه العربيّة، فتأتي أبنية غريبة كهذه الكلمة، في حين يبتعد عن الأصل الشائع.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

وقُرِئ: «فكِهون» بكسر الكاف وضمّها، مثل حَذِث وحَذُث ونَطِس ونَطُس وغير ذلك.

وقُرئ فاكهين وفكِهين، بالنصب على الحال.

أقول: وقوله تعالى: ﴿فَٰكِهُونَ﴾، وهو اسم فاعل ووصف أُخذ من الاسم «فاكهة»، فهي مادة الاشتقاق وأصله، لشهرتها ومعرفتها، وقد جاء الفعل وما يتبعه منها.

٤ - وقال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴿٥٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟﴾، أي: وانفردوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، وذلك حين يحشر المؤمنون ويُسار بهم إلى الجنّة.

أقول: إن الفعل «امتاز»، من الأفعال المهمّة في العربية المعاصرة، فهو كثير الاستعمال، يقال: امتاز هذا الشيء بجودته عن سائر الأشياء، أي: انفرد.

غير أن استعماله يقتصر على الإيجاب، فإذا امتاز الشيء بشيء ما، فذلك الشيء الذي امتاز به من صفات الحسن والجودة، ولهذا كان «الممتاز» هو الحَسَن من كلّ شيء، فالبضاعة «الممتازة» هي العالية في نوعها مثلاً.
ولا يقال في الصّفات السلبية «امتازت» فلا نقول:

امتاز الكتاب بسوء تأليفه، بل العكس هو الغالب المستعمل.

٥ - وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [الآية ٦٢].

وقُرئ: «جُبُلاً»، بضمتين، وضمة وسكون، وضمتين وتشديد، و كسرتين، وكسرة وسكون، مع التشديد. وكلها بمعنى الخلق.

وفي قراءة عليٍّ رضي الله عنه: جيلاً واحداً بالياء.

٦ - وقال تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴿٧٢﴾﴾.

وقُرئ: (رَكوبتهم)، وهو ما يُركَب كالحَلوب والحَلوبة.

وقيل: «الرَّكُوبة» جمع.

وقرئ: (رُكوبُهُمْ)، أي: ذو رُكوبِهم.

أقول: وقد ورد «فَعول» للاسم كثيراً في العربيّة، كالوَقود والوَضوء والغَسول والوَجور والسَّفوف، وغير ذلك.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [الآية ٧٧].

والمعنى وإذا هو، أي الإنسان، بعدما كان نُطفةً، صار رجلاً مميِّزاً قادراً على الخصام.

فالخصيم نعت، يفيد أنّه يعرف الخصام، ويُحسنه.

المعاني اللغوية في سورة «يس»(*)

قال تعالى: ﴿يسٓ ۝١﴾، يقال معناها يا إنسان، كأنّه سبحانه يعني النبيّ (ص)، فلذلك قال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ لأنه يعني النبي (ص).

وقال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [الآية ٦] أي: قوم لم يُنْذَرْ آباؤهم، لأنهم كانوا في الفترة. وقرأ بعضهم (ما أُنْذِرَهُ آباؤُهُمْ فهُمْ غافِلونَ). فدخول الفاء في هذا المعنى، كأنّه لا يجوز، والله أعلم، وهو على الأوّل أحسن.

وقال تعالى: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن﴾ [الآية ١٩] أي: إنْ ذُكِّرْتُمْ فَمَعَكُمْ طائِرُكُم.

وقال سبحانه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ﴾ [الآية ٤٠] بإدخال «لا» لمعنى النفي، ولكن لا يُنْصَبُ ما بعدها إلاّ أن يكونَ نكرةً، فهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ [الكافرون/ ٣ و٥].

وقال تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ [الآية ٧٢] أي: «منها ما يركبون» لأنّك تقول: «هٰذِه دابَّةٌ رَكُوبٌ». و«الرُّكوبُ»: هو فعلهم.

وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا﴾ [الآية ٥٨] فانتصب «قولاً» على البدل من اللفظ بالفعل، كأنّه قال «أقُولُ قَوْلاً»؛ وقرأه ابن مسعود (سَلاَماً) وعيسى[1] وابن

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) هو عيسى بن عمر الثقفي، وقد مرّت ترجمته.

أبي اسحاق[1] كذلك نصباها على خبر المعرفة، على قوله تعالى ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾[2].

(١) هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، أحد أوائل النحاة، وترجم له في أخبار النحويين البصريين ١٩، ومراتب النحويين ١٢، ونزهة الألباء ١٠، وطبقات اللغويين ٣١، وإنباه الرواة ٣/ ١٠٤.

(٢) القراءة بالنصب، هي في معاني القرآن ٢/ ٣٨٠ الى عبد الله؛ وفي المصاحف ٦٩، والطبري ٢٣/ ٢١، والجامع ١٥/ ٤٥ كذلك، وفي البحر ٧/ ٣٤٣؛ الى أُبَيّ وعبد الله، وعيسى، والغنوي.

لكل سؤال جواب في سورة «يس»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى أولا: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴿١٤﴾﴾ وقال سبحانه ثانياً: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴿١٦﴾﴾؟

قلنا: لأن الأوّل ابتداء إخبار، فلم يَحْتَجْ إلى التّأكيد باللاّم، بخلاف الثاني فإنّه جواب بعد الإنكار والتّكذيب، فاحتاج إلى التّأكيد.

فإن قيل: لِمَ أضاف الرجل الذي جاء من أقصى المدينة الفَطْرَ إلى نفسه، بقوله كما ورد في التنزيل: ﴿فَطَرَنِى﴾ [الآية ٢٢] وأضاف البعث إليهم بقوله، كما ذكر القرآن ذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الآية ٢٢]، مع علمه أنّ الله تعالى فطره وفطرهم، وسوف يبعثه ويبعثهم، فَلِمَ لَمْ يَقُلْ فَطَرَنا وإليه نرجع، أو فطركم وإليه ترجعون؟

قلنا: لأنّ الخلق والإيجاد نعمةٌ من الله تعالى توجب الشُّكْر؛ والبعث بعد الموت وعيد وتهديد يوجب الزَّجْر، فكان إضافته النعمة إلى نفسه أظهر في الشّكر، وإضافته البعث إليهم أبلغ في الزّجر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [الآية ٣٠] والتحسّر على الله تعالى محال؟

قلنا: هو تحسير للخلق، معناه قولوا يا حسرتنا على أنفسنا، لا تحسُّراً من الله تعالى.

فإن قيل: لِمَ نفى الله سبحانه وتعالى عن الشمس أن تُدْرِكَ القَمر دون عكسه وهو: ولا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس؟

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

قلنا: لأنّ سير القمر أسرع، فإنّه يقطع فلكه في شهر، والشمس لا تقطع فلكها إلاّ في سنة، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بنفي الإدراك لبطء سيرها، والقمر خليقاً بأن يوصف بالسّبق لسرعة سيره؛ هذا سؤال الزمخشري رحمه الله وجوابه. ويُرَدُّ عليه أن سرعة سير القمر يناسب أن ينفى الإدراك عنه، لأنّه إذا قيل لا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس مع سرعة سيره، علم بالطريق الأولى أنّ الشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر مع بطء سيرها: فاذا قيل: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر أمكن أن يقال إنّما لم تدركه لبطء سيرها، فأمّا القمر فيجوز أن يدركها لسرعة سيره.

فإن قيل: لم قال الله تعالى ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ [الآية ٤١]، أي لأهل مكّة، ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي ذريّة أهل مكّة، أو ذريّة قوم نوح (ع) ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الآية ٤١]، والذرّية اسم للأولاد، والمحمول في سفينة نوح (ع) آباء أهل مكّة، لا أولادهم؟

قلنا: الذرّيّة من أسماء الأضداد تطلق على الآباء والأولاد بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران]. وصف جميع المذكورين بكونهم ذرّية وبعضهم آباء وبعضهم أبناء، فمعناه حملنا آباء أهل مكّة، أو حملنا أبناءهم، لأنهم كانوا في ظهور آبائهم المحمولين.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝﴾ يعنون الوعْد بالبعث والجزاء، والوعْد كان واقعاً لا مُنتَظَراً؟

قلنا: معناه إنجاز هذا الوعد وصدقه، بحذف المضاف أو بإطلاق اسم الوعد على الموعود، كضرب الأمير ونسيج اليمن.

فان قيل: قولهم، كما ورد في التنزيل: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [الآية ٥٢]، سؤال عن الباعث، فكيف طابقه ما بعده جواباً.

قلنا: معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث، وأنبأكم به الرّسل، إلا أنه جيء به على هذه الطريقة، تبكيتاً لهم وتوبيخاً.

فإن قيل: لم قال تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾ [الآية ٥٦] والظلّ إنّما يكون حيث تكون الشمس، ولهذا لا يقال لما في الليل ظلّ، والجنّة لا يكون فيها شمس، لقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان]؟

قلنا: ظل أشجار الجنة من نور العرش، لئلا تبهر أبصار أهل الجنة، فإنه أعظم من نور الشمس، وقيل من نور قناديل العرش.

فإن قيل: لِمَ سمّى سبحانه وتعالى، نطق اليد كلاماً، ونطق الرجل شهادة، في قوله سبحانه: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [الآية ٦٥]؟

قلنا: لأن اليد كانت مباشِرَةً، والرِّجْل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة، وقول الفاعل على نفسه ليس بشهادة، بل إقرار بما فعل.

قلت: وفي الجواب نظر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ [الآية ٦٩] مع أنه (ص) قد روي عنه ما هو شعر، وهو قوله (ص):

أنا النَّبيّ لا كَذِبْ
أنا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ

وقوله (ص):

هل أنتِ إلاّ إصْبَعٌ دَمِيتِ
وَفي سَبِيلِ اللهِ ما لَقِيتِ

قلنا: هذا ليس بشعر، لأن الخليل لم يَعُدَّ مشطور الرَّجَزِ شِعْراً، وقوله (ص) «هل أنت إلا أصبع دميت» من مشطور بحر الرجز، كيف وقد روي أنه (ص) قال: «دميت ولقيت» بفتح الياء وسكون التاء، وعلى هذا لا يكون شِعْراً، وإنّما الرّاوي حرّفه فصار شِعْراً؛ الثاني أن حدّ الشعر قول موزون مقفّى مقصودٌ به الشعر؛ والقصد مُنْتَفٍ فيما روي عنه (ص)، فكان كما يتّفق وجوده في كلّ كلام منثور من الخطب والرسائل ومحاورات الناس، ولا يَعُدُّه أحدٌ شِعْراً.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [الآية ٧١] والله تعالى منزّه عن الجارحة؟

قلنا: هو كناية عن الانفراد بخلق الأنعام، والاستبداد به بغير شريك؛ كما يقال في الحبّ وغيره من أعمال القلب، هذا ممّا عملته يداك؛ ويقال لمن لا يد له يداك أو يديك، وكذا

قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص/ ٧٥].

فإن قيل: لم سمّى تعالى قوله: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [الآية ٧٨] مَثَلاً، وهو ليس بمثل، وإنما هو استفهامُ إنكارٍ؟

قلنا: سمّاه، سبحانه، مَثَلاً، لما دلّ عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمَثَلِ، وهو إنكار الإنسان قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، مع أنّ العقل والنّقل كليهما يشهدان بقدرة الله، جل جلاله، على ذلك.

المعاني المجازية في سورة «يس»(*)

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

وهاتان استعارتان. ومن أوضح الأدلّة على ذلك، أنّ الكلام كلّه في أوصاف القوم المذمومين. وهم في أحوال الدُّنيا دون أحوال الآخرة.

ألا ترى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾. وإذا كان الكلام محمولاً على أحوالِ الدّنيا دون أحوال الآخرة، وقد علمنا أنّ هؤلاء القوم الذين ذهب الكلام إليهم، كان النّاس يشاهدونهم غير مُقْمَحِينَ بالأغلال، ولا مضروباً عليهم بالأسداد، علمنا أنّ الكلام خرج مخرج قوله سبحانه: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة/٧]؛ وكأنّ ذلك وصف لما كان عليه الكفّار عند سماع القرآن، من تنكيس الأذقان، وَلَيِّ الأعناق، ذَهاباً عنِ الرُّشدِ، واستكباراً عنِ الانقياد للحقّ، وضيقَ صدر بما يَرِدُ عليهم من مواقع البيان، وقوارع القرآن. وقد اخْتُلِفَ في معنى الإقْمَاح. فقال قوم: هو غضّ الأبصار؛ واستشهدوا بقول بشر بن أبي[1] خازم في ذكر السفينة:

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) البيت في «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي جـ ١٥ ص ٨ منسوبا إلى بِشر، فقط من غير ذكر لأبيه. وفي كتاب «القُرْطَيْن» لابن مُطَرِّف جـ ٢ ص ٨٧ لم ينسب لقائله. ولكن مصحّح الكتاب نسبه في الهامش إلى بشر بن أبي حازم بالحاء المهملة كما جاء مثل ذلك في كتاب «الحماسة» لابن الشجري طبع حيدر أباد ص ٥، ٣٠٤ أما في

ونحنُ على جَوانِبِها قُعودٌ
نَغُضُّ الطَّرْفَ كالإبلِ القِمَاحِ

وقال قوم: المُقْمَحُ: الرافع رأسَهُ متعمِّدًا. فكأنَّ هؤلاء المذمومين شُبِّهوا على المبالغة في وصف تَكارُهِهِم للإيمان، وتضايُقِ صدورهم لسماع القرآن، بقومٍ عُوقبوا فَجُذِبَتْ أذقانهم بالأغلال إلى صدورهم مضمومةً إليها أيمانُهُم، ثمّ رُفِعَتْ رؤوسُهُم، ليكون ذلك أشدَّ لإيلامهم، وأبلغَ في عذابهم.

وقيل: إنّ المُقْمَحَ الغاضُّ بَصَرَهُ بعد رفع رأسه، فكأنّه جامعٌ بين الصِّفَتَيْنِ جميعاً.

وقيل: إنّ قوله تعالى: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ يعني به أيمانَهُمُ المجموعةَ بالأغلالِ إلى أعناقهم، فاكْتُفِيَ بذكر الأعناق من الأيمان، لأنّ الأغلال تجمع بين الأيمان والأعناق.

وكذلك معنى السُّدِّ المجعول بين أيديهم ومن خلفهم، إنّما هو تشبيه بمن قَصُرَ خَطْوُهُ وأُخِذت عليه طرقه. ولما كان ما يصيبهم من هذه المشاقّ المذكورة والأحوال المذمومة، إنّما هو عَقِيب تلاوة القرآنِ عَلَيْهِم، ونَفْثِ قوارعه في أسْماعِهِمْ، حَسُنَ أن يُضيف سبحانَهُ ذلك إلى نفسه، فيقول: إنّا جعلناهم على تلك الصفات.

وقد قرئ «سَدّاً» بالفتح، و«سُدّاً» بالضم. وقيل إن السَّدَّ بالفتح ما يصنعه الناس، والسُّدُّ بالضمّ ما يصنعه الله تعالى.

وقال بعضهم: المراد بذكر السُّدِّ هُهنا: الإخبار عن خذلان الله سبحانه إيّاهم، وتركه نَصْرَهم ومعونتهم، كما تقول العرب في صفة الضّالِّ المتحيّر: فلانٌ لا ينفذ في طريق يسلكه، ولا يعلم أمامه أم وراءه خير له. وعلى ذلك قول الشاعر:

فأصبح لا يَدْري وإنْ كانَ حازِماً
أَقُدّامَهُ خَيْرٌ لَهُ أمْ وَرَاءَهُ

وأمّا قوله سبحانه: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الآية ٩]، فهو أيضاً في معنى الختْم والطَّبْع، وواقعٌ على الوجه الذي يقعان عليه. وقد تقدّم إيماؤنا إليه.

صفحة ١٠٣، ٢٦٩ فجاء بغير ذلك. والصواب بالحاء المعجمة والزاي. وله ترجمة في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة ص ٢٢٧، والخزانة جـ ٢ ص ٢٦١ ـ ٢٦٤، ومختارات ابن الشجري جـ ٢ ص ١٩ ـ ٣٣، والمفضليات بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون.

وقوله سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴿٣٧﴾﴾.

وهذه استعارة. والمراد نُخرجُ منه النّهار، ونستقصي تخليص أجزائه، حتّى لا يبقى من ضوء النهار شيء مع ظلمة الليل، فإذا النّاس قد دخلوا في الظلام. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ كما يقال: أفجَرُوا، إذا دخلوا في الفجر، وأنجدوا، وأتْهَمُوا، إذا دخلوا نَجْداً وتِهامَة.

والسَّلْخ: إخراج الشيء ممّا لابَسَهُ، والتَحَمَ به. فكلُّ واحد من اللّيل والنهار، متّصل بصاحبه اتّصال الملابس بأبدانها، والجلود بحيوانها. ففي تخليص أحدهما من الآخر، حتّى لا يبقى معه منه طرف، و لا عليه منه أثر، آية باهرة، ودلالة ظاهرة. فسبحان الله ربّ العالمين.

وقوله سبحانه في ذكر البعث: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴿٥٢﴾﴾ وهذه استعارة. لأن المَرْقَدَ هٰهنا عبارة عن الممات، فشبّهوا حال موتهم بحال نومهم، لأنها أشبه الأشياء بها. وكذلك قوة شبَه حال الاستيقاظ بحال الاحياء والإنشار، وعلى ذلك قوله (ص): «إنَّكُمْ تموتُونَ كما تَنَامُونَ، وَتُبْعَثُونَ كما تَسْتَيْقِظُونَ»[1]. وقال بعضهم: الاستعارة هٰهنا أبلغ من الحقيقة. لأنّ النوم أكثر من الموت، والاستيقاظ أكثر من الإحياء بعد الموت. لأن الإنسان الواحد يتكرّر عليه النوم واليقظة مرات، وليس كذلك حال الموت والحياة.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴿٦٦﴾﴾. وهذه استعارة. والمراد بالطُمْس هٰهنا: إذهاب نور الأبصار حتّى يَبْطُلَ إدراكها، تشبيهاً بطَمْس حروف الكتاب، حتّى تَشْكُلَ قراءتها.

وفيه أيضاً زيادة معنى، لأنه يدلُّ عَلَى مَحْوِ آثارِ عيونهم، مع إذهاب أبصارها، وكسْف أنوارها. وقيل معنى الطُمْس إلحامُ الشّقوق التي بين الأجفان حتّى تكون مبهمة، لا شِقّ فيها، ولا

(١) هذا الحديث من خطبة له (ص)، وهي أوّل خطبة بمكّة حينما دعا قومه إلى الإسلام. وهي في كتاب «جمهرة خطب العرب» جـ ١ ص ٥١. وقد نقلها عن «السيرة الحلبية» جـ ١ ص ٢٧٢، وعن «الكامل» لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٧.

شَفْرَ لها. يقولون: أعمى مطموس وطميس، إذا كان كذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ۝٦٨﴾ وقرئ: ننكسه بالتخفيف، وهذه استعارة. والمراد، والله أعلم، أنّا نُعيدُ الشّيخَ الكبير، إلى حال الطّفل الصّغير، في الضّعف بعد القوّة، والتّثاقُل بَعدَ النّهضة، والإخلاق[1] بَعْد الجِدّة. تشبيهاً بمن انتكس على رأسه، فصار أعلاه سُفلاً، وأسْفَلُهُ عُلْواً.

وقوله سبحانه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ۝٧٠﴾ وهذه استعارة. والمراد بالحيّ هُهنا: الغافل الذي يستيقظ إذا أُوقِظَ، ويتّعظ إذا وُعِظ.

فسمّى سبحانه المؤمن الذي ينتفع بالإنذار حيّاً لنجاته، وَسَمّى الكافر الذي لا يُصغي إلى الزَّواجر ميتاً لهُلْكِه.

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ۝٧١﴾ وهذه استعارة. والمراد بذكر الأيدي هُهنا، قسمان من أقسام اليد في اللغة العربية. إمّا أن تكون بمعنى القوّة، وبمعنى تحقيق الإضافة. فكأنّهُ سبحانه قال: أوَ لم يَرَوْا أنّا خلقنا لهم أنعاماً، اخترعناها بقوّة تقديرنا، وَمُتْقَنِ تدبيرنا.

أو يكون المعنى أنّ هذه الأنعام، ممّا تولّينا خَلْقَهُ، من غير أنْ يشاركَنا فيه أحدٌ من المخلوقين؛ لأنّ المخلوقين قد يعملون سفائن البحر، ولا يعملون سفائن البرّ، التي هي الأنعام المذلَّلَةُ ظهورُها، والمحلَّلَةُ لحومُها. فهذا وجه فائدة الإضافة في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ والله أعلم.

---

(١) الإخلاق: كون الشيء خَلَقاً بالياً بَعْدَ جِدّته.

سورة الصّافات

٣٧

أهداف سورة «الصافات»(*)

سورة «الصافات» سورة مكّية، وآياتها [١٨٢] آية. نزلت بعد سورة «الأنعام» في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكّة، فقد نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة إلى المدينة.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لابتدائها بالقسم بالصّافات. والمراد بها الملائكة التي تقف صفوفاً للعبادة، أو تصفّ أجنحتها في الهواء امتثالاً للطّاعة، وانتظاراً لوصول أمر الله إليها.

مقصود السورة

قال الفيروزآبادي: معظم ما تقصد إليه السورة هو: الإخبار عن صفّ الملائكة والمصلّين للعبادة، ودلائل الوحدانيّة، ورجم الشياطين، وذلّ الظّالمين، وعزّ المطيعين في الجنان، وقهر المجرمين في النّيران، ومعجزة نوح وحديث إبراهيم وفداء إسماعيل في جزاء الانقياد، وبشارة إبراهيم بإسحاق، والمنة على موسى وهارون بإيتاء الكتاب، وحكاية الناس في حال الدّعوة، وهلاك قوم لوط، وحبس يونس في بطن الحوت، وبيان فساد عقيدة المشركين في إثبات النسبة، ودرجات الملائكة في مقام العبادة، وما منح الله الأنبياء من النصر والتأييد، وتنزيه حضرة الجلال عن الأنداد والأضداد في قوله سبحانه:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾.

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

سياق السورة

تميّزت سورة «الصافات» بِقِصَر الآيات، وسرعة الإيقاع، وكثرة المشاهد والمواقف، وتنوُّع الصور والمؤثرات.

وهي تستهدف، كسائر السور المكّيّة، بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك في كلّ صُوَرِهِ وأشكاله، ولكنها بصفة خاصّة تعالج صورة معيَّنة من صُوَرِ الشرك، التي كانت سائدة في البيئة العربيّة الأولى، وتقف أمام هذه الصورة طويلاً، وتكشف عن زَيْفِها وبطلانها بوسائل شتّى. تلك هي الصورة التي كانت جاهليّة العرب تستسيغها، وهي تزعُم أنّ هناك قرابةً بين الله سبحانه والجنّ؛ وتستطرد في تلك الأسطورة فتزعُم أنه من التزاوج بين الله، سبحانه، والجن، ولدت الملائكة. ثمّ تزعُم أنّ الملائكة إناث، وأنهنّ بنات الله!

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قويّة في هذه السّورة، تكشف عن تفاهتها وسُخْفِها، ونظراً لأنها هي الموضوع البارز الذي تعالجه السّورة، فانها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾.

ويتلوها حديث عن الشّياطين المَرَدَة، وتعرّضهم للرّجم بالشُّهب الثاقبة، كي لا يقربوا من الملأ الأعلى، ولا يتسمّعوا لما يدور فيه، ولو كانوا حيث تزعُم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة.

وبمناسبة ضلال الكافرين وتكذيبهم، تعرض السورة سلسلة من قصص الرّسل: نوح وإبراهيم وابنه، وموسى وهارون، وإلياس ولوط ويونس صلوات الله عليهم جميعاً، تتكشّف فيها رحمة الله ونصره لرسله، وأخذه للمكذّبين بالعذاب والتنكيل. ويمكننا أن نقسم سورة الصّافات إلى ثلاثة موضوعات رئيسة:

١ ـ وصف الملائكة ومشاهد الآخرة

يستغرق الموضوع الأوّل من السورة الآيات [١ ـ ٧٠].

ويتضمّن افتتاح السّورة بالقَسَم بتلك الطوائف من الملائكة:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾، على وحدانية الله ربّ المشارق والمغارب، مزيّنِ السّماء بالكواكب، ثمّ تجيء مسألة الشّياطين، وتَسَمُّعهم للملأ الأعلى، ورجمهم بالشّهب الثاقبة، يتلوها سؤال لهم:

﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾ [الآية ١١]، من الملائكة والكواكب والشّياطين والشّهب؟، للتوصّل من هذا إلى تسفيه ما كانوا يقولونه عن البعث، وإثبات ما كانوا يستبعدونه ويتسهزئون بوقوعه؛ ومن ثم يعرض ذلك المشهد المطوّل للبعث والحساب والنعيم والعذاب، وهو مشهد فريد، حافل بالصورة والحركة، والمقابلة بينه وبين منازل الأبرار، وآلام الفجار.

٢ ـ قصص الأنبياء

تتعرّض الآيات [٧١ ـ ١٤٨] لبيان أن هؤلاء الضالين لهم نظائر في السّابقين، الذين جاءتهم النُّذُرُ فكان أكثرهم من الضالّين، ويستطرد السّياق في قصص أولئك المنذرين، من قوم نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس (ع)، وكيف كانت عاقبة المنذرين وعاقبة المؤمنين.

ومن الظواهر المؤثرة في هذا القَصَص، تجرّد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لربهم جلَّ وعلا، وإخلاصهم له، فيونس (ع) يسبّح بحمد ربه ويناجيه في بطن الحوت، وإبراهيم (ع) يطيع الله ويستسلم لأمره، في قصة الذبح والفداء؛ ونشاهد من الذابح والذبيح التجرّد والامتثال لأمر الله تعالى، في أعمق صورة، وأروعها، وأرفعها.

وقد كانت الإشارة إلى قِصَص الأنبياء لمحات سريعة في آيات قصيرة، تحتوي على عبرة القِصة، والتذكير بمضمونها.

٣ ـ أسطورة تعقبها الحقيقة

تناولت الآيات الممتدّة من ١٤٩ إلى الآية ١٨٢، حيث آخر السورة، الحديث عن الأسطورة الكاذبة، أسطورة نسبة الجنّ والملائكة إلى الله سبحانه، ثمّ فَنَّدَتْ هذه الأسطورة، ونَزَّهَتِ الله سبحانه عنها، وبَيَّنَتْ أنّ الملائكة خلْقٌ من خلقِ الله، مُلْتَزِمٌ بطاعته.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾.

وقرّرت الآياتُ وعْدَ الله لرسله بالظفر والغلبة:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

وتنتهي السورة بتنزيه الله سبحانه، والتسليم على رسله عليهم الصلاة والسلام، والاعتراف بربوبيّته؛ وهي القضايا التي تناولتها السورة في الصميم.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ترابط الآيات في سورة «الصافات»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الصافات» بعد سورة «الأنعام»، وقد نزلت سورة الأنعام بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة «الصافات» في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها بالقَسَم به، والمراد به الملائكة التي تقف صفوفاً للعبادة، أو تَصُفُّ أجنحتها في الهواء، منتظرة وصول أمر الله إليها؛ وتبلغ آيات هذه السورة اثنتين وثمانين ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

يُقصَدُ من هذه السورة إبطال الشرك، وقد كانوا يعبدون الملائكة ويزعمون أنّها بنات الله، ويتّخذون من الشّياطين قُرَناءَ يُطيعونهم، ويزعمون أنّ بينهم وبين الله نسباً، وأنّهم يصعدون إلى السماء فيطّلعون على أسرارها ويخبرونهم بها، فابتدأتِ السّورة بإثبات وحدانيته تعالى، وأشارت إلى أن الملائكة عباد مُسخّرون للعبادة وحراسة السماء من الشياطين؛ وذكر السّياق أنّ الشياطين عباد مدحورون لا يعرفون شيئاً من أخبار السماء، وأنّ الله تعالى أمر النبيّ (ص) أن يستفتيهم فيما يكون من أمرهم، وهم أضعف منهم خلقاً، لينذرهم بقدرته على بعثهم وحسابهم مع شياطينهم وآلهتهم، وبما قصّ عليهم من أخبار الماضين ليكون فيها

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

عبرة لهم؛ ثم أمره جلّ جلاله أن يستفتيهم ثانياً في صحّة مازعموه من أن الملائكة بنات الله، ومن أنّ بينه وبين الجِنّة نسباً؛ وبهذا يدور السياق في هذه السورة على هذا الترتيب، وقد خُتِمَتِ السّورة السابقة بالاستدلال بخلق السماوات والأرض على قدرته سبحانه على بعثهم؛ وقد جاء في أوّل هذه السّورة أنهم أضعف من غيرهم خلقاً، فيكون بعثهم أهون عليه جلّ وعلا من غيرهم، وهذا هو وجه ذكر هذه السّورة بعد سابقتها، إلى ما بينهما من الشّبه في الإنذار بعذاب الله تعالى.

إبطال الشرك
الآيات [١ ـ ١٠]

قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤﴾ فأقسم بالملائكة التي تَصْطَفُّ لعبادته، وتَزْجُرُ الشياطين عن معرفة أسرار سمائه على وحدانيّته؛ وأشار بهذا إلى عبوديّتها له عزّ وجلّ؛ ثمّ وصف نفسه بما يدل على تفرّده بالألوهية، فذكر سبحانه، أنّه ربّ السماوات والأرض، وأنه زَيّن السماء الدنيا بالكواكب، وحَفِظَها من الشّياطين التي يزعمون أنّها تصعد إليها، فتعرف أسرارها وتلقيها إليهم، فهمْ يُدْحَرُون عنها كلّما اقتربوا منها، ولهم عذاب يترقّبهم دائماً كلّما حاولوا ذلك: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠﴾.

أخذ المشركين بالترهيب والترغيب
الآيات [١١ ـ ١٤٨]

ثمّ قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ١١﴾ فأمر النبي (ص) أن يستفتيهم في أمرهم، وقد سخّر لعبادته وطرد من رحمته من هو أشدّ منهم خلقاً، ومنِ اتّخذوهم قُرناءَ وآلهة، فلا يعجزه أن يبعثهم ويحشرهم مع قرنائهم وآلهتهم؛ ثم ذكر جلّ وعلا أنهم عند بعثهم لا يتناصرون كما يزعمون، بل يُلْقي بعضهم التّبعة على بعض، ويشتركون في العذاب جيمعاً؛ ثمّ ذكر ما أعدّه للمؤمنين بعد ذِكْرِ عذابهم، وذكر ما كان من عصيانهم لقرنائهم حينما كانوا يغوونهم بالكفر وإنكار البعث والجزاء، ووازن بين ما أعدّه للفريقين، إلى أن ذكر أن السبب في ضلال المشركين أنهم ألفوا آباءهم

ضالّين: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾.

ثمّ أخذ السّياق في ذكر حال من يقلّدونهم ليعتبروا بما حصل لهم، ويوازنوا بين من كفر ومن آمن منهم؛ فذكر أخبار نوح وقومه، وأنّ الله تعالى ناداه فأجابه هو ومن آمن معه، فنجّاهم وجعل ذرّيّتهم هم الباقين، وترك على نوح سلاماً في العالمين، وأغرق من كفر به فبادوا وذهبت آثارهم؛ ثمّ ذكر السّياق أخبار إبراهيم وقومه، وأنّه جلّ وعلا رفع شأنه على من كفر به منهم، ورزقه ذرّية صالحة مباركة، وترك عليه سلاماً باقياً في الآخرين؛ ثم ذكر السّياق أخبار موسى وهارون، وأنّه جلّ وعلا نجّاهما وقومهما من ظلم فرعون، وترك عليهما سلاماً باقياً في الآخرين؛ ثم ذكر السّياق أخبار إلياس وقومه، وأنّ إلْياسَ دعاهم إلى عبادة ربّهم وترك عبادة صنمهم بَعْل، فكذّبوه فاستحقّوا العذاب إلاّ من آمن منهم، فإنّ الله سبحانه نجّاهم وترك عليهم سلاماً في الآخرين؛ ثم ذكر السّياق أخبار لوط وقومه، وأخبار يُونُسَ وقومه؛ وذكر في يونس أنّ الله سبحانه أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون: ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾.

إبطال نبوة الملائكة والجن
الآيات [١٤٩ ـ ١٨٢]

ثم قال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩﴾ فأنكر عليهم أن يكون له بنات من الملائكة، وهم إنّما يرضون البنين لأنفسهم ويكرهون البنات؛ وذكر جلّ وعلا أنهم لم يشهدوا خلق الملائكة إناثاً حتّى يصحّ لهم أن يذهبوا إليه، وإنّما هو إفك لا دليل لهم عليه، ثمّ ذكر أنهم جعلوا بينه وبين الجِنَّةِ نسباً، وهم المجوس من العرب والفُرْس، وكانوا يقولون بإلٰهَيْنِ، إلهٍ للخير، وإلهٍ للشّرّ، وأنّ إله الخير هو الله، وإله الشرّ هو إبليس؛ ثم ردّ عليهم بأنّ الجِنَّةَ يعلمون أنهم عبادٌ مُحْضَرُون للعذاب، ونزّه نفسه سبحانه عمّا يصفونه به من النّسب بينه وبين الجِنَّةِ، وبيّن بُطْلانَ جَعْلِهِم الجن آلهة؛ وذكر سبحانه أنهم يعجزون عن إغواء المخلصين من عباده، ولا يغوون إلا من سبق في علم الله أن يكون من أهل الجحيم؛ ومن يكُن هذا شأنه لا يكون إلهاً؛ ثم ذكر سبحانه تفرّده بعلوّ الشأن فقال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾.

ثم خُتِمَتْ السّورة بتوبيخهم على شركهم، مع أنهم كانوا يقولون لو أنّ عندنا كتاباً منزّلاً مثل الكتب المنزّلة على الأوّلين لأخلصنا العبادة لله؛ ثم ذكر السياق تهديده سبحانه الكفّار على كفرهم بعد أن أجيبوا إلى قولهم؛ وذكر أنه جلّ شأنه كتب النصر لرسله وأتباعهم، وأمر النبي (ص) أن يعرض عنهم إلى أن يحين عذابهم، فسوف يبصرون منه ما يبصرون: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الصافات»(*)

أقول: هذه السورة بعد «يس» كـ «الأعراف» بعد «الأنعام»، وكـ «الشعراء» بعد «الفرقان»، في تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكهم، كما أنّ تَيْنَكَ السُّورَتَيْنِ تفصيلٌ لمثل ذلك، كما تقدَّم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

مكنونات سورة «الصافات»(*)

١ - ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾..

أخرج ابنُ أبي حاتم عن ابنِ مَسْعُود: أنَّ المُرادَ بالثلاثة الملائكة[1].

٢ - ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١﴾.

قال السُّدّيّ: هُما شَرِيكان في بني إسْرائيل: أَحَدُهما مُؤْمِنٌ، والآخَرُ كافِر. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

وفي «العجائب» للكَرماني: أنّهما يَهُوذا، وفُطْرُوس.

٣ - ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾.

إلى آخر القصة: فيه قَوْلان شهيران: إسماعيل أو إسحاق، وقد أفردتُ في ذلك تأليفاً ضَمَّنْتُهُ حُجَج كُلٍّ مِنَ القَوْلَيْن[2].

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) ورواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، وهو ضعيف. قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٩٨.

(٢) الذي عليه علماء السلف أنّ الذبيح هو إسماعيل؛ ويكفي دليلاً أنّ الله سبحانه وتعالى بعد أن أنهى قصة الذبيح قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الآية ١١٢]، فهذا يدلّ على أن إسحاق هو غير الذي انتهت قصته لتوّها، وقد أشار ابن كثير إلى هذا في «تفسيره» ٤/ ١٤.

وفي «زاد المعاد» لابن قيّم الجَوْزيّة ١/ ٧١: «وأما القول بأنّه إسحاق فباطل، بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميّة قدس الله روحه، يقول: هذا القول إنّما هو متلقّى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنصّ كتابهم، فإنّ فيه: إنّ الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ: وحيده، ولا يشكّ أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده: والذي غرّ أصحاب هذا القول أنّ في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق قال

﴿بِذِبْحٍ﴾ [الآية ١٠٧].

هو الكبش؛ الذي قرّبه ابن آدم فتُقُبِّلَ منه. أخرجه ابنُ أبي حاتِم عن ابن عبّاس. وأخرج عن الحسن: أن اسمه حرير.

﴿إِلْ يَاسِينَ ١٣٠﴾.

هُوَ مُحمّد (ص)، وآله: أقاربُه المُؤمِنُون من بني هاشِمٍ والمُطّلِب.

وقيل: كلُّ مُؤمِنٍ تَقِيٍّ.

وقيل: ﴿يَاسِينَ﴾ اسمُ كتابٍ من كُتُبِ الله. حكاه الكَرماني في «عجائبه».

٤ ـ ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ [الآية ١٤٢].

قال قَتادة: يُقال له لخم. أخرجه ابن أبي حاتم.

٥ ـ ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ [الآية ١٤٥].

قال جَعْفَر: بِشاطِئ دَجْلة. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

وقيل: بأرضِ اليمن. حكاه ابنُ كَثير.

٦ - ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾.

في حديث مرفوع: ﴿يَزِيدُونَ ١٤٧﴾: عشرين ألفاً[(١)]. أخرجه ابنُ أبي حاتم من حديث أُبَيّ بْنِ كَعْب.

وأخرجَ عن ابنِ عبّاس: ثلاثين ألفاً. وفي رواية: أربعين ألفاً[(٢)].

[أي ابن تيمية]: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم». ثمّ قال أيضاً: «وكيف يسوّغ أن يقال: «إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أمّ إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنّهم قالوا لإبراهيم لمّا أتوه بالبُشرى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ٧٠ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ٧١﴾ [هـود]، فمُحالٌ أن يُبشّرها بأنه يكون لها ولد، ثمّ يأمر بذبحه، ولا ريب في أن يعقوب (ع) داخل في البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في اللّفظ الواحد، وهذا ظاهر الكلام وسياقه». وأما مُصنّفُ السُّيُوطي الذي أورد فيه حُجَج كلّ من القولين، فهو: «القول الفصيح في تعيين الذبيح»، وقد ضمّنَهُ في كتابه «الحاوي للفتاوي» ١/ ٣١٨، ٣٢٢؛ وقال فيه بعد أن أورد حُجَج كلّ من القولين: «وكنت مِلْتُ إليه ـ يقصد أنّه مال إلى القول بأنّ الذبيح هو إسحاق ـ في علم التفسير، وأنا الآن متوقّف في ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم». انظر للوقوف على مزيد من التحقيق في هذه المسألة، إضافة للمراجع المذكورة أعلاه: «كشف الخفاء» لِلْعَجْلُوني في حديث رقم (٦٠٦)، و«جنى الجنتين في تمييز نوع المثنيين» لِلْمُحِبِّي ص ٥٠.

(١) والتِّرمِذي في «سننه» رقم (٣٢٢٧) في التفسير، وقال: هذا حديث غريب، والطَّبري في «تفسيره» ٢٢/ ٦٧.

(٢) انظر «تفسير الطَّبري» ٢٢/ ٦٦.

لغة التنزيل في سورة «الصافات»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴿١٤﴾﴾.

والاستِسخار: المبالغة في السُّخْرِيَة. أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴿٤٧﴾﴾.

الغَوْل: مصدر غاله يغوله، إذا أهلكه وأفسده.

أقول: لعلّ الغَوْل، وهو المصدر، قد أُخِذَ من كلمة «الغُول»، وهي من أوهام العرب وأباطيلهم!

والغريب أن جماعة من العرب في عصرنا، أطلقت «الغَوْل» على ما يُسمَّى في العلم الحديث المادة «الرّوحية» في المخدِّرات، التي أسموها: «الكحول»، وذلك توهّماً وخَطَأً. وكان ذلك بسبب أن كلمة «الغَول» قد وردت في هذه الآية، توصف بها الخمر في الجنّة، أي: أنّ خمرة الجنة لا تُهلك ولا تفسد العقول، كخمرة الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿يُنزَفُونَ﴿٤٧﴾﴾ بالبناء للمفعول من: نُزِفَ الشارب إذا ذهب عقله، ويقال للسُّكران: نَزِيفٌ ومنزوف.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴿٩٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ﴾، أي: فذهب إليها في خِفْية[1]، والأصل

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) ويقال أيضاً: «خُفْيَة» بضمّ الخاء.

رَوْغ الثعلب. وكذلك قوله سبحانه: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴿٩٣﴾﴾، أي: فأقبَلَ عليهم مستخفياً.

واستعمال «الجار والمجرور»: «عليهم» بعد «راغ» يشعرنا أنّ الفعل تضمّن معنى «ضَرَبَهم»، أو فراغ عليهم يضربهم ضرباً قوياً.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴿١٠٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾، أي: صرعه على شِقّه، فوقع أحد جَبينَيْهِ على الأرض، تواضُعاً على مباشرة الأمر بصبرٍ وجَلَدٍ، لِيُرْضِيا الرّحمٰن ويخزيا الشّيطان.

أقول: والفعل «تلّ» يؤدي في عصرنا معنى جذب بقوّة.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴿١٤٢﴾﴾.

والمُليم: الداخل في الملامة، ويقال: رُبَّ لائم مُليم، أي: يلوم غيره، وهو أحق منه باللوم.

أقول: ونحن محتاجون الى الفعل «ألام» في عربيّتنا المعاصرة، لأننا نعبر عن معناه بجملة لايضاح ما نريد: أن فلاناً مثلاً، أحقّ باللوم قبل أن يلوم غيره.

المعاني اللغوية في سورة «الصافات»(*)

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ٥] على «إنَّ إلَهَكُمْ رَبُّ» ونَصَبَ بعضُهم ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الآية ٥] ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴿٥﴾﴾ فجعله صفة للاسم الذي وقعت عليه «إنَّ»، والأوّل أجوَد، لأنّ الأوّل في هذا المعنى، وهو متناول بعيد في التفسير.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الآية ٦] بجعل «الكواكب» بدلاً من «الزّينة» وبعضهم قرأ: (بِزِينةِ الكواكبِ) وليس يعني بعضها، ولكن زينتها حسنها.

وورد قوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا﴾ [الآية ٧] بالنصب، باعتباره بدلاً من اللفظ بالفعل، كأنّ السّياق: «وَحَفِظْنَاهَا حِفْظاً».

وقال تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴿٥٢﴾﴾ وثقّل بعضهم، وليس للتثقيل معنًى، إنّما معنى التثقيل «المُتَصَدِّقِين» وليس هذا بذاك المعنى. انّما معنى هذا من «التّصْدِيق» وليس من «التَصَدُّقِ»، وانّما تضعّف هذه ويخفّف ما سواها، «والصَّدَقَةُ» تُضَعّف صادُها، وتلك غير هذه. إنّما سُئِل رجل: مَنْ صاحِبُهُ؟ فحكى عن قرينه في الدّنيا، فقال كما ورد في التنزيل: ﴿كَانَ لِى قَرِينٌ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴿٥٢﴾﴾ إنّا لَنُبْعَثُ بعد الموت. أي: أتؤمن بهذا؟ أي: تُصدّق بهذا.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

وقال تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣﴾ تقول: «أَكَبَّهُ لِوَجْهِهِ» و «أَكْبَبْتُهُ لِوَجْهِه» لأنه في المعنى شبه «أَقْصَيْتُهُ».

وقال تعالى: ﴿مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾ يقول: كانوا كذلك عندكم.

لكل سؤال جواب في سورة «الصافات»(*)

إنْ قيل: لِمَ جَمَعَ تعالى لفظ «المشارق» هنا، وثنّاهما في سورة الرّحمٰن، ولِمَ اقتصر هنا على ذكر «المشارق»، وذكر ثَمّةَ المَغْرِبَيْنِ أيضاً، وذكر المغارب مع المشارق، مَجْمُوعَيْن في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج/٤٠] وذكرهما مفردين في قوله تعالى ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢٨﴾ [الشعراء]؟

قلنا: لأنّ القرآن نزل بلغة العرب على المعهود من أساليب كلامهم وفنونه، ومن أساليب كلامهم وفنونه: الإجمال والتفصيل والبسط والإيجاز، فأجمل تارة بقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ۝١٧﴾ [الرحمن] أراد مَشرِقَي الصّيف والشتاء، ومغربيهما على الإجمال؛ وفصّل تارةً بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج/٤٠] أراد جمع مشارق السنة ومغاربها، وهي تزيد على سبعمائة؛ وبسّط مرّة، بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج/٤٠]، وأوجز واختصر مرّة بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ [الآية ٥] لدلالة المذكور، وهي المشارق، على المحذوف، وهي المغارب، وكانت المشارق أولى بالذكر لأنها أشرف؛ إمّا لكون الشروق سابقاً في الوجود على الغروب، أو لأنّ المشارق منبع الأنوار والأضواء.

فإن قيل: لِمَ خصّ سبحانه وتعالى سماء الدنيا، بقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ مع أنّ غير سماء الدنيا مزيّنة بالكواكب أيضاً؟

قلنا: إنّما خَصّها بالذِّكرِ لأنّا نحن نرى سماء الدنيا لا غير.

فإن قيل: لِمَ مدح سبحانه نوحاً (ع) بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١﴾ مع أنّ مرتبة الرُّسُلِ فوق مرتبة المؤمنين؟

قلنا: إنّما مدحه بذلك، تنبيهاً لنا على جلالة محلّ الإيمان وشرفه، وترغيباً في تحصيله والثبات عليه، والازدياد منه، كما قال تعالى في مدح إبراهيم (ع): ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٢٧﴾.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨﴾ والنّظر إنّما يعدّى بإلى، قال الله تعالى ﴿وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعراف/١٤٣] وقال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [الروم/٥٠].

قلنا: «في» هنا بمعنى «إلى» كما في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم/٩] الثاني: أنّ المراد به، نظر الفكر لا نظر العين، ونَظَرُ الفكر إنّما يُعَدّى بفي؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف/١٨٥] فصار المعنى ففكّر في علم النجوم أو في حال النجوم.

فإن قيل: لِمَ استجاز إبراهيم (ع) أن يقول، كما ورد في التنزيل: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ ولم يكن سقيماً؟

قلنا: معناه سَأَسْقُمُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر/٣٠] فهو من معاريض الكلام، قاله ليتخلّف عنهم إذا خرجوا إلى عيدهم، فيكيد أصنامهم. وقال ابن الأنباري: أَعْلَمَهُ الله تعالى أنه يمتحنه بالسُّقْمِ إذا طلع نجم كذا، فلمّا رآه علم أنه سيسقم. وقيل معناه: إنّي سقيم القلب عليكم، إذا عبدتم الأصنام، وتكهّنتم بنجوم لا تضرّ ولا تنفع. وقيل إنه عرض له مرض، وكان سقيماً حقيقة. وقال الزّمخشري: قد جوّز بعض الناس الكذب في المكيدة في الحرب، والتقيّة، وإرضاء الزوج، والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين. قال: والصحيح أن الكذب حرام إلاّ إذا عرّض وورّى؛ وإبراهيم صلوات الله عليه، عرّض بقوله وورّى، فإنه أراد أنّ من في عنقه الموت سقيم، كما قيل في المثل «كفى بالسلامة داء»؛ وقال لبيد:

ودعوتُ ربّي بالسّلامَةِ جاهِداً

لِيُـصِـحَّـنـي فـإذا الـسـلامـةُ داءُ

ورُوي أن رجلاً مات فجأة، فاجتمع عليه الناس وقالوا مات وهو صحيح، فقال أعرابي: أصحيحٌ مَن الموتُ في عنقه؟

فإن قيل: لم لا يجوز النظر في علم النجوم، مع أنّ إبراهيم (ع) قد نظر فيه، وحكم منه؟

قلنا: ليس المنجّم كإبراهيم (ع)، في أن الله تعالى أراه ملكوت السموات والأرض؛ فأبيح له النظر في علم النجوم والحكم منه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي يسرعون، يدلّ على أنهم عرفوا أنّه هو الكاسر لها؛ وقوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾ [الأنبياء/٥٩]، وما بعده يدلّ على أنّهم ما عرفوا أنّه الكاسر، فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: يجوز أن يكون الذي عرفه وزفّ إليه بعضهم، والذي جهله وسأل عنه بعض آخر؛ ويجوز أن الكلّ جهلوه وسألوا عنه، فلما عرفوا أنه الكاسر لها زفّوا إليه كلّهم.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى على لسان ابراهيم صلوات الله عليه ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الآية ٩٩].

قلنا: معناه إلى حيث أمرني ربّي بالمهاجرة، وهو الشام. وقيل: إلى طاعة ربّي ورضاه. وقيل: إلى أرض ربّي؛ وإنّما خصّها بالإضافة إلى الله تعالى، تشريفاً لها وتفضيلاً، لأنّها أرض مقدّسة مبارك فيها للعالمين، كما في قوله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن/١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان/ ٦٣].

فإن قيل: ما المقصود بقوله تعالى: ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ وهو كان مهتدياً؟

قلنا: المقصود: سيثبّتني على ما أنا عليه من الهدى، ويزيدني هُدًى. وقيل: ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ إلى الجنّة. وقيل إلى الصّواب في جميع أحوالي. ونظيره قول موسى عليه الصلاة والسلام، كما ورد في التنزيل: ﴿كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء].

فإن قيل: كيف شاور إبراهيم ولده، عليهما السلام، في ذبحه بقوله كما نصّ القرآن: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الآية ١٠٢]، مع أنه كان حتماً على إبراهيم،

لأنه أُمِرَ به، لأنّ معنى قول إبراهيم (ع) كما ورد في التنزيل ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الآية ١٠٢]: أنّه أُمِرَ بذبحه في المنام، ورؤيا الأنبياء حقّ؛ فإذا رأوا شيئاً في المنام، فعلوه في اليقظة، كذا قاله قتادة؛ والدليل على أنّ منامه كان وَحْياً بالأمر بالذبح، قوله تعالى حكايةً على لسانِ ولد ابراهيم (ع): ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الآية ١٠٢]؟

قلنا: لم يشاوره ليرجع إلى رأيه في ذلك، ولكن ليعلم ما عنده من الصّبر، فيما نزل به من بلاء الله تعالى، فيثبّت قَدَمَهُ إنْ جزع، ويأمن عليه الزّلل إن صبر وسلم، وليعلم القصّة فيوطن نفسه على الذّبح، ويهوّنه عليها، فيلقى البلاء وهو كالمستأنس به، ويكتسب الثواب بالانقياد والصبر لأمر الله تعالى قبل نزوله، وليكون سنّة في المشاورة؛ فقد قيل لو شاور آدم الملائكة في أكل الشجرة، لما فَرَطَ منه ذلك.

فإن قيل: لِمَ قيل له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الآية ١٠٥] وإنّما يكون مصدّقاً لها، لو وُجِدَ منه الذّبح، ولم يوجد؟

قلنا: معناه قد فعلت غاية ما في وسعك، ممّا يفعله الذابح، من إلقاء ولدك، وإمرار الشفرة على حلقه؛ ولكنّ الله تعالى منع الشفرة أن تقطع. وقيل: إنّ الذي رآه في المنام معالجة الذبح فقط، لا إراقة الدم؛ وقد فعل ذلك في اليقظة، فكان مصدّقاً للرؤيا.

فإن قيل: أين جواب «لمّا» في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ [الآية ١٠٣]؟

قلنا: قيل هو محذوف تقديره: استبشرا، واغتبطا، وشكرا الله تعالى على ما أنعم به عليهما من الفداء؛ أو تقديره: سَعَدَا، أو أجزل ثوابهما. وقيل الجواب هو قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ [الآية ١٠٤] والواو زائدة كما في قول امرئ القيس:

فلمّا أجزنَا ساحةَ الحيِّ وانتحى
بنا بَطْنُ خَبْتٍ ذي قِفافٍ عَقَنْقَلِ

أي فلمّا أجزنا ساحة الحي انتحى، كذا نقله ابن الأنباري في شرحه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في قصة إبراهيم (ع): ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ١١٠﴾ وفي غيرها من القصص قبلها وبعدها: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ٨٠﴾.

قلنا: لمّا سبق في قصة إبراهيم (ع) مرة: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ٨٠﴾ طرحه في الثاني تخفيفاً واختصاراً

، واكتفاء بذكره مرّة، بخلاف سائر القصص.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ وهو كان من المرسلين، قبل زمان التنجية؟

قلنا: قوله تعالى ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ﴾ [الآية ١٣٤] لا يتعلّق بما قبله، بل يتعلّق بمحذوف تقديره: واذكر لهم يا محمّد، إذ نجّيناه أو أنعمنا عليه إذ نجّيناه، وكذا السؤال في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ و«أو» كلمة شكّ، والشكّ على الله محال؟

قلنا: قيل «أو» هنا بمعنى «بل»، فلا شكّ؛ وقيل بمعنى «الواو» كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء/٤٣] وقوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ [المرسلات] وقيل معناه، أو يزيدون في تقديركم، فلو رآهم أحَدٌ منكم لقال: هم مِائة ألف أو يزيدون، فالشّكّ إنّما دخل في حكاية قول المخلوقين، ونظيره قوله تعالى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم].

فإن قيل: ما الحكمة في تكرار الأمر بالتولية والإبصار، في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

قلنا: الحكمة تأكيد التهديد والوعيد.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ [الآية ١٧٥] ثمّ قال ثانيا: ﴿وَأَبْصِرْ﴾ [الآية ١٧٩]؟

قلنا: طُرِحَ ضمير المفعول تخفيفاً واختصاراً واكتفاءً بسبق ذكره مرّة؛ وقيل معنى الأوّل: وأبْصِرْهُمْ إذا نزل بهم العذاب، ومعنى الثاني: وأبْصِرِ العذاب إذا نزل بهم، فلا فرق بينهما في المعنى.

المعاني المجازية في سورة «الصافات»(*)

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ هذه استعارة. والمراد بالقاصرات الطَّرْف هٰهنا: اللواتي جَعَلْنَ نَظَرَهُنَّ مقصوراً على أزواجهنَّ. أي حَبَسْنَ النَّظَر عليهم، فلا يَتَعَدَّيْنَهُمْ إلى غيرهم. وجيء بذكر الطَّرف على طريق المجاز. وإلاّ فحقيقة المعنى أنهنَّ حَبَسْنَ الأنفسَ على الأزواج عِفَّةً ودِيناً، وخُلُقاً وصَوْناً.

وإنّما وقعت الكناية عن هذا المعنى بِقَصْرِ الطَّرْف، لأنّ طِماحَ الأعْيُنِ في الأكثر يكون سبباً لتتبُّع النفوس وتطرُّب القلوب، وعلى هذا قول الشاعر:

وَإِنَّكَ إِنْ أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً
لِقَلْبِكَ يوماً أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ(١)

والطَّرْفُ هٰهنا واحدٌ في تأويل

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) البيت هو أحد بيتين أنشدتهما امرأة أمام أبي الفضل الأعرابي، وكان قد خرج حاجّاً، فمرّ بقباء، وإذا جارية كأنّ وجهها سيف صقيل. والقصة كاملة في الجزء الرابع من «عيون الأخبار» لابن قتيبة، ص٢٢. وفي «شرح شواهد الكشّاف» للعلامة مُحِبّ الدّين ص ١٣٤ أنّه من أبيات «الحماسة» وفي «شرح الحماسة» للمرزوقي جـ ٣ ص ١٢٣٨، لم يذكر اسم قائله؛ وإنما اكتفى بقوله: وقال آخر. ولم يتعرّض العلاّمة المرزوقي لتحقيق اسم هذا الشاعر أو الشاعرة، وإنما اكتفى بشرح البيتين شرحاً أدبياً. وهما:

وكنتَ إذا أرسلتَ طَرْفَكَ رائداً ... لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ المناظِرُ
رأيتَ الذي لا كُلُّه أنتَ قادِرٌ ... عليهِ، ولا عَنْ بَعْضِهِ أنتَ صابِرُ

الجميع، ونظيره قوله سبحانه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة/ ٧].	أي على أسماعهم، أو مواضع استماعهم.

سورة صٓ

٣٨

أهداف سورة «ص»(*)

سورة ص سورة مكية نزلت في الفترة المتوسّطة من حياة المسلمين بمكة، بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، وآياتها ٨٨ آية، وسُميت ص لابتدائها بهذا الحرف.

مقاصد السورة

قال الفيروزآبادي: «معظم المقصود من سورة ص: بيان تعجّب الكفّار من نبوّة المصطفى (ص) ووصف الكافرين لرسول الله بالاختلاق والافتراء، واختصاص الحقّ تعالى بملك الأرض والسماء، وظهور أحوال يوم القضاء، وعجائب حديث داود وأوريا، وقصة سليمان، وذكر أيوب في الابتلاء والشفاء، وذكر إبراهيم وأولاده من الأنبياء، وحكاية أحوال ساكني جنة المأوى، وعجز حال الأشقياء في سقر ولظى، وواقعة إبليس مع آدم وحواء، وتهديد الكفار على تكذيبهم للمجتبى» قال تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

قضايا السورة

أثارت سورة ص عدداً من القضايا أهمها قضية التوحيد، وقضية الوحي، وقضية الحساب في الآخرة، وقد عُرضت هذه القضايا الثلاث في مطلعها، الذي يمثل الدهشة والاستغراب من كبار المشركين في مكة، حين جاءهم محمد (ص)

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

يدعوهم إلى التوحيد، وساقت السورة شُبُهات الكافرين حول قضية الوحي.

فقد استكثروا أن يختار الله سبحانه رجلاً منهم لِيُنْزل عليه الذكر من بينهم، وأن هذا الرجل هو محمد بن عبد الله الذي لم تسبق له رئاسة فيهم، ولا إمارة فقالوا كما ورد في التنزيل:

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ [الآية ٨].

وبيّنت السورة لهم، أنّ رحمة الله لا يمسكها شيء، إذا أراد أن يفتحها على من يشاء، وأنه ليس للبشر شيء من مُلْك السماوات والأرض، وإنّما يفتح الله رزقه ورحمته على من يشاء، وأنه يختار من عباده من يعلم استحقاقهم للخير، ويُنْعم عليهم بشتى الإنعامات، بلا قيد ولا حدّ ولا حساب. في هذا السياق جاء تسخير الجبال والطير، وتسخير الجن والريح، فوق الملك وخزائن الأرض والسلطان والمتاع، وجاء مع القصّتين توجيه النبي (ص) إلى الصبر على ما يلقاه من المكذِّبين:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧﴾.

كذلك جاءت قصة أيوب (ع) تصور ابتلاء الله سبحانه للمخلصين من عباده بالضّرّاء، وصَبْرُ أيوب (ع) مَثَلٌ في الصبر رفيع؛ وتُصَور السورة حسن العاقبة للصابرين.

ونلاحظ أن السياق، في سورة ص، يربط بين أربعة موضوعات رئيسة: هي شُبُهات الكافرين، وقصص الأنبياء، والمقابلة بين نعيم المتقين وعذاب الكافرين، ثم قصة خلق آدم (ع) وسجود الملائكة له وإباء إبليس.

١ ـ شبهات الكافرين

تشتمل الآيات [١ ـ ١٦] على شبهات الكافرين حول بَشَرِيَّة الرسول، واختصاصه بالوحي، وإنكار توحيد الآلهة في إله واحد، والرد على هذه المفتريات، وبيان جزاء المكذِّبين، من قوم نوح وعاد وفرعون وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾.

٢ ـ قصص الأنبياء

تشتمل الآيات [١٧ ـ ٤٨] على قَصَص وأمثلة من حياة الرسل صلوات الله عليهم.

وفي هذا القِصَص بيانٌ لآثار رحمة

الله بالرسل من قبل، وتذكير بما أغدق الله عليهم من نعمة وفضل، وبما آتاهم من ملك وسلطان ومن رعاية وإنعام، وذلك رداً على عجب الكافرين من اختيار الله لمحمد (ص) رسولاً من بينهم، وما هو ببِدْعٍ من الرسل، وفيهم من آتاه الله سبحانه إلى جانب الرسالة المُلْك والسلطان، وفيهم من سخّر له الجبال يُسَبِّحن معه والطير، وفيهم من سخّر الله تعالى له الريحَ والشياطين، كداود وسليمان (ع). فما وجه العجب أن يختار الله جلّ وعلا محمداً (ص) الصادق، لينزل عليه الذكر من بين قريش في آخر الزمان.

كذلك يصور هذا القَصَص رعاية الله تعالى الدائمة لرسله، وإحاطتهم بتوجيهه وتأديبه فقد كانوا بشراً، كما أن محمد (ص) بشر، وكان فيهم ضعف البشر، وكان الله سبحانه يرعاهم فلا يدعهم لضعفهم ولكن يبين لهم ويوجههم، ويبتليهم ليغفر لهم ويكرمهم، وفي هذا ما يُطَمْئِن قلب الرسول إلى رعاية ربه له، وحمايته له من أذى المشركين؛ وفي تلك القِصَص سلوى ومواساة لما لَقِيَهُ النبي من تكذيب واتهام وافتراء، وفيه دعوة إلى الصبر حتى ينال رضوان الله، كما ناله السابقون من الأنبياء.

٣ ـ النعيم والجحيم

تعرض الآيات [٤٩ ـ ٦٤] مشهد المؤمنين في الجنة، وقد فُتِحَتْ أبوابُها، وجرت أنهارها، وكَثُرَ حُورُها ووِلْدانها، وتنوّعتْ أرزاقها:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

كما تعرض مشهد الطاغين في النار، وقد اشتد لهيبها وتنوّع عذابها، واختصم الأتباع والرؤساء فيها، وأخذوا يبحثون عن ضعفاء المؤمنين بينهم فلا يجدونهم في النار، لأن هؤلاء الضعفاء في الجنة والرضوان.

سجود الملائكة لآدم

تشتمل الآيات الممتدة من الآية ٦٥ إلى آخر السورة، على تأكيد وحدانية الله تعالى، وشمول قدرته وملكه في السموات والأرض.

وتستعرض قصة آدم (ع) وسجود الملائكة له، كدليل على أن هؤلاء الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ كما تتضمّن القصة لوناً من الحسد في نفس

الشيطان، وهو الذي أبعده الله عن رحمته، وطرَدَه من جنَّته، حينما استكثر على آدم فضل الله الذي أعطاه؛ وفي هذا إيحاء لهم ألا يستكثروا على محمد (ص) فضل الرسالة وتبليغ وحي السماء. كذلك تُصوِّر الآيات المعركة المستمرة بين الشيطان وأبناء آدم، والتي لا يهدأ أوارُها، ولا تَضَعُ أوزارَها، والتي يهدف من ورائها إلى إيقاع أكبر عدد منهم في حبائله، لإيرادهم النار معه، انتقاماً من أبيهم آدم. وقد كان طَرْدُ إبليس من الجنة بسبب امتناعه عن السجود له، فالمعركة بين إبليس وذرية آدم معروفة الأهداف، ولكن أبناء آدم يستسلمون لعدوهم القديم.

وتُختم السورة بتوكيد قضية الوحي، وإخلاص الرسول في تبليغ الرسالة، لا يبتغي أجراً ولا يتكلَّف قولا؛ وإنما يبلِّغ القرآن، وسيكون لهذا القرآن أبلغ الأثر في حياة البشرية.

ترابط الآيات في سورة «ص»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «ص» بعد سورة «القمر» وقبل سورة «الأعراف»، ونزلت سورة «الأعراف» بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، فيكون نزول سورة «ص» في هذا التاريخ أيضاً.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لابتدائها بالقَسَم به، وتبلغ آياتها ثماني وثمانين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة إنذار الكافرين بعذاب الدنيا والآخرة، وقد ابتدأت بإثباته بالقَسَم عليه، وبالقياس على مَنْ أُهلك قبلهم من الأمم؛ ثم أمر النبي (ص) بالصبر على طلبهم تعجيله استهزاءً به، وقُصَّ عليه في ذلك قِصَصُ مَنْ صَبَرَ قبله من الأنبياء، ثم ذكر ما يكون إليه المآب بعد هلاكهم؛ ثم خُتمت السورة بالعود إلى تأكيد ذلك الإنذار، ليكون ختامها مناسباً لابتدائها فيرتبط آخرها بأولها؛ وهي، في هذا، تشبه السورة السابقة فيما أنذر به فيها، وهذا هو وجه ذكرها بعدها.

إنذار الكفار بعقاب الدنيا والآخرة
الآيات [١ ـ ٧٠]

قال الله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

وَشِقَاقٍ﴿٢﴾﴾ فأقسم بذلك أنهم سيعاقبون على كفرهم في الدنيا والآخرة، ولكنهم في غفلة عن هذا وشقاق، وكم أهلك من قبلهم من الكفّار، فنادوا وَلاَتَ حينَ مناص؛ ثم ذكر سبحانه أنهم تعجبوا من أن ينذرهم بذلك واحد منهم، ومن أن يدعو إلى التوحيد وإبطال الآلهة، وهذا يخالف الملّة الآخرة (النصرانية) التي تجعل الآلهة ثلاثة؛ ثم ذكر إنكارهم أن يختص بذلك دونهم وهو لا يمتاز بشيء عليهم؛ ورد عليهم بأن ذلك يرجع إلى اختياره بمقتضى رحمته، ولا شريك له فيما يملكه من أمر سماواته وأرضه، فإن ادُّعوا لهم مُلْكاً في ذلك فليرتقوا في الأسباب: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴿١١﴾﴾.

ثم ذكر جلّ وعلا أنه قد كَذَّب قبلهم من كان أقوى منهم من قوم نوح وعاد وفرعون فعاقبهم وأهلكهم، وسيكون مصيرهم مثلهم. ثم ذكر أنهم طلبوا تعجيل هذا العذاب استهزاءً، وأَمَر النبي (ص) أن يصبر على استهزائهم، ويذكر ما كان من أمر الرسل قبله ليعتبر بما كان منهم؛ وقد ذَكَر له في ذلك أخبار داود وسليمان وأيُّوبَ وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل والْيَسَعَ وذي الكفل(عليهم السلام)، وفصَّل في بعضهم ما فصَّله من أخبارهم، وأجمل في بعضهم ما أجمله من أمرهم، ليحمله على ما أمره به من الصبر على قومه. ثم لَفَت إلى أمر آخر يحمله أيضاً على الصبر عليهم، وهو ما أَعَدَّه سبحانه للمتقين والطاغين من حسن المآب للأولين وشَرّه للآخرين، وقد فَصَّل فيهما ما فصل من أحوالهما، وذَكَر في الثاني ما يكون من التخاصم بين أهل النار وخَزَنَتِها، ثم ختم ذلك كله بتأكيد ما بدأ به من الإنذار، فقال جلّ وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَآ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴿٦٥﴾﴾ فإذا أراد إهلاكهم لم يمنعه غيره من آلهتهم؛ ثم ذَكَر السياق على لسان الرسول أن ما ينذرهم به نبأ عظيم لا كذب فيه، وأيّد ذلك بأن ما ذكره من ذلك التخاصم بين أهل النار وخزنتهم، لم يكن للرسول به علم إذ يختصمون: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴿٧٠﴾﴾.

العهد القديم بعقاب الكافرين
الآيات [٧١ ـ ٨٨]

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ

إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾، فذكر قصة خَلْق آدم وأَمْرِه الملائكة بالسجود له، وأنهم أطاعوه إلا إبليس لعنه الله؛ وأنه عاقبه على ذلك بإخراجه من الجنة، وأنه عَهِدَ، وعَهْدُهُ الحَقُّ، أن يملأ جهنّم منه وممّن تبعه من الكافرين؛ ثم خَتَم السورة بأنه لا يسألهم على هذا الإنذار من أجر، ولا يكلّفهم منه مالا يطيقون: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «ص»(*)

أقول: هذه السورة بعد «الصافات»، كـ «طس» بعد «الشعراء»، وكـ «طه» و«الأنبياء» بعد «مريم»، وكـ «يوسف» بعد «هود»، في كونها متمّمة لها بذكر من بقي من الأنبياء، ممّن لم يُذكروا فيها؛ فإنه سبحانه ذَكَر، في الصافات، نوحاً، وإبراهيم والذبيح، وموسى، وهارون ولوطاً، وإلياس، ويونس. وذَكَر، هنا، داود، وسليمان، وأيوب، وأشار إلى بقية من ذَكَرَ، فهي بعدها أشبه شيءٍ «بالأنبياء»، و«طس» بعد «مريم» و«الشعراء».

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

مكنونات سورة «ص»(*)

١ ـ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ [الآية ٦].

قال مُجاهِد: أي عُقْبة بن أبي مُعَيْط.

زاد السُّدِّي: وأبو جَهْل، والعاصي بن وائل، والأسْوَد بن المُطَّلِب، والأسْوَد بن يَغُوث. أخرجهما ابنُ أبي حاتِم.

٢ ـ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ [الآية ٧].

قال محمد بنُ كعب: يعني مِلَّة عيسى (ع).

وقال مُجاهِد: مِلَّة قُرَيش[1]. وأخرجهما ابنُ أبي حاتم[2].

٣ ـ ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [الآية ١٦].

قال قَتادة: قال ذلك أبو جهل. أخرجه ابنُ أبي حاتم[3].

وقال عطاء: النَّضْرُ بْنُ الحارث. أخرجه عبد بن حميد.

٤ ـ ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [الآية ٢١].

هما مَلَكان. أخرجَهُ ابنُ أبي حاتِم مِنْ حديث أنَس بن مالك مرفوعاً بسند ضعيف، ومن حديث ابنِ عبّاس

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفحِمات الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) وفي رواية مُسَدَّد، كما في «المطالب العالية» ٣/ ٣٦٣، عن مجاهد أن الملّة هي النصرانية. وانظر «تفسير ابن كثير» ٤/ ٢٨، و «سنن الترمذي» ٨/ ٣٦١.

(٢) والطبري في «تفسيره» ٢٣/ ٨٠.

(٣) و«الطبري» ٢٣/ ٨٥. ونقلاً عن «غريب القرآن» أن القطّ واحد القطوط وهي الكتب بالجوائز.

موقوفاً، وسمّاهما: جبريل، وميكائيل.

٥ ـ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

أخرج ابنُ أبي حاتِم عنْ إبراهيمَ التَّيمِي[١]: أنها عشرُونَ ألف فرس.

٦ ـ ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [الآية ٣٤].

قال ابنُ عباس: هو الشَّيطان. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

وأخرج عَن قتادة: أنه مارِدٌ يقال له: أسيد.

وأخرج من طريق علي، عن ابن عباس: أنّه صخْر الجِنّي وعن السُّدّي: أنه شيطان اسمه: حقيق.

وروى عبدُ الرزاق، عن مُجَاهد: أنّ اسمه آصَف.

وروى ابنُ جرير عنه: أن اسمه آصر.

٧ ـ ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الآية ٤١].

قال نَوْف البِكالي[٢]. الشيطان الذي مسَّ أيوبَ يقالُ لَهُ: مسعط. أخرجه ابن أبي حاتم.

٨ ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ [الآية ٦٢].

قائِلُ ذلك: أبو جهل، وسُمِّي مِنَ الرِّجال: عمارُ بنُ [ياسر] وبلال، وصُهَيب، وخبَّاب. أخرج ذلك ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، عن مجاهد.

---

(١) إبراهيم بن يزيد التيمي، عابد، صابر. ثقة روى عن أنس رضي الله عنه، وتوفي نحو (٩٤)هـ.

(٢) نوف البكالي بكسر الباء وفتحها نسبة الى بكال بطن من حِمْيَر، تابعيّ من أهل دمشق فاضل، عالم، لا سيّما بالقصص والإسرئيليات. ترجمه الحافظ في «التهذيب»، وانظر تعليق الدكتور نور الدين عتر على كتاب «الرحلة في طلب الحديث» للخطيب البغدادي ص ٩٧.

لغة التنزيل في سورة «ص»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾.

قالوا في «لات»:

هي لا المشبهة بـ «ليس» زيدت عليها تاء التأنيث، كما زيدت على «رُبّ» و«ثُمّ» للتوكيد.

وتَغَيَّر بذلك حُكْمها حيث لم تَدْخل إلاّ على الأحيان، ولم يبرز إلا أحدُ مُقتَضَيَيْها، إمّا الاسم وإمّا الخبر، وامتنع بروزهما جميعاً.

هذا مذهب الخليل، وتَبِعه سيبويه.

وعند الأخفش أنها «لا» النافية للجنس زيدت عليها التاء، وخُصَّت بنفي الأحيان.

هذا مجمل كلام ليس لنا أن نقبله بيُسر، فما معنى قولهم إنّ «التاء» للتأنيث، وتاء التأنيث ساكنة مع الفعل، ومحركة بالحركات مع الاسم. وما معنى قولهم: إنها للتوكيد؟ وهل كل زيادة توكيد؟ وما معنى التوكيد؟

وما المؤكَّد في ذلك؟ وإذا كانت للتأنيث فكيف يراد التوكيد؟ وما رأينا تاءَ للتأنيث تفيد التوكيد!

وهل التاء في «رُبَّتَ» و «ثُمَّتَ» المفتوحتان للتأنيث والتوكيد؟

وأما اختصاصها بنفي الأحيان، فهذا قائم لأنها سمعت كذلك في لغة العرب.

ولعلّنا نستطيع أن نقول شيئاً آخر في هذه التاء.

ومن ذلك تَصَوُّرنا أن هذه «التاء» هي شيء من «ايت» السريانية. و«ايت»

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

السريانية هذه تَعْني «ايش» أي: الشيء في العربية. وقد ركبت مع «لا» فصارت «لا ايت»، ثم خُفِّفت فصار «لاتَ»، واستعملت استعمالاً خاصّاً.

وهي نظير «ليس» التي قال الخليل بتركيبها من «لا أيس» أي: لا وجود. وكنا قد شرحنا هذا الشيء بتفصيلٍ في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه/ ١٠].

ولنعد إلى «لات» لنقول: إن «ايت» بمعنى «شيء» بقي شيء منها في العربية، وذلك في مادة «أثث». وإذا رجعنا إلى «أثاث» و«أثاثة» في المعجم، وَجَدنا أن عموم الدلالة فيهما يشير إلى أنها مطلق الشيء، ومن غير تخصيص، ثم جاء الاستعمال فقيّد وخصّص وصَرَفَها إلى أشياء معيّنة.

وقد بقي لنا أن نقول: إن العرب ربما أدخلوا على «حين» التاء وقالوا: لات حين بمعنى ليس حين.

وأما قول أبي وجزة:

العاطفونَ تَحينَ ما من عاطفٍ
والمُفْضِلونَ يَداً إذا ما أنعموا

فقال ابن سِيدَه: قيل إنه أراد «العاطفون» مثل «القائمون» و«القاعدون»، ثم زاد التاء في «حين» كما زادها الآخر في قوله:

نَوِّلي قبل نأْيِ داري جُمانا
وصِلينا كما زَعَمتِ تَلانا

أراد الآن، فزاد التاء، وألقى حركة الهمزة على ما قبلها.

أقول: هذا قول المتقدّمين في كلمة «حين»، وزيادة التاء في أولها. وعلى هذا يكون قولنا: «لات حين» من باب نفي «تحين» بـ «لا» قبلها.

وأرى أن هذا المنقول من كلامهم قد يُشعرنا أن «للتاء»، في لغة قديمة، ما للألف واللام في أول الاسم، ولعل هذا شيء مما ورثته العربية من اللغات التي سبقتها!

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴿١٦﴾﴾.

والقِطُّ: القِسْطُ من الشيء، لأنه قطعة منه.

أقول: القِطُّ هو القِسْم، أي: القطعة، وهو من الفعل، قَطَّ يقُطُّ أي: قَطَعَ يَقْطَعُ. والمصدر القَطُّ على فَعْل.

وقد أشرنا إلى كثير من المصادر الثلاثية على «فعْل»، أن الاسم منها يكون بكسر الفاء كالسِّقط والنِّقض

والكِسر والمِسْخ، وكله بكسر الفاء وسكون العين. وعلى هذا يكون «القِطّ» القِسْم، أي القِسْط الذي أرادوه.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [الآية ١٧].

قلنا: إن العربية قد أفادت من أعضاء الجسم في توليد المواد المفيدة، وفي هذه الآية «الأيد»، وهو مصدر بمعنى القوة من «اليد» عضو الإنسان، وهكذا أُخِذَ من الضلع والعظم والسن وغيرها فوائد عدة.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾.

أريد أن أنبه إلى أن الخصم، وإن كان مفرداً في لفظه، فإنه يدل على الجمع في معناه، والآية شاهد.

وانظر: الآية التاسعة عشرة من سورة الحج.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴿٢٣﴾﴾.

والمعنى: وغَلَبَني.

أقول: وهذا من معاني «عزّ» النادرة التي لا نعرفها في عصرنا.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴿٢٤﴾﴾ [الآية ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴿٢٤﴾﴾ للإبهام، وفيه تعجب من قلّتهم، و«ما» زائدة.

أقول وزيادة «ما» هذه رشحت للتركيب الجميل للإبهام والتعجب من قلّتهم.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴿٤١﴾﴾.

والنُّصْب قد يقرأ بفتح النون مع سكون الصاد، وبفتحهما وضمهما كالرُّشد والرَّشَد. والنُّصْب هو البلاء والشرّ.

وقد نَبَّهتُ على هذا، لأننا لا نعرف من هذه الكلمة إلا النَصَب، بفتحتين وهو التعب.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [الآية ٤٢].

والمعنى: وادفع برجْلك الأرض.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [الآية ٦٣].

أقول: والسُّخْرِيَة والسُّخْرِيُّ والسِّخْرِيُّ كله بمعنى مصدر سَخَر كالسُّخْر.

المعاني اللغوية في سورة «ص»(*)

قال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ فيزعمون أنّ موضع القسم هو في قوله سبحانه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾.

وقال تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣﴾ فشبهوا (لاتَ) بـ (ليس) وأضمروا فيها اسم الفاعل ولا تكون (لاتَ) إلاّ مع «حِين» وقرأ بعضهم بالرفع ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾ فجعله في قوله مثل (ليسَ) كأن السياق «ليس أحَدٌ» وبإضمار الخبر. وفي الشعر [من الخفيف وهو الشاهد الرابع والستون بعد المئتين]:

طَلَبُوا صُلْحَنا ولاتَ أوانٍ
فَأجَبْنا أنْ لَيْسَ حِينُ بَقاءِ

فجرّ «أوانٍ» وحذف وأضمر «الحين» وأضاف الى «أوانٍ» لأنَّ (لات) لا تكون إلاّ مع «الحين».

وقال تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [الآية ٥] تقول «أتَجْعَلُ مِئةَ شاهِدٍ شاهداً واحداً».

وقال تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا﴾ [الآية ٣٣] أيْ: يَمْسَحُ مَسْحاً.

وقال تعالى: ﴿رُخَآءً﴾ [الآية ٣٦] والله أعلم، على «رخّيْناها رخاءً».

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

لكل سؤال جواب في سورة «ص»(*)

إن قيل: أين جواب القسم في قوله تعالى ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾؟.

قلنا: فيه وجوه: أحدها: أنه لما ذكر سبحانه حرفاً من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز، كما قيل في كل سورة مفتتحة بحرف أتبعه القسم، محذوف الجواب، لدلالة التحدي عليه، كأنّ السياق: والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز؛ وكذلك إذا كان الحرف مقسماً به، كأنّ السياق:

أقسمت بـ «ص» والقرآن ذي الذكر، إن هذا الكلام معجز.

الثاني: أن «ص» خبر مبتدأ محذوف، على أنه اسم للسورة، كأن السياق يقول: هذه «ص»، يعني: هذه السورةُ التي أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر، كما تقول: هذا حاتم والله، تريد: هذا هو المشهور بالسخاء والله.

الثالث: أن جواب القسم: كم أهلكنا، وأصله لكم أهلكنا، فلمّا طال الكلام حذفت اللام تخفيفاً كما في قوله تعالى ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشمس] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس]

الرابع: أنه قوله تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾ وهو قول الكِسائي. وقال الفَرّاء: وهذا لا يستقيم في العربية لتأخّره جداً عن القَسَم.

فإن قيل: ما وجه المناسبة والارتباط بين قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

[الآية ١٧] وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [الآية ١٧]؟

قلنا: وجه المناسبة بينهما: أنه أُمِر أن يتقوّى على الصبر، بذكر قوة داوُد عليه السلام على العبادة والطاعة. الثاني: أن المعنى عَرِّفْهُمْ أن داوُدَ (عليه السلام)، مع كرامته وشهرة طاعته وعبادته، التي منها صوم يوم دون يوم، وقيام نصف الليل، كان شديد الخوف من عذابي، لا يزال باكياً مستغفراً. فكيف حال هؤلاء مع أفعالهم؟

فإن قيل: لِمَ قال الملكان لمّا دخلا على داود (عليه السلام) كما ورد في التنزيل: ﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [الآية ٢٢] والملائكة لا يوجد منهم البغي والظلم، ولمَ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾ [الآية ٢٣] إلى آخره، ولم يكن كما قال؟

قلنا: إنما قالا ذلك على سبيل الفرض والتصوير للمسألة، ومِثْل ذلك لا يعدّ كذباً كما تقول في تصوير المسائل: زَيْد له أربعون شاة وعَمْرو له أربعون، وأنت تشير إليهما، فخلطاها وحال عليها الحَوْلُ كم يجب فيها وليس لهما شيء، وتقول لي أربعون شاة، ولك أربعون، فخلطناها وما لكم شيء.

فإن قيل: لِمَ حكم داود (عليه السلام) على المدعى عليه بكونه ظالماً قبل أن يسمع كلامه؟

قلنا: لم يحكم عليه إلا بعد اعترافه، كذا نقله السُدّي؛ إلا أنه حذف ذكر الاعتراف في القصة، اختصاراً لدلالة الحال عليه، كما تقول العرب: أمرته بالتجارة فَكَسَب الأموال: أي فاتّجر، فكسب الأموال.

فإن قيل: ما معنى تكرار الحب في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ [الآية ٣٢]. وما معنى تعديته بـ «عن» وظاهره أحببت حبّاً مثل حب الخير، كما تقول أحببت حُبَّ زيد: أي أحببت حبّاً مثل حبّ زيد؟

قلنا: أحببت في الآية بمعنى آثرت، كما يقول المخيَّر بين شيئين: أحببت هذا: أي آثرته، وقد جاء استحب بمعنى آثر، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت/١٧]. أي آثروه: لأنّ مَنْ أحبَّ شيئاً فقد آثره على غيره، و«عن» بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾

[محمد/٣٨] فيصير المعنى أي آثرت حب الخير على ذكر ربي. الثاني: وهو اختيار الجرجاني صاحب معاني القرآن، أن «أحببت» بمعنى قعدت وتأخرت، مأخوذ من أحب الجمل إذا برك، ومنه قول الشاعر:

دَعَتْكَ إليها مُقْلتاها وجيدُها

فمِلْتَ كما مالَ المُحِبُّ على عَمْدِ

فالمحبّ هنا الجمل، والعَمْد عِلّةٌ تكون في سَنام الجمل، وكل من ترك شيئاً وتجنّب أن يفعله فقد قعد عنه، فتأويل الآية: إنّي قعدت عن ربي لحبّ الخير، فيكون انتصاب حب على أنه مفعول له.

فإن قيل: لِمَ قال سليمان عليه السلام، كما ورد في التنزيل: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [الآية ٣٥] وهذا أشبه بالحسد والبخل بنعم الله تعالى على عبيده، بما لا يضرّ سليمان عليه السلام؟

قلنا: قال الحسن وقتادة رحمهما الله: المراد به لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني في حياتي، كما فعله الشيطان الذي لبس خاتمه وجلس على كرسيه؛ الثاني: أن الله تعالى علم أنه لا يقوم غيره من عباده بمصالح ذلك الملك، فاقتضت حكمته سبحانه تخصيصه به، فألهمه أن يسأله تخصيصه به. الثالث: أنه أراد بذلك ملكاً عظيماً، فعبر عنه بتلك العبارة، ولم يقصد بذلك إلاّ عِظَمَ الملك وسعته، كما تقول لفلان: ليس لأحد مثله من الفضل أو من المال، وتريد بذلك عِظَمَ فضله أو ماله، وإن كان في الناس أمثاله.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ [الآية ٤٤] مع أن الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى، على ما قيل، وهو قد شكا؟

قلنا: الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، ولا تُسمّى جزعاً لما فيها من إظهار الخضوع والعبودية لله تعالى، والافتقار إليه؛ ويؤيده قول يعقوب عليه السلام، كما ورد في التنزيل: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف/ ٨٦] مع قوله ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾ [يوسف/ ٨٣] وقولهم: الصبر ترك الشكوى، يعني إلى العباد. الثاني: أنه (ع)، إنما طلب الشفاء من الله تعالى، بعد مالم يبق منه إلا قلبه ولسانه، خِيفة على قومه أن يفتنهم الشيطان بما كان يوسوس لهم

به. ويقول إنه لو كان أيوب نبيّاً لما ابتلي بما هو فيه، ولدَعَا الله تعالى بكشف ضرّه. وروي أنه عليه السلام قال في مناجاته: إلٰهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يلهني ما ملكت يميني، ولم آكل إلا ومعي يتيم، ولم أبت شبعان ولا كاسياً ومعي جائع أو عُرْيان، فكشف الله تعالى ضرُّه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ يدل على أن غاية لعنة الله لإبليس يوم القيامة ثم تنقطع؟

قلنا: كيف تنقطع، وقد قال تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ [الأعراف/ ٤٤] يعني يوم القيامة ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ [الأعراف] وإبليس أظلم الظلمة؛ ولكن مراده، في الآية، أن عليه اللعنة في طول مدة الدنيا؛ فإذا كان يوم القيامة اقترن له باللعنة من أنواع العذاب، ما تنسى عنده اللعنة، وكأنها انقطعت.

المعاني المجازية في سورة «ص»(*)

قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴿١٢﴾﴾ هذه استعارة على بعض الأقوال، وهو أن قوله تعالى ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾ معناه ذو المُلْك الثابت، والأمر الواطد، والأسباب التي بها يثبت السلطان، كما يثبتُ الخباء بأوتاده، ويقوم على عماده.

وقد يجوز أيضاً أن ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾ معناه ذو الأبنية المشيْدة، والقواعد الممهَّدة، التي تُشبَّه بالجبال في ارتفاع الرؤوس ورسوخ الأصول. لأن الجبال تسمى أوتاد الأرض. قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴿٧﴾﴾ [النبأ].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴿١٥﴾﴾. وقُرئ: من فُوَاق[1] بالضم. وقد قيل إنهما لغتان، وذلك قول الكِسائي. وقال أبو عبيدة: مَنْ فَتَح أراد ما لها من راحة، وَمَنْ ضَمَّ أراد ما لها في إهلاكهم من مهلة، بمقدار فواق الناقة، وهي الوقفة التي بين الحلبتين. والموضع الذي يحقق الكلام بالاستعارة على قراءة من قرأ من فواق بالفتح، أن يكون سبحانه وَصَفَ تلك الصيحة بأنها لا إفاقة من سَكْرَتِها، ولا

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(1) الضم هو قراءة حمزة والكسائي. وبقية القرّاء قرأوها بفتح الفاء. وقال الجوهري: الفواق بالفتح والفوق بالضم ما بين الحلبتين من الوقت. وفي الحديث الشريف (العيادة قدر فواق الناقة) انظر «الجامع لأحكام القرآن» جـ ١٥ ص ١٥٦.

استراحةً من كُرْبَتِها، كما يفيق المريض من عِلّته، والسكران من نشوته. والمراد أنه لا راحة للقوم منها. فجعل سبحانه الراحة لها على طريق المجاز والاتساع. ومثله كثير في الكلام.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴿٢٣﴾﴾. وهذا الكلام داخل في حَيِّز الاستعارة. لأن النعاج هٰهنا كناية عن النساء. وقد جاءت في أشعارهم الكناية عن المرأة بالشاة. وعلى ذلك قول الأعشى:

فرميْتُ غفلةَ عينه عن شاته
فأصَبْتُ حبةَ قلبها وطِحالها[1]

أي: عن امرأته. وقال عنترة:

يا شاةَ ما قَنَصٍ لمن حلَّت لهُ
حَرُمَتْ عليَّ وليتَها لم تحرُمِ[2]

وربما سمُّوا الظَّبْيَة نعجة، والظبية شبيهة بالمرأة، فتكون اللفظة مستعارة على هذا التركيب.

وإنما شُبِّهت النساء بالنعاج، لأنَّ النعاج يُرْتَبطن للاحتلاب والاستنتاج، والنساء يُصْطَفَيْنَ للاستمتاع والاستيلاد.

وقوله تعالى في ذكْر الخيل حاكياً عن سليمان عليه السلام لَمَّا عُرِضَتْ عليه فكاد أن يفوته، للشغل بها، وَقْتُ صَلاةٍ كان يُصَلِّيها، فَضَرَبَ رُؤُوسَها وَعَرَاقِيبها بالسيف، على ما وردت به الأخبار: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴿٣٣﴾﴾ وهذه استعارة. لأن المسح هٰهنا ـ في أكثر أقوال أهْلِ التأويل ـ كنايةٌ عَنِ الضَّرْب بالسيف. وامتسح رأسَه: إذا فعل به ذلك. وهذه الباء ههنا للإلصاق فكأنَّ السِّياق: وَأَلْصَقَ السيف بِسُوقِها وأعناقها. كما يقول القائل: مَسَحْتُ يَدي بالمنديل.

---

(١) هذا البيت من قصيدة للأعشى يمدح بها قيس بن معد يكرب. ومطلعها:

رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غدوةً أجمالَها غضبَى عليك، فما تَقُول بَدَا لها

وتبلغ أبياتها ٥٤ بيتاً، كما في ديوانه الكبير الذي نشرته مكتبة الآداب بتحقيق الدكتور م. محمد حسين ـ ص ٢٧. والعرب تكني بالشاة عن المرأة والزوجة. والأعشى من شعراء العصر الجاهلي الذين اشتهروا بشعر الخمر، ووصف مجالسها وآلاتها، ما كان له أثر في الشعراء بعده كالأخطل وأبي نواس.

(٢) قال ابن معطوف الكِناني في شرح هذا البيت: (يُعَرِّض بجارية يقول: أيُّ صيد أنت لمن حل له أن يصيدك، فأما أنا فإن حرمة الجوار قد حرّمتك عليّ). وتجد شرحه في «شرح القصائد العشر» للإمام التبريزي ص ٢٠٠؛ وقال بعض النحاة: إن «ما» زائدة والأصل ياشاة قنص.

أي ألصقتها به. وعلى ذلك قول الشاعر[١].

نَمَشُّ[٢] بأعْرافِ الجيادِ أكُفَّنا
إذا نَحنُ قُمْنا عن شِواءٍ مُضَهَّبِ

أي نلصق أيدينا بأعرافها، كما نلصقها بالمناديل التي تمسح بها الأيدي. وقد صرّح بذلك الشاعرُ الآخر[٣] فقال:

* أعْرافُهنَّ لأيدينا مناديلُ*

والشاهد الأعظم على ذلك ما ورد في التنزيل من قوله سبحانه: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة/٦] على قراءة من قرأ: (وَأَرْجُلِكُمْ) جرًا. أي ألصقوا المسحَ بهذه المواضع. وهذه الآية يستدل بها أهلُ العراق على أنّ استيعاب الرأس بالمسح ليس بواجب، خلافاً لقول مالِك. وقال لي الشيخ أبو بكر محمد بن موسى[٤] الخوارزمي ـ أدام الله توفيقه ـ عند بلوغي عليه في القراءة، من مختصر أبي جعفر الطُّحاوي[٥] إلى هذه المسألة: سألت أبا علي الفارسي النحوي[٦] وأبا

---

(١) هو امرؤ القيس بن حجر الكندي، أمير شعراء الجاهلية.

(٢) في الأصل «نمس» بالسين المهملة وهو تحريف من الناسخ، كما أنه ترك كلمة مضهب بدون نقط على الضاد المعجمة. والبيت من بائية امرئ القيس التي يقول في مطلعها:

خليليّ مرّا بي على أمّ جندبِ ... نُقَضِّ لُبانات الفؤادِ المُعَذَّبِ

انظر ديوان امرىء القيس (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم) ص٥٤.

(٣) هو عبدة بن الطيب الشاعر الجاهلي. والبيت كاملاً هو.

ثُمَّتَ قمنا إلى جُرْدٍ مسوّمةٍ ... أعرافُهنّ لأيدينا مناديل

ويقول ابن قتيبة في «الشعر والشعراء»: إنه أخذه من قول امرئ القيس:

نمش بأعراف الجياد أكفّنا ... إذا نحن قمنا عن شِواءٍ مُضَهَّبِ

(٤) كدت أيأس من الحصول على ترجمة له إلى أن وجدته «في تاريخ بغداد» جـ ٣ ص ٢٤٧. قالوا: ماشاهد الناس مثله في حسن الفتوى والإصابة فيها وحسن التدريس، وقد دُعي إلى ولاية الحكم مراراً فامتنع منه. توفي سنة ٤٠٣هـ أي قبل وفاة الشريف الرضي بثلاث سنوات.

(٥) هو الإمام أبو جعفر الطُّحاوي المصري، برع في الفقه والحديث، وإليه انتهت رياسة الحنفية بمصر، وتفقه في مذهب الإمام أبي حنيفة حتى صار إماماً. توفي سنة ٣٢١ هـ.

(٦) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي، كان إماماً في النحو والعربية. وتقدّمت ترجمته في الهامش عند الكلام على سورة طه.

الحسن علي بن عيسى الرُّمّاني[1]: هل يقتضي ظاهرُ الآية إلصاق الفعل بجميع المحل أو بالبعض؟ فقالا جميعاً: إذا أُلصق الفعل ببعض المحل تناوله الاسم. قال: وهذا يدل على الاقتصار، على مسح بعض الرأس كما يقوله أصحابنا.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾ وهذه استعارة. والمراد بها ـ والله أعلم ـ أولي القُوى في العبادة، والبصائر في الطاعة.

ولا يجوز أن يكون المراد بالأبصار ههنا الجوارح والحواس، لأن سائر الناس يشاركون الأنبياء عليهم السلام في خَلْق ذلك لهم. ولا يحسُنُ مَدْحُ الإنسان بأن له يداً وقَدَماً وعَيْناً وفماً. وإنما يحسن أنْ يُمدَحَ بأن له نفساً شريفة، وهمّةً مُنيفة، وأفعالاً جميلة. وخِلالاً محمودة.

وقيل أيضاً معنى ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾: أي أولي النِّعَم في الدِّين، لأن ورود اليد بمعنى النعمة مشهور في كلامهم، فإنهم أسْدَوْا إلى الناس أيدياً بدعايتهم إلى الإيمان، وافتلاتهم من حبائل الضَّلال.

وأما قوله سبحانه وتعالى في هذه السورة: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [الآية ٧٥] فقد مضى، من الكلام على قوله تعالى في يس: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١﴾ [يس]، ما هو بعينه الكلام على هذا الموضع، فلا فائدة في إعادته. وجملتُهُ أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ مَزِيَّةُ الاختصاص بخَلْق آدم عليه السلام مِنْ غيرِ مَعونة مُعين، ولا مُظاهَرَةِ ظهير.

---

(١) هو مفسّر ونحوي كبير، ولد ببغداد وتوفي بها سنة ٣٨٤ هـ؛ وله كتب «التفسير» و«شرح أصول ابن السّرّاج» و«شرح سيبويه» و «معاني الحروف» وترجمته في بغية الوعاة».

سورة الزُّمَر

٣٩

أهداف سورة «الزُّمَر»(*)

سورة «الزُّمَر» سورة مكية نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة، بعد الإسراء وقبيل الهجرة وآياتها ٧٥ آية.

نزلت بعد سورة «سبأ»، وقد سميت سورة «الزُّمَر» بذلك الاسم، لقوله تعالى في آخرها:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الآية ٧١].

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الآية ٧٣].

وللسورة اسمان: سورة الزمر، وسورة «الغُرَف»، لقوله تعالى:

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ [الآية ٢٠].

أدلة التوحيد

سورة الزمر تهزّ القلب هزّاً، وتسكب فيه مؤثرات الإيمان بالله، وتستعرض أمامه أدلة القدرة الإلهية، والجزاء العادل في الدنيا والآخرة، وتفتح باب الرجاء الآمل في رحمة الله ورضوانه، ومن آياتها الشهيرة قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ومنذ افتتاح السورة إلى نهايتها وهي تؤكد قضية التوحيد الخالص. ففي مطلع السورة:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الآية ٣].

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

وفي خلال السورة نجد لَمَساتٍ متواليةً للقلوب والأفئدة، تعرض عليها أدلّة القدرة ومشاهد الكون، وخلق الليل والنهار، وإنزال المطر وإنبات النبات، وبدء الخليقة، ومراحل خلق الجنين، وطبيعة النفس في اللجوء إلى الله سبحانه في الضَّرّاء، والإعراض عنه في السَّرّاء، مع أن الموت قائم على رؤوس العباد.

ظل الآخرة

مشاهد الآخرة تظلل السورة وتسيطر على ختامها، حيث نجد الملائكة حافّين من حول العرش، ونرى المؤمنين يساقون إلى الجنة أفواجاً وجماعات في تكريم إلهي، وسلام ونعيم في الخلود، ونرى الكفّار يساقون إلى جهنّم زمراً في مهانة وإذلال.

«وظل الآخرة في السورة يتناسق مع جوّها، وأهداف اللَّمَسات التي تأخذ القلب البشري بها، فهذه اللمسات أقرب إلى جو الخشية والخوف والفزع والارتعاش، ومن ثَمَّ نجد الحالات التي ترسمها للقلب البشري هي حالات ارتعاشة وانتفاضة وخشية، نجد هذا في صورة القانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، وفي صورة الذين يَخْشَوْن ربهم، حيث تقشعر جلودهم لهذا القرآن، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، كما نجده في التوجيه إلى التقوى، والخوف من العذاب والتخفيف منه، ثم نَجِدُه في مشاهد القيامة، وما فيها من فزع ومن خشية، وما فيها كذلك من إنابة وخشوع».

فقرات السورة

١ ـ التوحيد

في الآيات الأولى من السُّورة المكوّنة لفقرتها الأولى، حثٌّ على إخلاص العبادة لله سبحانه، ثم نَهْيٌ عن اتخاذ الأنداد والأولياء؛ ثم نجد القرآن يلمس القلوب فيبين قدرة الله جلّ جلاله في خَلْق الناس من نفس واحدة، وتزويجها من جنسها، وخَلْق الأنعام أزاوجاً كذلك، وخَلْقهم في بطون أمهاتهم في ظُلُمات ثلاث، ومَنْحِهم خصائصَ جنسهم البشري أوّل مرة، ثم مَنْحِهم خصائصَ البقاء والارتقاء. وقد استغرقت هذه الفقرة الآيات [١ ـ ٧].

٢ ـ أنواع الانسان وحالته

في الفقرة الثانية نجد أن الآيات [٨ ـ ٢٠] قد لمست القلوب لمسة أخرى، وهي تعرض على الناس صورتهم في الضرّاء وصورتهم في البأساء، وتريهم تَقَلُّبَهُمْ وضعفهم وقِلَّةَ ثباتهم على نهج إلاّ حين يتصلون بربهم ويتطلّعون إليه، ويقنتون له، فيعرفون الطريق، ويعلمون الحقيقة وينتفعون بما وهبهم الله من خصائص الإنسان.

ثم وجَّهَتِ الآياتُ النبيَّ (ص) إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة، وإعلانِ خوفه من معصية الله، وإعلانِ تصميمه على منهجه وطريقه، وتَرْكِهم هم لمنهجهم وطريقهم، وبيانِ عاقبة هذا الطريق وذلك يوم يكون الحساب.

٣ ـ في مظاهر القدرة

في الآيات [٢١ ـ ٢٥] لفتة إلى حياة النبات في الأرض عَقِبَ إنزال الماء من السماء، ثم نهاية النبات في فترة وجيزة، وكذلك شأن الدنيا. ثم تشير الآيات إلى الكتاب المُنْزل من السماء، لتحيا به القلوب وتنشرح له الصدور مع تصويرٍ لعاقبة المستجيبين لذكر الله، والقاسيةِ قلوبُهم من ذكر الله.

ثم تَضرب الآياتُ مثالاً لِمَنْ يعبد إلهاً واحداً، ومن يعبد آلهة متعددة، وهما لا يستويان مثلاً، ولا يتّفقان حالاً، كما لا يستوي العبد الذي يملكه سادة متنازعون، والعبد الذي يعمل لسيد واحد لا يتنازع أحد فيه.

ثم تضع حقيقة واقعة، وهي تَعَرُّض الناس جميعاً للموت والفناء، الرسول والمرسل اليهم؛ وسيتنوع الجزاء يوم القيامة، فيُجازى الكافرون في جهنم، ويُجازى الصادقون المُصَدِّقون جزاء المحسنين.

٤ ـ نقاش متنوع

في الآيات [٣٦ ـ ٦١] نلمس قدرة القرآن الفائقة على إقامة الحجّة، وإقناع الإنسان، وأَخْذِ السبيل على النفس البشرية حتى لا تجد بدّاً من الإذعان والانقياد. وقد تناولت هذه الفقرة التوحيد من جوانب متعددة في لَمَسات متنوعة، تبدأ بتصوير حقيقة القلب المؤمن، وموقِفِه بإزاء قوى الأرض واعتدادِه بالقوة الوحيدة، واعتمادِه عليها دون مبالاة بسواها من القوى الضئيلة الهزيلة. ومن ثم ينفض يده من هذه القوى الوهمية، ويَكِلُ أمره وأمر

المجادلين له إلى يوم القيامة، ويَمْضي في طريقه ثابتاً واثقاً مستقيماً بالمصير.

يتلو هذا بيان الرسول (ص) وأنه ليس وكيلاً على العباد في هداهم وضلالهم، وإنما الله سبحانه هو المسيطر عليهم، الآخذ بناصيتهم في كل حالة من حالاتهم، وليس لهم من دونه شفيع فإن الشفاعة لله جميعاً، وإليه سبحانه مُلْكُ السماوات والأرض، وإليه المرجع والمصير.

ثم تتعرّض الآيات لوصف المشركين وانقباض قلوبهم عند ذكر كلمة التوحيد، وانبساطها عند ذكر كلمة الشِّرْك؛ وتُعَقِّب على هذا بدعوة الرسول (ص) إلى إعلان كلمة التوحيد خالصةً وتَرْك أمور المشركين لله، وتُصَوِّرُهم يوم القيامة يَوَدُّون لو يُفْتَدَوْنَ بملء الأرض ومثلِه معه، وقد تَكَشَّفَ لهم من الأمر ما يذهل ويخيف!

وتعرض الآيات وَضْعَ الإنسان في حال الهلع والجَزَع، ثم في حال النعمة والرخاء فهو إذا أصابه الضّرّ دعا الله وحده، فإذا وهبه الله النِّعَم والرَّخاء ادعى دعاوى عريضة، وقال: إنما أوتيته على علم عندي؛ هذه الكلمة التي قالها من سبق من المتبطِّرين والمتكبِّرين، فأخذهم الله أَخْذَ عزيز مقتدر، وهو قادر على أن يبطش بكلّ جبّار عنيد، وما كان بَسْطُ الرزق وقَبْضُهُ إلاّ سُنَّةً من سنن الله تجري وفق حكمته وتقديره، وهو وحده الباسط القابض بيده الخلق والأمر.

والله سبحانه قد فتح أبواب رحمته على مصاريعها بالتوبة، ودعا العُصاةَ إلى الإنابة والاستقامة، واتّباع منهج الحق والعدل من قبل أن يأتي يومُ الحساب فتندمَ كل نفس ظالمة، وتتمنى أن تعود إلى الدنيا لتستدرك مافاتها. وفي هذا اليوم تظهر الكآبة في وجوه الكافرين، ويظهر الفوز والسرور في وجوه المؤمنين.

٥ ـ الله مستحق للعبادة دون سواه

تعرض الآيات الأخيرة في السورة [٦٢ ـ ٧٥] ألوان قدرةِ الله وجلالِه وتفرُّدِه بالملك والتصرف في كل شيء. وإذا تَبَيَّنَ لنا آثارُ هذه القدرة، ظهرت أمامنا دعوة المشركين للنبي (ص) إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم في مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه، مستغربة مستنكرة، فكيف يُعْبَد معه

سبحانه غَيْرُه؟ وله وحده مقاليد السماوات والأرض.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴿٦٧﴾﴾ [الآية ٦٧].

وهم يشركون به وهو وحده المعبود القادر القاهر.

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الآية ٦٧].

فهي في تصرفه وملكه كما يتصرف الإنسان فيما هو داخل قبضته.

﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾. [الآية ٦٧].

وستُطوى هذه السماوات وتُبدل بقدرته سبحانه. وبمناسبة تصوير هذه الحقيقة على هذا النحو يوم القيامة، يَعْرِضُ مشهداً فريداً من مشاهد القيامة، ينتهي بموقف الملائكة حافين من حول العرش يسبّحون بحمد ربّهم.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «الزُّمَر»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة «الزُّمَر» بعد سورة «سبأ»، ونزلت سورة «سبأ» بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة «الزُّمَر» في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُميت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في آخرها: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الآية ٧١] إلى قوله: ﴿وسيق الذين اتَّقَوْا ربَّهم إلى الجنةِ زُمَراً﴾ [الآية ٧٣]. وتبلغ آياتها خمساً وسبعين آية.

الغرض منها وترتيبها

ما يبرز لنا من أغراض هذه السورة الحثُّ على إخلاص العبادة لله تعالى، والنهي عن اتخاذ الوسائل من الأولياء والأولاد ونحوهم، ولهذا يدور السياق فيها على إقامة الأدلة والآيات على بطلان هذا الاعتقاد. ووجه ارتباطها بسورة «ص» أنه ذُكِرَ فيها أن مشركي مكة اعتمدوا على ما جاء في النصرانية من التثليث واتخاذ الولد، فجاءت هذه السورة بعدها لإبطال ما اعتمدوا عليه من ذلك، والحث على إخلاص العبادة لله وحده.

إبطال الوسائل من الأولياء والأولاد الآيات [١ ـ ٧٥]

قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ فذكر سبحانه

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمة الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

وتعالى، من قدرته وحكمته، ما يُستغنى معه عن الأولياء والأولاد. ثم أمر النبي (ص) أن يُخْلص العبادة له، وأوْعَد من يتخذون من دونه أولياء يعبدونهم ليقربوهم إليه بِحُكمه بينهم يوم القيامة؛ ثم ذَكَر جلّ وعلا، أن كل ما عداه مخلوق له فيستحيل أن يكون له ولد منهم، لأن الولد يجب أن يجانس والده في الألوهية، فهو خالق السماوات والأرض، ومكوِّر الليل على النهار والنهار على الليل، إلى غير هذا مما ذكره من خلقه؛ ثم ذكر أنهم، إن يكفروا بعد ذلك، فهو غني عنهم، ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْر أخرى، فلا شفاعة لولي أو ولد أو غيرهما مما يعبدونهم.

ثم ذَكَر، سبحانه، أنه إذا مسّ الإنسان ضُرٌّ لجأ إليه وحده، ونسي أولياءه وشفعاءه إليه، فإذا كَشَفَ الضُر عنه وصار في نعمة، نَسِيَه واتخذ له أنداداً من الأولياء والشفعاء، ثم هَدَّدَ هذا الإنسانَ الجاحد الكافر بأنه سيتمتّع بكفره ثم يكون من أصحاب النار، لأنه لا يصح أن يستوي هو ومن يقنت إلى ربه ويعمل لآخرته، ولا يصح أن يستوي من يعلم أن العبادة لله وحده بمن لا يعلم ذلك، فيجب على المؤمنين أن يتقوا ربهم وحده، وأن يكونوا أول المسلمين له، وَلْيَعْبُدْ غيرُهم ما يشاءون من دونه، فسيكون لهم من العقاب ما يكون، وسيكون لِلَّذين يُخلصون العبادة له من الثواب ما يكون.

ثم ذكر أنه، جلّت قدرته، هو الذي أنزل المطر فسلكه ينابيع في الأرض، ثم يُخْرج به زرعاً مختلفاً ألوانه، ثم يهيج فتراه مصفرّاً، ثم يجعله حطاماً؛ ففي ذلك دليل أيضاً على تَفَرُّده سبحانه بالألوهية، وأنه لا يشاركه في أُلوهيّته ما يتخذونه من الشفعاء والأولاد، ثم ذكر أنه لا يَعْرِف هذا إلا مَنِ استنار قلبُه بالإسلام؛ ثم نوّه السياق بشأن القرآن الذي يأتي بمثل هذا البيان، مما تقشعرُّ منه الجلود، وتلين منه القلوب، وجَمَعَ في هذا بين الوعد والوعيد على نحو ما سبق.

ثم ضَرَبَ مثلاً لمن يَتَّخِذُ معه آلهة من الأولاد والأولياء بِعَبْدٍ فيه شركاء متشاكسون، فلا يمكنه أن يرضيهم كلهم؛ وضرب مثلاً لمن يعبد الله وحده بِعَبْدٍ خالص لرجل واحد،

فيسهل عليه أن يرضيه؛ وذكر أن ما ضربه مثلاً في الحالين يفهمه كل من عنده حظ من العلم، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون. ثم أكمل السياق، بعد هذا، نسق الوعد والوعيد على نحو ما سبق.

ثم ذكر سبحانه أنه فيه وحده الكفاية لعبيده، فلا يصح أن يُخاف من الشفعاء الذين يخوّفُ المشركون بهم، وذكر أنهم لو سئلوا عن خالق السماوات والأرض لأجابوا بأنه هو الذي خلقها، وإذا كان هذا شأنه فإنه إذا أراد أحداً بضرّ لا يكشفه شفعاؤهم، وإذا أراد أحداً برحمة لا يمكنهم أن يمسكوها عنه. ثم أكْمَلَ السياقَ، بعد هذا، نَسَقَ الوعد والوعيد على نحو ما سبق.

ثم ذكر جلّ وعلا أنهم يتخذون هؤلاء الشفعاء من الأصنام، لأنها تماثيل لأشخاص كانوا من المقربين عنده، لينفعوا بشفاعتها وشفاعة أصحابها لهم؛ ورد عليهم بأن أولئك المقربين عبيد لا يملكون من أمره شيئاً، وتلك الأصنام من الجماد الذي لا يعقل، فلا شفاعة إلا لله وحده. ثم ذكر أنهم، مع هذا، إذا ذُكِرَ سبحانه وَحْدَه اشمأزّت قلوبهم، وإذا ذُكر الذين يتخذونهم شفعاء من دونه فرحوا واستبشروا، وهذا تناقض عجيب منهم، وأوعدهم على ذلك بما أوعدهم به، وبَيَّن أنهم يفعلون ذلك في حال النعمة والرخاء، فإذا مسّهم ضرّ توجّهوا إليه جلّ جلاله وحده بالدعاء، ولا يلبثون، إذا كشفه عنهم، أن يعودوا إلى ما كانوا عليه، فَيَنْسُبوا ما أُوتوه من نعمة إلى علمهم بالأفلاك. ولا يعلمون أنه سبحانه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء، ويقبضه عمّن يشاء. ثم تلطف في دعوتهم، فذكر أنهم أسرفوا بذلك على أنفسهم، ونَهَاهم أن يقنطوا مع ذلك من رحمته، لأنه يغفر الذنوب جميعاً بالتوبة عنها، إلى غير هذا مما ذكره في ذلك الأسلوب من دعوتهم.

ثم ذَكَر سبحانه أنه خالق كل شيء وله مقاليد السماوات والأرض، وأَمَرَ النبيّ (ص) أن يخبرهم بأنه لا يصحّ مع هذا أن يطيعهم فيما يأمرونه به من عبادة أوليائهم وشفعائهم. ثم أكمل السياقُ، بعد هذا، نَسَقَ الوعد والوعيد على نحو ما سبق، إلى أن ذَكَرَ سبحانه

أن الذين كَفَروا يُساقون إلى جهنم زُمَراً فيقابلهم خزنتها بما يقابلونهم به، وأن الذين اتقوا ربهم يُساقون إلى الجنة زمراً، فيقابلهم خزنتها بما يقابلونهم به، ويَحْمَدون الله الذي صَدَقَهُم وَعْدَه، وأورثهم الأرض يتبوأون من الجنة حيث يشاؤون، فنعم أجر العاملين﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الزمر»(*)

لا يُخفى وجه اتصال أولها بآخر «ص»، حيث قال سبحانه في «ص»: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ثم قال هنا: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ [الآية ١] فكأنه قيل: هذا الذكر تنزيل. وهذا تلاؤم شديد، بحيث أنه لو أسقطت البسملة لالتأمت الآيتان في السورتين كالآية الواحدة.

وقد ذكر الله تعالى في آخر «ص» قصة خلق آدم (ع)[1]، وذكر في صدر هذه قصة خلق زوجه، وخلق الناس كلّهم منه، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق، ثم ذكر أنهم ميّتون، ثم ذكر وفاة النوم والموت، ثم ذكر القيامة، والحساب، والجزاء، والنار، والجنة[2]. وقال جلّ وعلا: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

فذكر أحوال الخلق، من المبدأ إلى المعاد، متصلاً بخلق آدم المذكور في السورة التي قبلها.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(١) قصة خلق آدم في ص في قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص] إلى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص].

(٢) بدأ ذكر هذه الموضوعات في الزمر، بقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الآية ٦]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وقوله جلّ وعلا: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الآية ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الآية ٧١]، الى آخر السورة. فلو قدّمت الزمر على «ص»، لاختلّ النسق القرآني الذي أحكمه الله تعالى.

مكنونات سورة «الزُّمَر»(*)

١ ـ ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ﴾ [الآية ٣٣].

قال قَتَادة: هو النبي (ص).

وقال السُّدِّي: هو جبريل.

٢ ـ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الآية ٣٣].

هو النبِّي (ص) أخرجهما ابنُ أبي حاتم.

٣ ـ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الآية ٣٦].

قال السُّدِّي: هو محمد (ص) أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

٤ ـ ﴿إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ﴾ [الآية ٦٨].

قال كَعْبُ الأحْبار: هم اثنا عشر: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومَلَكُ الموت، وحَمَلَةُ العَرشِ ثمانيةٌ.

أخرجه ابنُ أبي حاتم. وَرَدَ ذلك من حديثِ أنس مرفوعاً أخرجه الفِرْيابي.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

لغة التنزيل في سورة «الزُّمَر»(*)

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الآية ٢٣].

قوله تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ جمع مَثْنى، وهو بيان لكونه متشابهاً، لأنّ القِصص المكرّرة لا تكون إلاّ متشابهة، فكأن المراد: مردّدة ومكررة.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الآية ٢٩].

أي: متنازعون.

أقول: والتشاكس والمشاكسة في لغة العصر ضرب من الشَّغَب والشِّقاق والفتنة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «الزُّمَر»(*)

قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾ [الآية ١٢] أي: وبذلك أمرت.

وقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الآية ١٧] لأنّ (الطاغوتَ) في معنى جماعة. وقال أيضاً: ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة] وإنْ شئت جعلته واحداً مؤنثاً.

وقال سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الآية ١٩] أي: أفأنتَ تُنقِذُهُ.

وقال أيضاً: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الآية ٢٢] بجعل قوله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ [الآية ٢٢] مكانَ الخبر.

وقال: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ﴾ [الآية ٢٤] فهذا لم يظهر له خبر في اللفظ، ولكنه في المعنى، والله أعلم، كأن السياق «أفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ أفْضَلُ أمْ مَنْ لا يَتَّقِي».

وقال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الآية ٢٨] لأن قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الآية ٢٧] معرفة فانتصب خبره.

وقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ [الآية ٣٣] ثم قال ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴿٣٣﴾﴾ بجعل (الذي) في معنى جماعة بمنزلة «من».

وقال تعالى: ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الآية ٦٠] بالرفع على الابتداء، ونصب بعضهم على البدل. وكذلك ﴿وَيَجْعَلَ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

﴿ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنفال ٣٧] بجعله بدلاً من (الخبيث) ومنهم من قرأ (بَعْضُه على بَعْض) فرفع على الابتداء. أو شغل الفعل بالأول. وقرأ بعضهم: (مُسْوادَّةٌ) وهي لغة لأهل الحجاز يقولون: «اسْوادَّ وجهُهُ» و «اِحْمَارَّ» يجعلونه «افعَالَّ» كما تقول للأشهب «قدِ اشْهَابَّ» وللازرق «قدِ ازْرَاقَّ». وقال بعضهم لا يكون «افعَالَّ» في ذي اللون الواحد، وإنّما يكون في نحو الأشهب، ولا يكون في نحو الأحمر، وهما لغتان.

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ [الآية ٦٤] أي «أفَغَيْرَ اللهِ أعْبُدُ تَأمُرُونَنِي» كأن السياق أراد الإلغاء، والله أعلم، كما تقول «هَلْ ذَهَبَ فُلانٌ. تَدرِي» جعله على معنى «ما تدري».

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الآية ٦٥].

وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الآية ٧٥] فـ ﴿مِنْ﴾ أدخلت هٰهُنا توكيداً، والله أعلم، نحو قولك: «مَا جَاءَنِي مِنْ أحَدٍ» وثُقّلَتْ ﴿حَآفِّينَ﴾ لأنها من «حفَفْتُ».

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الآية ٧٣] فيقال إن قوله سبحانه ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ [الآية ٧٣] في معنى «قالَ لَهُمْ» كأن السياق يلقي الواو. وقد جاء في الشعر شيء يشبه أن تكون الواو زائدة فيه. قال الشاعر [من الكامل وهو الشاهد الخامس بعد المئة]:

فإذَا وذلِكَ يا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ
إلاّ كَلَمّةِ حَالِمٍ بِخَيالِ

فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ يريدُ «فإذَا ذلكَ لَمْ يكُنْ». وقال بعضهم: «أضمر الخبر» وإضمار الخبر أحسن في الآية أيضاً، وهو في الكلام.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الآية ٦٧] أي: «في قُدْرته» نحو قوله جلّ وعلا ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۝٢٥﴾ [النساء] أي: وما كانت لكم عليه قدرة، وليس الملك لليمين دون الشمال وسائر البدن. وأما قوله سبحانه﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ فنحو قولك للرجل: «هذا في يدك وفي قبضتك».

لكل سؤال جواب في سورة «الزُّمَر»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ وكم من كاذب كفّار قد هداه الله تعالى فأسلم وصدق؟

قلنا: معناه لا يهديه إلى الإيمان مادام على كفره وكذبه. وقيل معناه: لا يهديه إلى حجّة يلزم بها المؤمنين.

فإن قيل: كيف نستنتج أن في قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۝٤﴾ [الآية ٤] ردّاً لقول من ادّعى أن له ولداً، وإبطالاً لذلك، مع أنّ كل من نَسَب إليه سبحانه ولداً قال إنه اصطفاه من خلقه بجعله ولداً؛ فاليهود يدّعون أنه عزير، والنصارى يدّعون أنه المسيح بن مريم عليهما السلام، وطائفة من مشركي العرب يدعون أن الملائكة بنات الله تعالى؟

قلنا: هذا إن جُعل ردّاً على اليهود والنصارى كان معناه لاصطفى الولد من الملائكة لا من البشر، لأنّ الملائكة أشرف من البشر بلا خلاف بين اليهود ولا بين النصارى؛ وإن كان ردّاً على مشركي العرب كان معناه لاصطفى له ولداً من جنس يخلق كل شيء يريده ليكون ولداً موصوفاً لصفته، ولم يَصْطَفِ من الملائكة الذين لا يقدرون على إيجاد جناح بعوضة؛ ولا يُرَدّ على هذا خلق عيسى (ع) الطيرَ لأنه ليس بعام، أو لأن معنى خلقه التقدير من الطين، ثم إنّ الله تعالى يخلقه حيواناً

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

بنفخ عيسى عليه السلام وإظهاراً لمعجزته.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الآية ٦] وخَلْقُ حواء من آدم (ع) سابق على خلقنا منه، فكيف عطفه عليه بكلمة «ثمّ»؟

قلنا: «ثم» هنا للترتيب في الإخبار لا في الإيجاد، كما تقول لصاحبك أعطيتك اليوم كذا ثم أعطيتك أمس أكثر منه: أي ثم أخبرك بكذا، ومنه قول الشاعر:

إنّ من سادَ ثمّ ساد أبوه
ثمّ قد ساد قبل ذلك جدّه

الثاني: أن «ثم» متعلقة بمعنى ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ وعاطفة عليه لا على ﴿خَلَقَكُم﴾، فمعناه خلقكم من نفس واحدة، وأُفردت بالإيجاد ثم شُفعت بزوج. الثالث: أن «ثم» على ظاهرها، لأن الله تعالى خلق آدم ثم أخرج أولاده من ظهره كالذَّر، وأخذ عليهم الميثاق ثم ردهم إلى ظهره، ثم خلق منه حواء؛ فالمراد بقوله تعالى خلقكم خلقاً يوم أخذ الميثاق دفعة واحدة، لأن هذا الخلق الذي نحن فيه بالتوالد والتناسل.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الآية ٦] مع أن الأنعام مخلوقة في الأرض لا منزلة من السماء؟

قلنا: قيل إن الله تعالى خلق الأزواج الثمانية في الجنّة ثم أنزلها على آدم (ع) بعد إنزاله. الثاني: أن الله تعالى أنزل الماء من السماء، والأنعام لا توجد إلا بوجود النبات، والنبات لا يوجد إلا بوجود الماء، فكأن الأنعام منزلة من السماء، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف/٢٦] وإنما أنزل الماء الذي لا يوجد القطن والكتان والصوف إلاّ به.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف الذي جاء بالصدق وصدق به: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾ مع أنه سبحانه وتعالى يكفر عنهم سيِّىء أعمالهم ويَجْزيهم بحسنها أيضاً؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة التوبة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الآية ٤٤] مع أنه جاء في الأخبار أن للأنبياء والعلماء

والشهداء والأطفال شفاعة يوم القيامة؟

قلنا: معناه أن أحداً لا يملكها إلاّ بتمليكه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة/ ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء/ ٢٨].

فإن قيل: لِمَ ذكّر الضمير في أوتيته وهو للنعمة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ [الآية ٤٩]؟

قلنا: إنما ذكّره نظراً إلى المعنى، لأن معنى «نعمة»: «شيئاً من النعمة وقسماً منها»، أو لأن النعمة والإنعام بمعنى واحد.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الآية ٥٥] والقرآن كلّه حسن؟

قلنا: معناه اتبعوا أحسن وحي أو كتاب أنزل إليكم من ربّكم، وهو القرآن كله. وقيل أحسن القرآن الآيات المُحْكَمات. وقيل أحسنه كل آية تضمنت أمراً بطاعة أو إحسان؛ وقد سبق نظير هذه الآية في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف/ ١٤٥] والأجوبة المذكورة ثمّة تصلح هنا، وكذا الأجوبة المذكورة هنا تصلح ثمّة، إلا الجواب الأول.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ [الآية ٦٥] مع أن الموحى إليهم جماعة، ولما أوحي إلى من قبله لم يكن في الوحي إليهم خطابه؟

قلنا: معناه الأول: ولقد أوحي إلى كل واحد منك ومنهم: لئن أشركت. الثاني: أن فيه إضماراً تقديره: ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك التوحيد، ثم ابتدىء فقيل لئن أشركت. والثالث: أن فيه تقديماً وتأخيراً تقديره: ولقد أوحي إليك لئن أشركت، وكذلك أوحي إلى الذين من قبلك.

فإن قيل: لِمَ عبّر سبحانه عن الذهاب بأهل الجنة والنار بلفظ السّوْق في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [الآية ٧١]؛ وفي قوله سبحانه ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ [الآية ٧٣] والتعبير في الآيتين يحمل ضرباً من الإهانة؟

قلنا: المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يُفعل

بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل؛ والمراد بسَوْق أهل الجنة سَوْقُ مراكبهم حثاً وإسراعاً بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يشرّف ويكرّم من الوافدين على السلطان، فشتان ما بين السَّوْقَيْن.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف النار: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَبُهَا﴾ [الآية ٧١] بغير واو، وقال في صفة الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَبُهَا﴾ [الآية ٧٣] بالواو؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها أنها زائدة، قاله الفرّاء وغيره. الثاني: أنها واو الثمانية وأبواب الجنة ثمانية. الثالث: أنها واو الحال، معناه: جاءوها وقد فُتحت أبوابها قَبْل مجيئهم، بخلاف أبواب النار فإنها إنّما تفتح عند مجيئهم. والحكمة في ذلك من وجوه: أحدها أن يستعجل أهل الجنة الفرح والسرور إذا رأوا الأبواب مُفَتَّحة، وأهل النار يأتون النار وأبوابها مُغَلَّقة ليكون أشدّ لحرّها. الثاني أنّ الوقوف على الباب المغلق نوع ذل وهوان، فصين عنه أهل الجنة لا أهل النار. الثالث: أن الكريم يعجّل المثوبة ويؤخّر العقوبة، فلو وجد أهل الجنة بابها مغلقاً لأثّر انتظار فتحه في كمال الكريم، بخلاف أهل النار.

المعاني المجازية في سورة «الزُّمَر»(*)

قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الآية ٥].

هذه استعارة. والمعنى يُعْلي هذا على هذا. وذلك مأخوذ من قولهم: كارَ العِمامَةَ على رأسه يَكُورُها: إذا أدارها عليه. وقد قالوا: طَعَنه فكوَّرَه، أي صَرَعه. ومنه قول أبي كبير الهذلي:[1]

متكوِّرين على المعاري بينَهُمْ
ضَرْبٌ كَتَعْطَاطِ المَزَادِ الأنجلِ

ومنه الحديث المأثور: (نَعُوذُ بِاللهِ من الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ)[2] أي من الإدبار بعد الإقبال. وقيل من القلة بعد الكثرة. لأنهم يسمُّون القطيع الكثير من البقر وغيرها كوراً. ومنه قول أبي ذؤيب[3] في صفة الثور:

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) أبو كبير الهُذلي هو عامر بن الحُلَيس. وهو شاعر جاهلي. وله ترجمة في «الشعر والشعراء» و «الإصابة» والخزانة» واللآلي». وزعموا أنه تزوج أم الشاعر «تأبط شرّاً»، وكان هذا غلاماً صغيراً، فلمّا رآه يكثر الدخول على أمه تنكّر له. والقصة كاملة في كتاب «ديوان الهذليين» ج ٢ ص ٨٨؛ ومتكوّرين أي بعضهم على بعض، والمعاري السوءات. والتعطاط من العط، وهو الشق، والأنجل الواسع.

(٢) في «أساس البلاغة»: «وأعوذ بالله من الحور بعد الكور». والباطل في حور ـ بالضم ـ وهما النقصان، كالهون والهون. والحديث كاملا في «المجازات النبوية» طبع القاهرة. صفحة ١١٣، ونصه: «اللّهمّ إنّا نعوذ بك من وعثاء السفر. وكآبة المنقلب، والحور بعد الكور. وسوء المنظر في الأهل والمال».

(٣) هو أبو ذؤيب الهُذلي خُوَيْلد بن خالد، جاهلي إسلامي، وكان راوية للشاعر الهُذلي ساعدة بن جُؤَيّة. وقالوا: إنه خرج مع عبد الله بن الزُّبَيْر في مغزى نحو المغرب فمات. وهو صاحب العينية المشهورة التي يرثي بها سبعة من =

وَلاَ شُبُوبٌ مِنَ الثِّيرانِ أَفْرَدَهُ
عَنْ كَوْرِهِ كَثْرَةُ الإغراءِ وَالطَّرَدِ

أي عن سربه الكثير.

فيجوز أن يكون معنى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ على قول من يقول: طعنه فكوّره، يريد: فَصَرَعَهُ. أي يُلْقي الليل على النهار، ويُلقي النهار على الليل.

ويكون المعنى على قول من يذهب إلى أن الكوْر اسم للكثرة، أي يُكثر أجزاء الليل على أجزاء النهار، حتى يُخفِي ضوء النهار وتَغْلِبَ ظلمة الليل. ويكوِّرُ النهار على الليل: أي يكثر أجزاء النهار، حتى تظهر وتنتشر وتتلاشى فيها أجزاء الليل وتضمحل.

وقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ [الآية ٤٢] وفي هذا الكلام استعارة خفيّة. وذلك أنّ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ أي يقبضها ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ منسوقٌ تعبير. فظاهر الخطاب يقتضي أنه سبحانه يَتوَفّى الأنفس التي لم تمت في منامها أيضاً. ونحن نجد أمارة بقاء نفْس النائم في جسده بأشياء كثيرة. منها ظهور التنفس والحركة وحذف لسانه بالكلمة بعد الكلمة، وغير ذلك مما يجري مجراه. فيكون معنى توفّي النفس النائمة هٰهنا اقتطاعها عن الأفعال التمييزية، والحركات الإرادية، كالعُزوم(٤) والقُصُود وترتيب القيام والقعود، إلى غير ذلك ممّا في معناه.

وقال بعضهم: الفرق بين قبض النوم وقبض الموت أن قبض النوم يُضادُّ اليقظة وقبضَ الموت يُضادُّ الحياة. وقبضُ النوم تكون الروح معه في البدن، وقبضُ الموت تخرج الروح معه من البدن.

وقوله سبحانه: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾ وهذه

- أبنائه ماتوا في يوم واحد، ومطلعها:

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِها تَتَوَجَّعُ ... وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

وشعره في «ديوان الهذليين» طبع دار الكتب المصرية.

(٤) جمع عزم وهو ما يعزم الإنسان عليه من قصد ونيّة.

استعارة. وقد اختُلف في المراد بالجنب هٰهنا. فقال قوم: معناه في ذات الله.

وقال قوم: معناه في طاعة الله، وفي أمر الله. لأنه ذَكَر الجنب على مَجْرى العادة في قولهم: هذا الأمر مُغالٍ في جنب ذلك الأمر أي في جهته. لأنه إذا عبّر عنه بهذه العبارة دل على اختصاصه به من وجه قريب من معنى صفته.

وقال بعضهم: معنى ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي في سبيل الله، أو في الجانب الأقرب إلى مرضاته، بل الأوصل إلى طاعاته.

ولـمّا كان الأمر كلُّه يتشعّب إلى طريقين: إحداهما هُدًى ورشادٌ، والأخرى غيٌّ وضَلالٌ، وكلُّ واحدٍ منهما مُجانِبٌ لصاحبه، أو هو في جانب، والآخر في جانب، وكان ٱلْجَنْبُ والجانبُ بمعنى واحد، حسنت العبارة هٰهنا عن سبيل الله بجنب الله، على النحو الذي ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ٦٣] وهذه استعارة.

والمقاليد: المفاتيح. قال أبو عُبيدة: واحدها مِقْليد، وواحد الأقاليد إقليد. وهما بمعنى واحد وقال غيره: واحدها قِلْد على غير قياس.

وقال أبو عمرو بن العلاء[٥]: وجْهُهُ في العربية أن يكون الواحد على لفظ مِقْلَد، ثم تجمع على «مَقالِد» فمن شاء أن يُشبع كسرة اللام قال: «مقاليد» كما قالوا: دِرْهم ودَراهيم.

قال: وسمعت أبا المنذر يقول: واحد المفاتيح مِفْتَاحٌ. وواحد المفاتح مِفْتَحٌ والمعنيان جميعاً واحد.

والمراد بمقاليد السموات والأرض هٰهنا، والله أعلم، أي مفاتيح خيراتهما، ومعادن بركاتهما، من إدرار الأمطار، وإيراق الأشجار، وسائر وجوه المنافع، وعوائد المصالح.

وقد وصف سبحانه السماء في عدة مواضع بأنْ لها خزائنَ وأبواباً، فحَسُن على مقتضى الكلام أن توصَف بأن لها مقاليد وأغلاقاً.

قال سبحانه: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف/٤٠] وقال تعالى:

---

(٥) هو زَبّان بن عمار التميمي البصري. كان إماماً في اللغة والأدب والشعر ورواية الأخبار. وقد تلقى أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية. توفي بالكوفة سنة ١٥٤ هـ.

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر] وقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون/٧].

وقالوا: خزائن السماوات الأمطار، وخزائن الأرض النبات. وقد يجوز أن يكون معنى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي طاعة السماوات والأرض ومَنْ فيهن. كما يقال: ألقى فلان إلى فلان مقاليده، أي: أطاعه، وفوّض إليه أمره.

وعلى ذلك قول الأعشى:(٦)

فَتَى لو يُنادي الشَّمسَ ألقتْ قِناعَهَا
أو القمَرَ السَّارِي لألقَى المَقَالِدَا

أي لَسَلَّم العلوّ إليه، واعترف له به.

وقال بعض العلماء: ليس قول الشاعر هُهنا: ينادي الشمس، من النداء الذي هو رفع الصوت، وإنّما هو من المجالسة. تقول: ناديت فلاناً، إذا جالسته في النادي. فكأنه قال: لو يجالس الشمس لألقت قناعها شغفاً به، وتبرّجاً له. وهذا من غريب القول.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الآية ٦٧] وهاتان استعارتان. ومعنى قبضته هُهنا أي مِلْكٌ له خالص، قد ارتفعت عنه أيدي المالكين من بريّته، والمتصرّفين فيه من خليقته. وقد وَرِثَ تعالى من عباده ما كان مَلَكهم في دار الدنيا من ذلك، فلم يَبْقَ مِلْكٌ إلاّ انتقل، ولا مالكٌ إلاّ بَطَل.

وقيل أيضاً: معنى ذلك أن الأرض في مقدوره، كالذي يقبض عليه القابض، فتستولي عليه كفّه، ويحوزه ملكه، ولا يشاركه فيه غيره.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي مجموعات في ملكه، ومضمومات بقدرته. واليمين هُهنا بمعنى المِلْك. يقول القائل: هذا مِلْك يميني. وليس يريد اليمين التي هي الجارحة. وقد يعبّرون عن القوة أيضاً باليمين. فيجوز على هذا التأويل أن يكون معنى قوله سبحانه: ﴿مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي يجمع أقطارها ويطوي انتشارها بقوته، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ

(٦) البيت من قصيدة للأعشى يمدح بها «هَوْذة بن علي الحنفي» ويذم «الحارث بن وعلة بن مجالد الرقاشي». ومطلعها:

أجِدَّكَ ودَّعتَ الصِّبا والولائدا وأصبحت بَعْدَ الجَوْرِ فيهنّ قاصِدا

﴿ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ [الأنبياء/١٠٤] وقيل في اليمين ههنا وجه آخر. وهو أن تكون بمعنى القَسَم. لأنه سبحانه لما قال: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء] كان التزامه تعالى فِعْلَ ما أوجبه على نفسه بهذا الوعد، كأنه قَسمٌ أقْسَمَ به، لَيَفْعَلَنَّ ذلك. فأخبر سبحانه في هذا الموضع من السورة الأخرى أن السّماوات مطويّاتٌ بيمينه، أي بذلك الوعد الذي ألزم به نفسه سبحانه. وجرى مجرى القَسَم الذي لا بد من أن يقع الوَفاء به، والخروج منه.

والاعتماد على القولين المتقدمين أولى.

الفهـــرس

سورة «الروم»

المبحث الأول ٣

أهداف سورة «الروم» ٣

سبب نزول السورة ٣

فصلان مترابطان ٤

الأفكار العامة للسورة ٥

عالمية الدعوة الاسلامية ٦

المبحث الثاني ٧

ترابط الآيات في سورة «الروم» ٧

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٧

الغرض منها وترتيبها ٧

تسلية المؤمنين ٨

وسائل تثبيتهم ٨

المبحث الثالث ١١

أسرار ترتيب سورة «الروم» ١١

المبحث الرابع ١٣

مكنونات سورة «الروم» ١٣

المبحث الخامس ١٥
لغة التنزيل في سورة «الروم» ١٥
المبحث السادس ١٧
المعاني اللغوية في سورة «الروم» ١٧
المبحث السابع ١٩
لكل سؤال جواب في سورة «الروم» ١٩
المبحث الثامن ٢٣
المعاني المجازية في سورة «الروم» ٢٣

سورة «لقمان»

المبحث الأول ٢٩
أهداف سورة «لقمان» ٢٩
فقرات السورة ٣٠
الجولة الاولى ٣٠
الجولة الثانية ٣١
الجولة الثالثة ٣١
المبحث الثاني ٣٣
ترابط الآيات في سورة «لقمان» ٣٣
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٣٣
الغرض منه وترتيبها ٣٣
التنويه بحكمة القرآن ٣٤
بيان حكمة لقمان ٣٤
الدعوة إلى ما اتفقت عليه الحكمتان ٣٤

المبحث الثالث ٣٧
أسرار ترتيب سورة «لقمان» ٣٧
المبحث الرابع ٣٩
مكنونات سورة «لقمان» ٣٩
المبحث الخامس ٤١
لغة التنزيل في سورة «لقمان» ٤١
المبحث السادس ٤٣
المعاني اللغوية في سورة «لقمان» ٤٣
المبحث السابع ٤٥
لكل سؤال جواب في سورة «لقمان» ٤٥
المبحث الثامن ٤٩
المعاني المجازية في سورة «لقمان» ٤٩

سورة «السجدة»

المبحث الأول ٥٥
أهداف سورة «السجدة» ٥٥
أسماء السورة ٥٥
مخاطبة القلوب ٥٥
أفكار السورة ونظامها ٥٦
المبحث الثاني ٥٩
ترابط الآيات في سورة «السجدة» ٥٩
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٥٩
الغرض منها وترتيبها ٥٩

إثبات تنزيل القرآن ٦٠
أخذهم بالترغيب والترهيب إلى الايمان به ٦٠
المبحث الثالث ٦٣
أسرار ترتيب سورة «السجدة» ٦٣
المبحث الرابع ٦٥
مكنونات سورة «السجدة» ٦٥
المبحث الخامس ٦٧
لغة التنزيل في سورة «السجدة» ٦٧
المبحث السادس ٦٩
المعاني اللغوية في سورة «السجدة» ٦٩
المبحث السابع ٧١
لكل سؤال جواب في سورة «السجدة» ٧١
المبحث الثامن ٧٥
المعاني المجازية في سورة «السجدة» ٧٥

سورة «الأحزاب»

المبحث الأول ٨١
أهداف سورة «الأحزاب» ٨١
أحداث السّورة ٨١
فصول السورة ٨٢
غزوة الأحزاب وبني قُرَيْظَة ٨٣
زوجات الرسول (ص) ٨٥
قصة زينب بنت جحش ٨٥

أدب بيت النبوة ٨٧
تحمل الانسان للأمانة ٨٨
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٩١
المبحث الثاني ٩١
ترابط الآيات في سورة «الأحزاب» ٩١
الغرض منها وترتيبها ٩١
إبطال تبني زيد بن حارثة ٩١
أمر النبي بتخيير نسائه ٩٣
تزويج النبي مطلّقة زيد ٩٣
إرشاد النبي إلى آداب عامة ٩٤
خصائص النبي في أزواجه ٩٤
إرشاد النبي إلى ما يجب ستره من نسائه وغيرهن ٩٥
المبحث الثالث ٩٧
أسرار ترتيب سورة «الأحزاب» ٩٧
المبحث الرابع ٩٩
مكنونات سورة «الأحزاب» ٩٩
المبحث الخامس ١٠٣
لغة التنزيل في سورة «الأحزاب» ١٠٣
المبحث السادس ١٠٧
المعاني اللغوية في سورة «الأحزاب» ١٠٧
المبحث السابع ١٠٩
لكل سؤال جواب في سورة «الأحزاب» ١٠٩
المبحث الثامن ١١٧
المعاني المجازية في سورة «الأحزاب» ١١٧

سورة «سبأ»

المبحث الأول ١٢١
أهداف سورة «سبأ» ١٢١
موضوعات السورة ١٢١
فصول السورة ١٢٣
١ ـ الألوهيّة وإثبات البعث ١٢٣
٢ ـ داود وسليمان ١٢٣
٣ ـ قصة سبأ ١٢٤
٤ ـ الشرك والتوحيد ١٢٥
٥ ـ مشاهد القيامة والجزاء ١٢٥
٦ ـ الدعوة الى التأمّل والتفكّر ١٢٦
المبحث الثاني ١٢٩
ترابط الآيات في سورة «سبأ» ١٢٩
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٢٩
الغرض منها وترتيبها ١٢٩
الاعتراض الأول على يوم القيامة ١٢٩
الاعتراض الثاني على يوم القيامة ١٣٠
الاعتراض الثالث والرابع على يوم القيامة ١٣٠
الخاتمة ١٣١
المبحث الثالث ١٣٣
أسرار ترتيب سورة «سبأ» ١٣٣
المبحث الرابع ١٣٥
مكنونات سورة «سبأ» ١٣٥
المبحث الخامس ١٣٧
لغة التنزيل في سورة «سبأ» ١٣٧

المبحث السادس ١٣٩
المعاني اللغوية في سورة «سبأ» ١٣٩
المبحث السابع ١٤١
لكل سؤال جواب في سورة «سبأ» ١٤١
المبحث الثامن ١٤٣
المعاني المجازية في سورة «سبأ» ١٤٣

سورة «فاطر»

المبحث الأول ١٤٧
أهداف سورة «فاطر» ١٤٧
موضوعات السورة ١٤٧
سياق السورة ١٤٨
فقرات السورة ١٤٨
١ ـ رحمة الله وفضله ١٤٨
٢ ـ آيات الله في الكون ١٤٩
٣ ـ الله غني عن عبادتنا ١٤٩
٤ ـ كتابان إلهيان ١٥٠
٥ ـ دلائل الإيمان ١٥٠
المبحث الثاني ١٥٣
ترابط الآيات في سورة «فاطر» ١٥٣
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٥٣
الغرض منها وترتيبها ١٥٣
اختصاص الله تعالى بالحمد ١٥٣
آيات تدل على اختصاصه بالحمد ١٥٤

المبحث الثالث ــــ ١٥٧
أسرار ترتيب سورة «فاطر» ــــ ١٥٧
المبحث الرابع ــــ ١٥٩
مكنونات سورة «فاطر» ــــ ١٥٩
المبحث الخامس ــــ ١٦١
لغة التنزيل في سورة «فاطر» ــــ ١٦١
المبحث السادس ــــ ١٦٣
المعاني اللغوية في سورة «فاطر» ــــ ١٦٣
المبحث السابع ــــ ١٦٥
لكل سؤال جواب في سورة «فاطر» ــــ ١٦٥
المبحث الثامن ــــ ١٦٧
المعاني المجازية في سورة «فاطر» ــــ ١٦٧

سورة «يس»

المبحث الأول ــــ ١٧١
أهداف سورة «يس» ــــ ١٧١
مقصود السورة ــــ ١٧١
ملامح السورة ــــ ١٧٢
فصول السورة ــــ ١٧٣
١ ـ رسالة ورسول ــــ ١٧٣
قصة أصحاب القرية ــــ ١٧٤
٢ ـ أدلة الايمان ــــ ١٧٤
٣ ـ وحي لا شعر ــــ ١٧٥

المبحث الثاني ١٧٧
ترابط الآيات في سورة «يس» ١٧٧
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٧٧
الغرض منها وترتيبها ١٧٧
حاجتهم إلى رسول لإنذارهم ١٧٧
إثبات قدرته على عذابهم ١٧٨
المبحث الثالث ١٨١
أسرار ترتيب سورة «يس» ١٨١
المبحث الرابع ١٨٣
مكنونات سورة «يس» ١٨٣
المبحث الخامس ١٨٥
لغة التنزيل في سورة «يس» ١٨٥
المبحث السادس ١٨٩
المعاني اللغوية في سورة «يس» ١٨٩
المبحث السابع ١٩١
لكل سؤال جواب في سورة «يس» ١٩١
المبحث الثامن ١٩٥
المعاني المجازية في سورة «يس» ١٩٥

سورة «الصافات»

المبحث الأول ٢٠١
أهداف سورة «الصافات» ٢٠١
مقصود السورة ٢٠١

سياق السورة ٢٠٢
١ ـ وصف الملائكة ومشاهد الآخرة ٢٠٢
٢ ـ قصص الأنبياء ٢٠٣
٣ ـ أسطورة تعقبها الحقيقة ٢٠٣
المبحث الثاني ٢٠٥
ترابط الآيات في سورة «الصافات» ٢٠٥
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢٠٥
الغرض منها وترتيبها ٢٠٥
إبطال الشرك ٢٠٦
أخْذ المشركين بالترهيب والترغيب ٢٠٦
إبطال نبوة الملائكة والجن ٢٠٧
المبحث الثالث ٢٠٩
أسرار ترتيب سورة «الصافات» ٢٠٩
المبحث الرابع ٢١١
مكنونات سورة «الصافات» ٢١١
المبحث الخامس ٢١٣
لغة التنزيل في سورة «الصافات» ٢١٣
المبحث السادس ٢١٥
المعاني اللغوية في سورة «الصافات» ٢١٥
المبحث السابع ٢١٧
لكل سؤال جواب في سورة «الصافات» ٢١٧
المبحث الثامن ٢٢٣
المعاني المجازية في سورة «الصافات» ٢٢٣

سورة «ص»

المبحث الأول ٢٢٧

أهداف سورة «ص» ٢٢٧

مقاصد السورة ٢٢٧

قضايا السورة ٢٢٧

١ ـ شبهات الكافرين ٢٢٨

٢ ـ قصص الأنبياء ٢٢٨

٣ ـ النعيم والجحيم ٢٢٩

سجود الملائكة لآدم ٢٢٩

المبحث الثاني ٢٣١

ترابط الآيات في سورة «ص» ٢٣١

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢٣١

الغرض منها وترتيبها ٢٣١

إنذار الكفار بعقاب الدنيا والآخرة ٢٣١

العهد القديم بعقاب الكافرين ٢٣٢

المبحث الثالث ٢٣٥

أسرار ترتيب سورة «ص» ٢٣٥

المبحث الرابع ٢٣٧

مكنونات سورة «ص» ٢٣٧

المبحث الخامس ٢٣٩

لغة التنزيل في سورة «ص» ٢٣٩

المبحث السادس ٢٤٣

المعاني اللغوية في سورة «ص» ٢٤٣

المبحث السابع ٢٤٥
لكل سؤال جواب في سورة «ص» ٢٤٥
المبحث الثامن ٢٤٩
المعاني المجازية في سورة «ص» ٢٤٩

سورة «الزُّمَر»

المبحث الأول ٢٥٥
أهداف سورة «الزُّمَر» ٢٥٥
أدلّة التوحيد ٢٥٥
ظل الآخرة ٢٥٦
فقرات السورة ٢٥٦
١ ـ التوحيد ٢٥٦
٢ ـ أنواع الانسان وحالته ٢٥٧
٣ ـ في مظاهر القدرة ٢٥٧
٤ ـ نقاش متنوع ٢٥٧
٥ ـ الله مستحق للعبادة دون سواه ٢٥٨
المبحث الثاني ٢٦١
ترابط الآيات في سورة «الزُّمَر» ٢٦١
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢٦١
الغرض منها وترتيبها ٢٦١
إبطال الوسائل من الأولياء والأولاد ٢٦١
المبحث الثالث ٢٦٥
أسرار ترتيب سورة «الزُّمَر» ٢٦٥

المبحث الرابع ٢٦٧
مكنونات سورة «الزُّمَر» ٢٦٧
المبحث الخامس ٢٦٩
لغة التنزيل في سورة «الزُّمَر» ٢٦٩
المبحث السادس ٢٧١
المعاني اللغوية في سورة «الزُّمَر» ٢٧١
المبحث السابع ٢٧٣
لكل سؤال جواب في سورة «الزُّمَر» ٢٧٣
المبحث الثامن ٢٧٧
المعاني المجازية في سورة «الزُّمَر» ٢٧٧